سلسلة « الحقيقة الصعبة » (٣)

Series "The Truth Hard" (3)

عَالَمُ المُعجزات

بحثٌ في تاريخ القُرآن

THE WORLD OF MIRACLES

STUDY ON THE HISTORY OF QUR'AN

أبو موسى الحريري

ABÛ MÛSÂ AL-HARÎRÎ

www.muhammadanism.org
July 15, 2005
Format: printed book
Fonts: Arabic Transparent and Simplified Arabic

عَالَم المعجزات



أبو موسى الحريري

عالم المعجزات

بحثٌ في تاريخ القُرآن

بيروت

١٩٨٢م / ١٤٠٢ هـ

[Plank Page]

مقدمة

أ ـ كتاب المسلمين المقدس :

مع القرآن أنتَ في قدس أقداسِ الإسلام والمسلمين : انّه كتاب ا ِ المجيد[(١)] الكـ ريم[(٢)] الحكيم[(٣)] العظيم[(٤)] المنير[(٥)] المبين[(٦)] . نزله ا ُ على محمد تنزيلاً[(٧)] ، وأنزله قرآنًـ ا عربيـ اً[(٨)] غير ذي عِوج[(٩)] ، لا ريب فيه[(١٠)] ولا اختلاف[(١١)] ، ولا ينطقُ عن الهـ وى[(١٢)] . أنّـ ه هـ دى للمتّقين[(١٣)] وبشرى للمؤمنين[(١٤)] ورحمةٌ للعالمين[(١٥)] . أنّه نور من ا [(١٦)] وذكر للعـ المين[(١٧)] . انّه « الحق اليقين » [(١٨)] والقول

----

(١) القرآن، سورة ٥٠ آية ١ ، ٨٥ / ٢١.
(٢) ٥٦ / ٧٧ ، ٢٧ / ٢٩ .
(٣) ٣٦ / ٢ ، ٣ / ٥٨ ، ١٠ / ١ ، ٣١ /٢.
(٤) ١٥ / ٨٧ ، ٣٨ / ٦٧ ، ٧٨ /٢.
(٥) ٣ / ١٨٤ ، ٣٥ / ٢٥ .
(٦) ١٥ / ١ ، ٢٧ / ١ ، ٣٦ / ٦٩ ، ٥ / ١٥.
(٧) ٧٦ / ٢٣ ، ٣ / ٣ ، ٤ / ١٣٦ ، ٢٥ / ١ ، ٢ / ٢٣ و٤٧ ، ١٥ / ٩ ، ١٦ / ٨٩ ، ١٧ / ١٠٦ ، ٢ / ٩٧ ، ١٦ / ٤٤ ، ٥٧ / ٩ ، ٤٧ / ٢.
(٨) ١٢ / ٢ ، ٢٠ / ١١٣ ، ٣٩ / ٢٨ ، ٤١ / ٤٤ ، ٤٢ / ٧ ، ٤٣ / ٣.
(٩) ٣٩ / ٢٨ ، ١٨ / ١.
(١٠) ٣٢ / ٢.
(١١) ٤ ، ٨٢.
(١٢) ٥٣ / ٣.
(١٣) ٢ / ٢ و ١٨٥ ، ٤١ / ٤٤ ، ١٦ / ١٠٣.
(١٤) ٢ / ٩٧ ، ٤٦ / ١٢ ، ١٦ / ١٠٣.
(١٥) ١٠ / ٥٧ ، ٦ / ١٥٧ ، ٤١ / ٤٤.
(١٦) ٦٤ / ٨ ، ٤ / ١٧٤ ، ٥ / ١٥ ، ٧ / ١٥٧ ، ٤٢ / ٥٢ ، ٦٤ / ٨.

الفَصلُ[١٩] ، لا يمسه الا المطَهرون[٢٠]. وما هـو بالنتيجةِ « الاّ وحي يوحى » [٢١] ، والذين « يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا » [٢٢] .

القرآن « هو الكتاب المقدس للمسلمين ... فيه أصولُ دينهم، وشرائع حياتهم، ونبـع إلهامِهم، ونبراس أخلاقهم، ونور هدايتهم في مختَلَف شؤونهم الدينيـةِ والدنيويـةِ، الروحيـةِ والماديةِ، العامةِ والخاصةِ، السياسةِ والقضائيةِ والاجتماعيةِ والشخصيةِ والإنسانيةِ ... وصفَه نبيهم بهذا الوصفِ الشامل الرائع المأثور عن طريق علي بن أبي طالب ... : « فيهِ نَبَأُ مـا قَبلكم، وخَبر ما بعدكم، وحكْم ما بينَكم » [٢٣] .

و « القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي ليس محل شك وريبٍ مـن بـين الكتبِ السماويةِ المتداولةِ في كونهِ متّصِلاً بالنبي، وفي صدورهِ عنه بِحروفهِ وألفاظهِ وسـورهِ بوحي من ا » [٢٤] . وهو « أعظم مظهرٍ لنبوةِ النبي وأقوى آياتِها ودلائلها » [٢٥] . « وقـد تكرر فيه توكيد اتّصالِه بوحي ا , وصدورهِ عنه، وعجز الناس عن الاتيان بمِثلهِ، معلِنًا ذلك على ملأٍ من خصومهِ الألداءِ وجاحديه الأشداء » [٢٦] . « وبالإضافةِ إلى هذا

----

(١٧) ١٢ / ١٠٤ ، ٣٨ / ٨٦ .
(١٨) ٦٩ / ٥١.
(١٩) ٨٦ / ١٣ .
(٢٠) ٥٦ / ٧٩.
(٢١) ٥٣ / ٤.
(٢٢) ١٧ / ١٠٨.
(٢٣) محمد عزة دروزة، القرآن المجيد، ص ٥ ـ ٦.
(٢٤) نفس المرجع، ص ٧ ، انظر الآيات التي يدعم بها حجته، وهـي : ٦ / ١٩ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ١٤ / ١ ، ١٨ / ١١٠.
(٢٥) نفس المرجع، ص ٨ ، الآيات : ٦ / ١٥٥ ـ ١٥٧ ، ٧ / ٥٢ ، ١٥ / ٨٧ ، ٢٩ / ٥٠ ـ ٥١.
(٢٦) نفس المرجـع، ص ٨ ، الآيـات : ٢ / ٢٣ ـ ٢٤ ، ٤ / ٨٢ و ١٦٥ ، ١٧ / ٨٨ ، ٢٦ / ١٩٢ ـ ١٩٥.

فقد احتوى آياتٍ كثيرةً، فيها إعلان بإشهادِ ا على صحةِ هذه التوكيدات والتقريرات وتعظيم لجرمِ الافتراء على ا » [٢٧] ، منها قوله : « ومن أظلم مِمن افترى على ا ِ كذِباً، أو قـال ُأوحِي إلي ولم يوح إليهِ بِشَيء » [٢٨] .

في إيمان المسلمين أيضاً : « جاء القرآن خاتِماً لرسالاتِ السـماء، ومكمـلا للكتـبِ المنزلةِ من قَبله، ومهيمِناً علَيها. وقد تميز إلى ذلك بميزةٍ كبرى هي أن ا سـبحانَه وتعـالى تعهد بحِفْظِه، بينَما وكِلَتِ الكتب الأخرى إلى من ُأنزلتْ إليهم للاحتفاظِ بها.

« ومِن هنا فإن القرآن هو الكتاب الوحيد في العالم كله الذي حفِظَ مـن التحريـف... ولقد كان نزولُ القرآن على محمد صلعم، في تقدير الباحثين والمؤرخِين، « أعظم حادِثٍ في تاريخ البشرية » .

« فلأول مرةٍ ـ مِن بين الكتبِ السماويةِ الأخرى ـ يظهر علـى الأرض كتـاب ذو كلماتٍ وحروفٍ إلهيةٍ، لم يكْتب سطراً من سطورِهِ بشَر، ولم يخُطّ حرفاً من حروفِهِ إنسـان. وقد أعلن الكتاب الإلهي إعلاناً لا محيص عنه أنّه آخِر وحي من السماء، وان رسالةَ السـماءِ اكتملتْ بِهِ اكتمالَها الأخير، وإن الدائرةَ الإلهيةَ التي هبطتْ منها الألواح والصـحفُ والكتـب الإلهيةُ الأخرى قد ُأقفِلتْ نهائياً » [٢٩] .

هذا القرآن هو معجزةُ المعجزاتِ الإلهية، بل هو، على حد قول ابن خلدون « أعظـم المعجزاتِ وأشرفُها وأوضحها دلالةً » [٣٠] . إنّه معجزةٌ في كل شيء : في ألفاظِه، وحروفِه، وآياتِه، وأساليبه، ولغتِه، ومعانيهِ، وتعاليمِه، وعلومِه، وشريعتِه، وتدوينِه، وحفظِه ... « ولِئن

---

(٢٧) نفس المرجع، ص ٩.
(٢٨) ٦ / ٩٢ ـ ٩٣، انظر : ١٦ / ١٠١ ـ ١٠٥، ٤٢ / ٢٤، ٤٦ / ٨، ٦٩ / ٤٣ ـ ٤٨.
(٢٩) أنور الجندي، الإسلام والعالم المعاصر، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.
(٣٠) ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار الكتاب اللبناني، ص ١٦٥.

اجتمعتِ الانس والجِن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثلِهِ ولو كان بعضهم لـبعضٍ ظَهيراً » [٣١] . وبرهان معجزتِه أنّه كله مِن عندِ ا ، « ولو كان مِن عندِ غيرِ ا ـ لَوجـدوا فيهِ اختلافاً كبيراً » [٣٢] .

هذا الكتاب هو « معجزةُ التاريخ العربي خاصةً، ثم هو بآثاره الناميةِ معجزةٌ أصـليةٌ في تاريخ العالَمِ كله على بسيطِ هذهِ الأرض، مِن لَدن ظَهر الإسلام إلى ما شاء ا ... » [٣٣] . و « القرآن ... انّما هو الباب الذي خرج منه العقلُ الإنساني المستَرجِلُ، بعد أن قَطَع الـدهر في طفولةٍ وشباب ... (و) القرآن إنّما هو الدرجةُ الأبديةُ التي أجاز عليها العالَم في انتقالِه من جهةٍ إلى جهة » [٣٤] .

القرآن « هو كتاب السماء إلى الأرضِ مستقراً ومستودعاً، وقد جاء بالإعجازِ الأبدي الذي يشهد على الدهرِ، ويشهد الدهر عليه. فما مِن جهةٍ من الكلامِ وفنونهِ الاّ وأنتَ واجِد إليها متوجهاً فيهِ، وما من عصرٍ الاّ وهو مقِلب صفحةٍ منه حتى لتنتهي الدنيا عند خاتِمته فإذا هي خَلاء « من الجنّةِ والناسِ » [٣٥] . وعند الدكتور الرافعي أيضا « إن القرآن كتاب الدهرِ كله، وكم للدهرِ من أدلّةٍ على هذه الحقيقةِ ما تَبرح قائِمةً » [٣٦] . وأيضاً : « القرآن كتـاب كـل عصرٍ، وله في كل دهرٍ دليلٌ من الدهرِ على الإعجازِ » [٣٧] . وأخيراً : « لا يعلم الناس من ذلك إلاّ أنّه (القرآن) معجزةٌ من معجزاتِ التاريخ العِلمي في الأرضِ لم يتّفِقْ له فـي ذلـك شبيه مِن أول الدنيا إلى اليومِ، ولن يتّفقَ » [٣٨] . ومن ذلك أيضاً : « هذا الكتاب الكريم سبقَ العقلَ الإنساني ومخترعاتِه بأربعةَ عشَر قرناً إلى زمننا، ومـا ذاك الاّ فَصـلٌ مـن الـدهرِ، وستعقبه فصولٌ بعد فصولٍ » [٣٩] .

----

(٣١) ١٧ / ٨٨.
(٣٢) ٤ / ٨٢.
(٣٣) الدكتور مصطفى الرافعي، إعجاز القرآن، ص ١١٤.
(٣٤) نفس المرجع، ص ١١٥ ـ ١١٦.

لقد « عنِي المسلمون بالقرآن من كل جانبٍ من جوانبِه، حتى كان هو الـذي قامـتْ حوله ومن أجلِه كلُ العلومِ الدينيةِ والعربيةِ والكونيةِ، وغيرها ... فكان حقًا باعِـثَ النهضـةِ العلميةِ بمفهومِها الواسعِ لأتباعِه » [٤٠] . بالقرآن ظهر فضلُ المسلمين على العالمِ أجمع : فـ « الحمـد ِ الذي فَضلَنَا بالقرآن على الأممِ أجمعين، وآتَانَا بِهِ مـا لم يـؤتِ أحـ ـدا مـن العالّمين » [٤١] .

ولئن تحدى النبي بالقرآن كفّار قريش ومشركِي مكّةَ وجميع الجن والإنسِ بأن يـأتوا بسورةٍ من مثِله، فإن القرآن نفسه أعطى المسلمين لأن يتَحدوا العالم أجمع بجميعِ ما عنـدهم من علومٍ وشرائع. هكذا « نَقَلَ جميع المسلمين هذا التحدي إلى جميع الأممِ، فظَهـر عجزهـا أيضا » [٤٢] . وذلك لأنّنا نقع فيه « على ذخائِر واسعةٍ من المعرفةِ تُعجِز أكثر الناسِ ذكـاء، وأعظم الفلاسفةِ، وأقدر رجال السياسةِ » [٤٣] .

ويكفي المسلمين فخر أن ينعموا بكلامِ ا ِ يتَجسد فيما بينهم، يحـل فـيهم، ويعطـيهم السكينةَ والطمأنينةَ والسلام. ويكفي قارئَ القرآن أن يكون من الوحي والنبوةِ على قيدِ شَعرةٍ. والحقيقةُ تقال : « من قَرأَه فَقَدِ استَدرج النبوةَ بين جنبيهِ غير أنّه لا يوحى إليهِ » [٤٤] .

---

(٣٥) هذه الجملة هي آخر المصحف، نفس المرجع، ص ٣٢.
(٣٦) نفس المرجع، ص ١١٩.
(٣٧) نفس المرجع، ص ١٥٤.
(٣٨) نفس المرجع، ص ١٢٧.
(٣٩) نفس المرجع، ص ١٣٠.
(٤٠) الدكتور عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، ص ٣٣.
(٤١) محمد بن عبد ا دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ٩.
(٤٢) محمد رشيد رضا في مقدمة على « إعجاز القرآن » للرافعي، ص ١٧.
(٤٣) لورا فيشيا فاغليرى، دفاع عن الإسلام، ص ٥٨.
(٤٤) عن إعجاز القرآن للدكتور الرافعي، ص ٩٩.

٣ ـ صلةُ النبي بالقرآن :

لا يد لمحمدٍ في القرآن. ليس له أن يبدلَ فيه شيئاً : « قُلْ ما يكون لي أن أُبدله مِـن تَلْقَاءِ نفسِي، أَن أتبِع إلاّ ما يوحى إلي » (٤٥) ، بل ليس له أيضاً أن يتسرع في تَقبل الـوحي، ا ُ هو الذي يصنَع له كلَ ما يشاء : « لا تُحرك به لسانَك ِلتعجلَ به، ان علينَا جمعه وقرآنَه. فإذا قرأناه فاتّبع قرآنَه. ثم إن علينا بيانَه » (٤٦) . لا يملك محمد، إزاء القرآن، أي أمـرٍ مـن أمور السماءِ : « لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرا الاّ ما شاء ا » (٤٧) ، و « قل : لا أقولُ لكم عندي خزائن ا ، ولا أعلم الغيب، ولا أقولُ لكم أنّي ملَك، أن أَتبع إلاّ ما يوحى إلي » (٤٨) .

فمحمد إذن « لا دخلَ له في الوحي، فلا يصوغُه بلفظِه، ولا يلقِيهِ بكلامِه، وإنّما يلقى إليه الخطاب القاء. فهو مخاطَب لا متكلم، حاكٍ ما يسمعه، لا معبر عن شـيءٍ يجـولُ فـي نفسِه... (ثم) إن النبي لا يملِك حتى حق استخدامِ ذاكرتِه في حفظِ القرآن، بـل ا ُ يتكفـلُ إياه... وهو يرى بنفسِه أنه لا يملِك من أمر نفسِه شيئًا... إنّه الوحي ينزلُ على محمدٍ حـين يشاء رب محمدٍ، ويفتَر إذا شاء له رب محمدٍ الانقطاع، فما تنفع التعاويذُ والأسجاع، ولا تقدم عواطفُ محمدٍ ولا تُؤخر في أمر السماء » (٤٩) .

« القرآن إذاً صريح في أنّه لا صنعةَ فيهِ لمحمد ... ولا لأحدٍ مِن الخَلق، وإنما هـو منَزلٌ من عندِ ا ِ بلفظِهِ ومعناه » (٥٠) والتعريفُ المتفَقُ عليه هو أن « القرآن هو كـلام ا تعالى، المنزلُ على محمدٍ صلّى ا عليه وسلّم، المتعبد بتلاوته » (٥١) .

----

(٤٥) ١٠ / ١٥ ـ ١٦.
(٤٦) ٧٥ / ١٦ ـ ١٩.
(٤٧) ٧ / ١١٨.

ومما يدلّ على أن القرآن كلّه من عندِ ا واقع محمدٍ الأمي الـذي يجهـلُ الكتابـةَ والقراءةَ. وأميةُ محمدٍ من مسلماتِ الإسلام والمسلمين. لهذا « كيفَ يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمدٍ، وهو العربي الأمي!؟ ... وعلى الرغم مـن أن أصـحاب البلاغـةِ والبيان الساحر كانوا غير قلائلَ في بلادِ العربِ فان أحدا لم يتمكّن من أن يـأتي بـأي أثَـر يضاهِي القرآن ... انّه ممتنِع على التقليدِ والمحاكاةِ حتى في مادتِه ... » (٥٢) . ومـن هـذا القبيل أيضا : « من أين لأمي كالنبي عليه السلام، أو متعلمٍ مهما أُوتِي من العلمِ أن يؤَلِفَ ستةَ آلافِ آية بهذه الفصاحةِ والاتّساقِ ؟ ان في ذلك لآيةً على أنه من عندِ ا ... وقد ظهر القرآن على لسان أمي لم يتَعلمِ القراءةَ والكتابةَ، فكيف يمر عليه أربعةَ عشَر قرنًا تتغير فيه العقليـةُ البشريةُ ولا يظهر فيه اختلافَ ؟ بل نَرى الأصولَ التي أتى بها القرآن ... تُناسِب مـع كـل زمانٍ ومكان » (٥٣) .

****

٣ ـ اللّغَةُ العربيةُ في حِمى القرآن :

القرآن هو مصدر اللغةِ العربيةِ وحافِظُها، وهو الذي حماها « لغة مِن أن تذوب فـي لغاتٍ. وما نعرفُ شيئًا حمى اللغةَ العربيةَ من الضياع ... غير هذا الكتابِ الكريم. أُبعِدتْ ما أُبعِدتِ الشعوب العربيةُ عن الكلامِ

----

(٤٨) ٦ / ٥٠.
(٤٩) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠ و ٣٣ و ٣٨.
(٥٠) محمد دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص ٢١.
(٥١) نفس المرجع، ص ١٤. انظر تفسير ذلك في الصفحات التالية.
(٥٢) لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، ص ٥٦ ـ ٥٨.
(٥٣) عفيف عبد الفتاح طباره، روح الدين الإسلامي، ص ٤٢ و ٤٣.

بلغتِها العربية وكان هو مردها إليها، كلما أوشكتْ أن تنفصم صلتُها بها ربطتَها هو بها. وهكذا عاشتِ الأمةُ العربيةُ بعيدةً بكل ما في يديها عن لغتِها قريبةً بهذا الكتابِ وحده إلـى لغتِهـا. وحين حمى هذا الكتاب اللغةَ لأهلها حمى هؤلاء مِن أن يتفرقوا أيدي سبأ ... » [٥٤] .

ثم ان القرآن هو قاعدةُ اللغةِ العربيةِ وأصلُها والحكم عليها. وهي تَنتسِب إليه، وتحتمِي بهِ، وتُصان. وفي رأي الشيخ صبحي الصالح : « اننّا نجعلُ القرآن حكماً على قواعِدِ اللغـةِ والنحو، ولا نجعلُ تلك القواعد حكماً على القرآن » [٥٥] . وفي رأي الـدكتور الرافعـي، أن القرآن « هو يدفع عن هذه اللغةِ العربيةِ النسيان الذي لا يدفَع عن شيء. وهذا وحده اعجاز... تُذْكر بهِ اللغةُ، ولا يذْكر هو بِها. وبذلك يحفَظُها » [٥٦] .

ويبدو واضحا للعيان وللتاريخ أن القرآن « هو الكتاب الوحيد الـذي احـتفظَ بلغتـهِ الأصليةِ، وحفظَها على قيدِ الحياة، وسيحفظُها على مر الـدهور. وسـتموتُ اللغـاتُ الحيـةُ المنتشرةُ اليوم في العالَمِ، كما ماتتْ قبلَها لغاتٌ حيةٌ كثيرةٌ في سالفِ العصـور، الاّ العربيـةُ، فستبقى بمنجاةٍ من هذا الموت، وستبقَى حيةً في كل زمان، مخالِفةً لنـواميسِ الطبيعـةِ التـي تَسري على سائر لغاتِ البشر، ولا غرو فانّها متّصلةٌ بالمعجزةِ القرآنيةِ الأبدية » [٥٧] .

وبعد كل هذا ليس على اللغةِ العربية، بعد القرآن، أن تَخافَ على نفسِها من المـوتِ والفناء، حتى ولو فارقتِ الشفاه واللسان، لأن المتكلّم بها هو ا ُ، والكلام فيها هـو كـلام ا والملائكةِ وأهل الجنّة الناجين.

----

(٥٤) ابراهيم الابيارى، تاريخ القرآن، ص ٥٤.
(٥٥) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٥٨.
(٥٦) الدكتور مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٤.
(٥٧) أنور الجندى، الإسلام والدعوات الهدامة، ص ٢٦٩.

ولو لم يكن القرآن حافِظًا قواعِدها، ورابِطًا مراسيها، وحامِي ألسنةِ الناطقين بها، لأصابها ما أصاب سواها من لغاتِ أهل الأرض. كلّ لغاتِ العالَمِ يجري عليها قانون الموتِ والحياةِ، مـا عداها، لأنها تَعلو على سنّةِ الموتِ بعد أن أفسحتْ لها الحياةُ مجالَ الدهور. ومهما قرر علـم اللغةِ من تطور اللغاتِ في ألْسِنَةِ البشر، فان اللغةَ العربيةَ متنعمةٌ بالسؤددِ والمجدِ في كلامِ اـ السرمدي. فلا اللهجاتُ ولا اللكنَاتُ ولا التلحين والتصحيفُ والتحريفُ بجائزٍ علـى لغـةِ اـ العلي. وعلى الاستعمار ورجالهِ أن يعرفوا حدودهم وحدود علمِهم عندما يواجهـون لغـةَ اـ وأهل الجنّة، لأنّنـا أمام « معجزةٍ ثانيةٍ خالدةٍ بخلودِ » القرآن[٥٨] . وهكـذا يكـون القـرآن « معجزا في نفسه من حيثُ هو كلام عربي » [٥٩] .

****

٤ ـ العِلْم في القرآن ومن القرآن :

كلُّ ما في الأرضِ من علومٍ مصدرها ومرجعها القرآن : « ان ما يداولُه العالَم اليوم من فلسفاتٍ وعلومٍ انّما هو من نتاج الفكر الإسلامي أصلاً، وان القرآن كان بالحق هو مصدر المصادر « في مناهجِ العلومِ التجريبية والاجتماعيةِ جميعاً » [٦٠] . بل « ان القرآن (هـ ـ و) بمثابةِ ندوةٍ علميةٍ للعلماء، ومعجمِ لغةٍ للغويين، وأجروميةِ نَحوٍ لِمن أراد تقويم لِسانَه، وكتاب عروضٍ لمحبِ الشعر, وانسكلوبيديةٍ عامةٍ للشرائع والقوانين » [٦١] .

----

(٥٨) ابراهيم الابيارى، تاريخ القرآن، ص ٤٤. انظر أيضا ٤٥.
(٥٩) الدكتور مصطفى الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٥٧.
(٦٠) أنور الجندى، الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ٢٥٠.
(٦١) أنور الجندى، العالم الإسلامي والاستعمار ...، ص ٣٢٦.

هذا القرآن العظيم نجد فيه كلّ « ما يؤيد ويدعم مواضيع العلمِ الحديث : من تجزئـةِ الذرة، وثنائيةِ المادة، والأشعةِ الكونية، وطبقاتِ الجو، والضـغطِ الجـوي، وتركيـبِ المـاء والهواء، ولغةِ الحشرات، وبصمات الأصابع، والكائنات المجهرية، وعدمِ فناء المادة، وغـزو الفضاء، والذبذبات الصوتية، والنَقْل البعيد، والرؤيةِ عن بعد (التلفزة)، إلى غير ذلـك مـن حقائق العلم الحديث » (٦٢) .

لقد تناولَ القرآن بالبحثِ كلّ المعارفِ والعلومِ الممكنةِ « تناولاً شامِلاً جامِعا مانِعا. لم يبقَ فيه للأجيال التي تاتْ نزولَه ما تزيده، ولم يتْرك للعلمِ وآلاتِه أن يضيفَا شيئًا إلى بيناتِهِ ... فسبقَ العلم ولم يتْرك زيادةً لمستزيد » (٦٣) . لهذا « نحن نقدِر أن نقولَ، بكل ثقةٍ واعتزاز، أن جميع الأمثال القرآنيةِ مؤيدةٌ من العلمِ الحديثِ دون استثناء » (٦٤) .

بل قد نعجز عن احصاءِ علومِ القرآن أو أن نَستقصيها جميعها، « وقد ذكَر الألوسـي في تفسيره عن بعض السلف : ُأنزلَ في هذا القرآن كلُ علمٍ، وبين لنا فيه كل شـيء. ولكـن علمنا يقصر عما يبين لنا في القرآن. ونَقَلَ عن ابن عباس قولَه : « لو ضاع لِي عقالُ بعيـرٍ لَوجدتُه في كتاب ا ِ تعالى » . وذَكَر أيضا : ان بعض العلماءِ استخرج من « الفاتِحةِ أسماء سلاطين آل عثمان وأحوالِهم ومدةَ سلطانِهم إلى ما شاء ا » (٦٥) .

وهكذا « ما مِن علمٍ الاّ وقد نظَر أهلُه في القرآن، وأخذوا منه مادةَ علمِهم، أو مـادةَ الحياةِ له » (٦٦) . وفي علمِ الرافعي « قد ألّفَ بعض

---

(٦٢) يوسف مروة، كتاب العلوم الطبيعية في القرآن، ص ٦٩.
(٦٣) أحمد سليمان، القرآن والطب، ص ١٢٠ ـ ١٢١.
(٦٤) الامام موسى الصدر، في مقدمة كتاب يوسف مروة، « العلوم الطبيعية » ، ص ٣٨.
(٦٥) أحمد سليمان، القرآن والعلم، ص ١٦٩ ، نقلا عن « روح المعاني » .
(٦٦) الدكتور مصطفى الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٢٢.

علماءِ القومِ كتابا سماه « تنبيه الأغنياء على قَطرةٍ من بحرِ علومِ الأوليـاء » . كانـت هـذه القَطَرةُ فيه زهاء ثلاثةِ آلافِ علمٍ. فترى ما عسى أن يكون البحر ؟ اللهـم ان السـلامة فـي الساحل »[٦٧] . وعند الرافعي أيضا أن في القرآن « اشاراتٍ وآياتٍ بيناتٍ في مسـائلَ مـا برحتِ العلوم الطبيعيةُ تحاولُ الكشفَ عن كنهها منذ عصور »[٦٨] . كما يخلص إلى القول : « ان هذه المخترعاتِ والمستحدثاتِ وما أدتْ إليه من أدلّةٍ ونظرياتٍ قد جاءتْنا ببرهانٍ جديـدٍ على إعجازِ القرآن الذي نَدين الله عليه، فقرتْ أعين المؤمنين، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس »[٦٩] .

« ولعلّ أهم الأسبابِ الداخليةِ لانحطاطِ المسلمين وتأخرهم في الوقتِ الحاضـر هـو انصرافُهم ... عن تدارسِ ما في القرآن من كنوزِ العلمِ والمعرفةِ، والتي ما زالتْ بِكرا حتـى الآن »[٧٠] . ونحن على يقينٍ أن العالَم الإسلامي، إذا ما عاد إلى كلامِ الله يستشفُ منه العلـم والمعرفةَ، سيلتحقُ بِركْبِ العلمِ وأهل العلم، لأن مصدر العلمِ في كتابِ الله الذي بين أيـديهم. وبهذا لن تعود أوروبا تتحكّم برأسمال المسلمين، لئلا يلحقَ بكتابِ الله من هذا التحكّمِ شـيء. وحاشا الله من المفسدين.

****

٥ ـ في القرآن شريعةُ الخلود :

في اعتقاد المسلمين ان الشريعةَ الإسلاميةَ هي آخِرِ صورةٍ لِكل شريعةٍ، وقد لا تلحقُ البشريةُ في نُضجِها ونموها الأخيرِ مستوى شريعةِ الإسلام « التي

---

(٦٧) الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٢٦، حاشية (١).
(٦٨) نفس المرجع، ص ١٣١.
(٦٩) نفس المرجع، ص ١٣٣.
(٧٠) الدكتور داوود العطّار، موجز علوم القرآن، ص ٧.

أرادها ا ُ لمستقبل البشريةِ كلها، والتي وضعها ا ُ على مسـتوى النضـج للبشـريةِ كلّهـا، وصاغَها بحيثُ تشملُ كلّ دقائق حياتِهم، وتسير مع كل نموهِم وتطـورهم حتـى يـرثَ ا ُ الأرض وما عليها ... وعالج الإسلام (هذه الشريعة) بحيثُ لا تخرج الحياةُ البشريةُ في أيةِ لحظةٍ من تطورها عن مفاهيم الإسلامِ وتشريعاته » (٧١) .

ان الإسلام، بنظر المسلمين المؤمنين، يناسِب كلّ عصرٍ، فيما سائر الأديـان تناسـب عصرها الذي وجِدتْ فيه. و « الأديان تختلفُ في تشريعاتِها لاختلافِ أحوال الأممِ الاجتماعيةِ ودرجةِ استعدادِها العقلي. ولقد اختتم ا ُ الأديان بالدين الإسلامي، وأعطى محمدا شريعةً تَنْسَخُ ما قَبلَها من الشرائع مظهرا فيها كنه الدين الحقّ. وهذه الشريعةُ توافقُ ما اقتضـاه التطـور العقلي للإنسان وتصلح لكل زمـانٍ ومكانٍ، وانّها الشريعةُ المقبولـةُ عنـد ا ، ولا يقْبـلُ غيرها » (٧٢) .

ثم ان « الشريعةَ الإسلامية هي شريعةُ الخلودِ والبقاء، لانّها جمعتْ بين حلقاتِ الزمن من دابرٍ وحاضرٍ، فوضعتْ لكل عصرٍ وجيلٍ أحكامه وطرائقَه، فكانتْ شريعةُ الإسلامِ خيـر الشرائع وأمثلَ القوانين » (٧٣) . وهكذا « لما كان الإسلام خاتم الأديان كان من الضروري أن يأتي بشريعةٍ تختم كل الشرائع، ومن هنا كانتْ شريعةُ الإسلامِ صالحةً لكـل زمـانٍ لأنّهـا شريعتُه، ولكل مجتمعٍ لأنّها حياتُه الفاضلة المهذبة. وليس في الأرض شريعةٌ صالحةٌ كشريعةِ الإسلام، وما من مزيةٍ صالحةٍ في أي شرعٍ كان الاّ والإسلام يحويهِ على أكمـل وجـه، لأن شريعةَ الإسلامِ هي شريعةُ ا ، ومـا شَرع أكمـلُ من شَرعِ ا ، ولا خير منه للإنسـانيةِ كلّها » (٧٤) .

----

(٧١) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص ٢١ ـ ٢٢.
(٧٢) عفيف عبد الفتّاح طبارة، روح الدين الإسلامي، ص ١٧.
(٧٣) عباس طه، السلطتان الدينية والدنيوية كما يراها الإسلام، في كتاب « الإسلام والأنظمة السياسـيةُ » ، دار الكاتب العربي، ص ٨١.

والسبب في ذلك هو ما « في شريعةِ الإسلام من المسايرةِ والمطاوعةِ واليسرِ والسعةِ والمرونةِ والكفايةِ لكل ما يشملُ تطوراتِ الحياةِ، ويحقّقُ للناسِ سعادتهم أفرادا وجماعاتٍ في كل زمنٍ وبيئة » (٧٥) .

و « كذلك المبادئُ والأصولُ الرئيسيةُ للفقهِ والتشريعِ الإسلامي، فيها صفة الشمول والعمومِ لحياةِ الإنسان في كل البيئاتِ والعصورِ. وفي الوقت نفسهِ تتصفُ بالثباتِ والدوام، ولكن لا بمعنى الجمودِ والتحجر ... وعليه يكون معنى صلاحِ الشريعةِ الإسلامية لكل زمانٍ ومكان : ان مبادئَها وأصولَها الأساسية تصلح لأن يتفرع عنها ويستَخرج منها أحكام تنسجم وتتلاءم مع كل بيئةٍ وعصرٍ، وان الخير والصلاح لا يمكن وجوده والبحثُ عنه خارج إطار مبادئ الشريعةِ الإسلامية وأصولِها » (٧٦) .

والعجيب الغريب حقّا أن تَرى بعض « الدول الإسلامية أو أكثَرها تنقلُ قوانينَها عن الغَربِ، وتهملُ الشريعةَ الإسلامية، مع العلمِ أن أكثر القوانين الغربيةِ منقولةٌ - بطريقٍ أو بآخر - عن الفقه الإسلامي. وعلى فرض استقلالِها عنه، فان التشريع الإسلامي لا يدانِيهِ أي دستورٍ أو قانون » (٧٧) .

ان الشريعة الإسلامية، أخيراً، بلغتِ الكمالَ والتمام في كل شيء : « لقد بلغتْ (مثلاً) في تكريمِ المرأةِ وتأكيدِ حقوقِها واستقلال شخصيتها ما لم يبلغْه تشريع اجتماعي أو قانوني في القديمِ ولا في الحديث » (٧٨) . و « ان الحضارةَ الإسلاميةَ سبقتِ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، حتى

---

(٧٤) أحمد عبد الغفور عطّار، هل يفي الفقه الإسلامي بحاجات كل عصر ؟ في كتاب « الإسلام والتحدي الحضاري » ، دار الكاتب العربي، ص ١١٢.
(٧٥) محمود الشرقاوي، التطور روح الشريعة الإسلامية، ص ٧٠ و ٩١.
(٧٦) محمد جواد مغنية، الإسلام بنظرة عصرية، ص ٣٨ - ٣٩.
(٧٧) نفس المرجع، ص ٤٣.
(٧٨) الشيخ صبحي الصالح، الإسلام والمجتمع العصري، ص ١٨٨ و ١٨٩.

جاء هذا الإعلان وكأنّه مشتَقّ من مبادئ الإسلام » [٧٩] . كما أنّه « ولا شك أيضـا فـي أن الإسلام قد سبقَ الأنظمةَ كلَها إلى تحرير الرقيق » [٨٠] . وبالعموم « ان التشريع الإسلامي لا يدانيه أي دستورٍ » في العالم [٨١] .

****

٦ ـ في القرآن حلولٌ لكل مشاكل الكون والإنسان :

في اعتقادِ المسلمين أن القرآن قدم الحلولَ المناسِبةَ والنهائيةَ والجذريةَ لكـلّ مشـاكل الإنسان والعصرِ والمجتمع. بل ان « الإسلام هو نهايةُ الفكرِ الإنساني. والإنسانيةُ، بعد طُول حيرتِها حولَ المذاهبِ والدعواتِ والأفكارِ، لن تجد حلا لمشـاكِلِها الاجتماعيـةِ والسياسـيةِ والاقتصاديةِ إلا في الإسلام » [٨٢] .

وفي القرآن أيضا « المنهج الذي يعطي الجواب الصحيح عن كـل مسـألةٍ، ويحكُـم بالحق في كل مشكلة ... المنهج الذي لا منقِذَ غيره للناس مما هم فيه من شقوةٍ وعذابٍ وحيرةٍ واضطراب » [٨٣] . وفي كل أمرٍ من أمور الدنيا والناس تجد الحل لمعضـلتهِ فـي القـرآن والإسلام : « لا حل الاّ بالإسلامِ الذي يعبد الطريق في كل شيء. ويكون بوسعهِ أن يوفّر لنا المخرج إلى حد بعيد » [٨٤] .

وفي القرآن أيضا « دين جارى التطور في كل زمانٍ ومكان ... ولـم تقـفْ أمامـه مشكلةٌ من المشكلات ... دين لا زالتْ أصولُه ودعواتُه حلم البشريةِ بعدما وصلتْ إليـه مـن تطورٍ وتقدمٍ وحضارة ... دين وضع أصولاً خالدةً لإصلاح جميع

---

(٧٩) أنور الجندي، الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ٢٥٧.
(٨٠) الشيخ صبحي الصالح، الإسلام والمجتمع العصري، ص ١٦١.
(٨١) محمد جواد مغنية، الإسلام بنظرة عصرية، ص ٤٣.

مجالاتِ الحياةِ ... لم يقفِ الإسلام ... حائلاً أمام أيةِ مشكلةٍ من مشكلاتِ الحيـاة، فـي كـل عصرٍ وكل بيئة. بل وجد الحلولَ العادلةَ لكل ما جد وما يجد على سطح الأرض من جديد ... حلّ جميع العصبياتِ وأبطلها، وكلَ المشكلاتِ وأزالها، وجميع العِقَدِ النفسيةِ والروحيـةِ عنـد جميع الناس ... قابلَ الإسلام آلافَ الدعواتِ والمبادئ والأفكارِ الجديدةِ، ومع ذلك لم تسـتطع أحداها أن تجاريه في حيويتهِ، وبساطتهِ، ومثاليتهِ، وعِظَمِ مبادئهِ وأصولهِ ... » [٨٥] .

كلُ إنسان، مهما كانتْ درجةُ وعيهِ ونضجهِ، وإلى أي معتقـدٍ أو مـذهبٍ أو إيمـانٍ ينتمي، يجد في الإسلام « نِظاما من القيمِ الأخلاقيةِ والشرائعِ المدنيةِ التي تعطيهِ أجوبةً مفَصلَةً لما يعترضه من مشكلاتِ الحياةِ اليومية » [٨٦] . و « لا ريب أن الدين الإسلامي خاتم أديـان العالم كفيلٌ بكل ما يحدثُ إلى يوم القيامة » [٨٧] . بل « منذ بزغَ فجر الإسلام إلى اليـوم ... وإلى ما بعدِ اليوم لم يقْض أمر من أمورِ هذا الكوكب دون أن يكون للإسلامِ فيه أثر... »[٨٨].

ونستطيع القولَ أن « أي استكشافٍ يصلُ إليه العقلُ البشري فهو انتصار لدين محمـد والقرآن. وأي عملٍ ينفَع الناس بجهةٍ من الجهاتِ فهو من هذا الـدين فـي الصـميم ... وأي إنسانٍ يتْرك أَثَرا مفيدا لأخيهِ الإنسان

----

(٨٢) محمد فريد وجدى، المستقبل للإسلام، ص ١٢٦.
(٨٣) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص ٣٢١.
(٨٤) الدكتور قهر الدين يونس، النظام الاقتصادي في الإسلام، في كتاب « الإسلام والمعضلات الاجتماعيـة الحديثة » ، ص ١٢٨.
(٨٥) الدكتور محمد خفاجي، الإسلام ونظريته الاقتصادية، ص ١١.
(٨٦) نعيم عطية، عن أنور الجندي، الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ١٩٦.
(٨٧) محمد يوسف البنوري، موقف التشريع الإسلامي من الاجتهاد ومنصب العقل في الدين، في « الإسـلام والتحدي الحضاري » ، ص ٧٣.
(٨٨) أنور الجندي، الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ٣.

فانه يلتقي بعملِهِ هذا مع دين ا ... » [٨٩] .

وبالنتيجةِ، وبفضل القرآن، كان الإسلام « ثورةً لم تشهدها الإنسانيةُ من قَبل ولا مـن بعد، وإصلاحا لم يكن يحلُم بهِ بشر، ولا زلنَا حتى اليوم لا نسـتطيع أن نصِـلَ إلـى مـداه الكبير... ثم استمر في مدهِ العظيمِ وانضوى تحتَ لوائهِ الملايين... مستبشرين بعهدِ الحريـةِ والإخاءِ والتعاون والعدالةِ والمساواةِ والرفاهيةِ لبني البشر جميعا، وعاملين على تأثيل حضارةٍ ومدنيةٍ جديدة لم تشهدها البشريةُ من قبل » [٩٠] .

وفي رأي الدكتور الشيخ صبحي الصالح « ان الإسلام ... أقوى عامل ثوري يخْرِج المجتمع العصري من الرتابة والجمود، بما يستطيع تقديمه من الحلول في سـبيل الإصـلاح العالمي المنشود ... وقد انطوتْ تعاليمه الصريحة على مبادئَ واضحةٍ كفيلةٍ، إذا ما طُبقـتْ، بإحداثِ ثورةٍ شاملةٍ في ميادين الاجتماعِ والاقتصادِ ... » [٩١] . وكل ما في العالم من مذاهب معاصرة، « لقد سبقَ الإسلام هاتيك المذاهب في هذا المجال، بعدة قرونٍ وأجيال » [٩٢] .

بل « ان كلَ الدلائل تشير إشارةً حاسِمةً إلى قدرةِ الشريعةِ الإسلاميةِ على وضع مـا سميتُه بالصياغةِ المرنةِ والحلول الذكية لكل ما يحتاج البشر إليه فـي يومنـا هـذا » [٩٣] . وبالعموم ان الإسلام هو « طريقُ حقيقةٍ وعقيدةٍ وشريعةٍ وحضارةٍ وعلمٍ وفلسفة » [٩٤] .

---

(٨٩) محمد جواد مغنية، الإسلام بنظرة عصرية، ص ١٣ ـ ١٤.
(٩٠) الدكتور محمد خفاجي، الإسلام ونظريته الاقتصادية، ٩ ـ ١٠.
(٩١) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، الإسلام والمجتمع العصري، ص ٩ و ١٢.
(٩٢) نفس المرجع، ص ٢١.
(٩٣) نفس المرجع، ص ٢٤.
(٩٤) حسن صعب، الإسلام تجاه تحديات الحياة العصرية، ص ٤١.

٧ ـ كلُّ الاطمئنان في القرآن :

« في الإسلام ـ وطبعا في القرآن ـ تجد الإنسانيةُ القلِقَةُ طمأنينَتَها وهدايتها » [٩٥] . هذه الطمأنينةُ هي نفسها التي أنعم الله بها على رسولِهِ. وهذا القرآن « ما جعلَه الله إلاَّ بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به » [٩٦] . ونحن بالقرآن، ومع الرسول، على سكِينَةٍ مِـن عنـدِ الـرب العلي: لقد « أنزلَ الله سكينَتَه على رسولِهِ وعلى المؤمنين » [٩٧] .

و « الطمأنينةُ خُلُقَ من أخلاق القرآن الكريم، تحدث عنها في أكثر من موطِنٍ، فقـالَ في سورةِ البقرة : « قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى. ولكن ليطمئن قلبـي » [٩٨] . وقـال فـي سورةِ الرعد : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكرِ الله ، ألا بذكرِ الله تطمئن القلـوب » [٩٩] . وقال في سورة الفجر :« يا أيتها النفس المطمِئنّةُ ارجِعي إلى ربكِ راضيةً مرضية » [١٠٠] .. الخ » [١٠١]

ثم إن « القرآن الكريم هو أصدقُ رائد إلى هذا الإيمان، وهو أقوى قاطع لذيل الشـكِ والريبِ، ومن هنا جاء قولُ الله تبارك وتعالى : « الذين آمنوا وتطمِئن قلـوبهم ... » ، لأن هؤلاءِ إذا ذَكروا ربهم، وقرأوا كلامه وتدبروا مغزاه، خشعتْ قلوبهم واطمأنّت » [١٠٢] .

وقد عبر المسلمون المؤمنون عن هاتين الفضيلتين : الطمأنينة والسكينة خير تعبير في جميع ما وضعوا من كتبٍ ومقالات، وفي جميع حياتهم الإيمانية المستنيرةِ بـالقرآن وسـيرةِ النبي؛ لقد وجدوا، في كتابِ الله ، حلا لكل مشكلة.

---

(٩٥) أحمد عبد الجواد الدومي، الإسلام منهاج وسلوك، ص ٨.
(٩٦) القرآن : ٣ / ١٢٦، انظر ٨ / ١٠.
(٩٧) ٩ / ٢٦، ٤٨ / ٢٦، انظر : ٩ / ٤٠، ٤٨ / ٤ و ١٨.
(٩٨) ٢ / ٢٦٠.
(٩٩) ١٣ / ٢٨.
(١٠٠) ٨٩ / ٢٧.

ومنهجا لكل علم، وشرعا لكل شريعة، ومرجعا لكل معرفة، وأساسا لكل خيرٍ وصلاح، ونهجا مستقيما لكل رأي، وقاعدةً متينةً لكل عقيدة، واستقامةً لكل صراط، وهدى لكل شريد، وموئلاً لكل تائه، ومحجةً بيضاء لكل ضالّ، وخلاصا للعالمين.

فـ « في الإسلام فقد يجِد العقلُ ما يوسع أفقَه ويرشده » إلى طريقِه السوية ... وفي الإسلام يجد الفكر المشلولُ النور البـاعث ... وفي الإسلام تجد العواطفُ المسعورةُ بالشهوةِ ما يهذب غرائزهـا ويسمو بهـا إلى المثـاليةِ الممكنة ... ان هـذا القرآن يهدي للتي هـي أقوم ... » [١٠٣].

ليس بعد هذه الطمأنينة في قلب المسلم أو عقله أي قلق أو تمزق. فهو مطمئِن البـال والنفسِ والعاطفةِ والفكر. انّه على يقينٍ من ربه وإيمـانِه بربه، لأن كتـابه هـ ـو « الحـ ـقّ اليقين » [١٠٤]. ولئن كان في قلبِ المسلم من قلقٍ فبسببٍ بعدِه عن كتـابِ ا : « إن أزمـةَ القلق التي يعانيها المثقفُ المسلم اليوم انّما تعود إلى أصلٍ واحدٍ ومصدرٍ واحدٍ، وهو أنّه ترك مقوماته الأساسية وقيمه ... ولو أنّه التقى بالفكر الإسلامي ... لما وقع في مثل هذا التمزق أو هذه الأزمة » [١٠٥].

وعندما يكون « الإسلام كله حقائق » [١٠٦]، وعندما يؤمن المسلم « ان الإسلام صنْع ا الذي أتقن كل شيء » [١٠٧]، لا بد ان يطمئن المسلم ويرتاح من البحثِ والتفتيشِ والمعاناةِ والتعبِ والتفكيرِ المضني والحياة الصاخبةِ والقلقِ على ا ـ والخوفِ من مصيرهِ وسـعادتهِ ان كان من الصالحين.

---

(١٠١) الدكتور أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن، فصل « الطمأنينة » الجزء الأول، ص ٧٩.
(١٠٢) نفس المرجع، ص ٨٠.
(١٠٣) أحمد عبد الجواد الدومي، الإسلام منهاج وسلوك، ص ٨.
(١٠٤) القرآن : ٦٩ / ٥١.
(١٠٥) أنور الجندي، الإسلام والدعوات الهدامة، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

« فالمستقبلُ للإسلام وإن جهلَ ذلك الجاهلون، أو تجاهله المتعصـبون » [١٠٨] . ولنفتـرضِ القرآن مجردا من كل قداسةٍ دينية، ثم لننظر إليه كمصدرٍ تاريخي بحت. فماذا نجد ؟ نجد أنّنا لا نملك كتابا آخر، ولا أثرا تاريخياً آخر في تاريخ البشرية كلّها، توافرتْ له أسباب التحقيـقَ العلمي البحتة، كما توافرت لهذا الكتاب » [١٠٩] . ومجرد افتراضِ القرآن كلاً ما بشريا يوقِـع البشر في حيرةٍ واضطراب ما بعده حيرة ولا اضطراب. من هنا إيمان المسـلمين بطمأنينـةِ النفسِ والقلبِ والعقل. وفي هذا يكمن سر اعجاز القرآن وسر معجزته.

****

٨ ـ القرآن معجِزةُ المعجزات :

لا شك أنّنا مع القرآن أمام معجزة، بل أمام معجزةِ المعجزات. ونحـن فـي القـرآن نمسك بالحقيقةِ كل الحقيقة، ونعرف ا بأسمائهِ التسعة والتسـعين. ونحصـلُ علـى العلـمِ والمعرفةِ كل العلم وكل المعرفةِ. وهل نعجب بعد من « معجزةِ المعجزات » ان احتوتْ على علومِ الدنيا والآخرة، واحتوتْ على أسرار علومِ الأرضِ والسماء، وحملت في دفّتيهـا نُظُـم علاقاتِ البشر مع بعضِهم بعضا ؟

أليس من حقّ يوسف مروة أن يجد « العلوم الطبيعية في القرآن » [١١٠] ؟ ومن حـق أحمد محمود سليمان أن يرى بين « القرآن والعلم » [١١١] تلازما،

---

(١٠٦) محمد الخضر حسين، المدينة الفاضلة في الإسلام، في كتاب « الإسلام والتحدي الحضـاري » ، ص ٢٩.

(١٠٧) نفس المرجع، ص ٢٨.

(١٠٨) محمد فريد وجدي، المستقبل للإسلام، ص ٣٧.

(١٠٩) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ٢٠٥.

(١١٠) بيروت، سنة ١٩٦٨، ٢٨٢ صفحة.

(١١١) دار العودة بيروت سنة ١٩٨٧ ، ١٧٤ ص.

وفي « القرآن والطب » علاجا [١١٢] . أليس من حق مصطفى محمود أن يجد في « القـرآن محاولةً لفهم عصرى » [١١٣]، ولمحمد فريد وجدي أن يرى « الإسلام في عصر العلم » [١١٤] والدكتور صابر طعيمة « الشريعة الإسلامية في عصر العلم » [١١٥] ؟ لم يتأخّر القرآن لحظة عن التطور العلمي الحاصل والذي سيحصل في مستقبل البشرية، بل هو الذي وضع أسـس العلم والمعرفة.

وهل من عجبٍ بعد إذا رأينا مع الدكتور الشيخ صبحي الصالح وفَاقـًا وارتباطًا بين « الإسلامِ والمجتمع العصري » [١١٦] ؟ ومع الدكتور رفعت الشرقاوي تحدى « الفكر الـديني (الإسلامي) في مواجهة العصر » [١١٧] ، ومع الدكتور مصطفى الرافعي حلولا مشتركة بـين « الإسلام ومشكلات العصر » [١١٨] ، ومع أنور الجندي اتّفاقـًا بـين « الإسـلام والعـالم المعاصر » [١١٩] ، ومع عشرة من علماء الإسلام قضاء جذريا بـين الإسـلام والمعضـلات الاجتماعية الحديثة » [١٢٠] ، ومع الدكتور حسن صعب « الإسلام تجـاه تحـديـات الحيـاة العصرية » [١٢١] ، ومع أبي الأعلى المـودودي « الإسـلام فـي مواجـهة التحديـات المعاصرة » [١٢٢] ، ومع وحيد الدين خان « الإسلام يتحـدى » [١٢٣] ، ومـع عبـد الكـريم الخطيب الذي يجد « التعريفَ بالإسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدياته » [١٢٤] أحسن ما يمكن أن يكون لفهم الإسلام، ومع عشرة علماء من المسلمين يوازون بين « الإسلام والتحدي الحضاري » [١٢٥] ، فإذا بالإسلام، عندهم، يعلو ولا يعلى عليه ؟ !!!

---

(١١٢) دار العودة بيروت (بدون تاريخ) ، ١٤٨ ص.
(١١٣) دار الشروق بيروت سنة ١٩٧٠، ٣٠٤ ص.
(١١٤) بيروت سنة ١٩٦٧، ٨١٦ ص.
(١١٥) دار الجيل، بيروت ١٩٧٩، ٢٣٢ ص.
(١١٦) دار الآداب بيروت، ١٩٧٧، ٢٧٢ ص.
(١١٧) بيروت سنة ١٩٧٩، ٤٦٤ ص.
(١١٨) دار الكتاب بيروت سنة ١٩٧٢، ٣١٤ ص.
(١١٩) دار الكتاب بيروت سنة ١٩٧٣، ٤٧٠ ص.
(١٢٠) دار الكاتب العربي، بيروت (بدون تاريخ)، ١٤٤ ص.

وكم هي الذين رأوا الإسلام يعنَى بكل شيء في المجتمع العالمي المعاصـر ؟ فـإذا الدكتور صابر طعيمة يوازن بين « الإسلام ومشكلات السياسة » [(١٢٦)] ، وعشرة علماء يرون بين « الإسلام والأنظمة السياسية » [(١٢٧)] تفـوق النظـامِ الإسـلامي، بـل تفـوقَ « الـنظم الإسلامية » [(١٢٨)] التي يراها الدكتور صبحي الصالح شاملة لنظريات العالم السياسية. ولهـذا يحقّ لنا أن نقول مع طه عبد الباقي سرور بـ « دولة القرآن » [(١٢٩)] ، ومع الدكتور محمـد أحمد خلف ا أن نرى بين « القرآن والدولة » [(١٣٠)] صيغةَ الدولةِ الحقيقية التـي جـاء بهـا القرآن الكريم.

وإذا أردتَ الموازنةَ بين « القانون الروماني والشريعة الإسلامية » [(١٣١)] كما جاء بها زهدي يكن، فلا بد لك أن تقول مع الدكتور خليل الجر بأن الوحي الإلهي هو وحده مصـدر الفقهِ الإسلامي[(١٣٢)] . وقد رأى خمسةٌ من العلماء المختصين الجواب على سؤال « هل للقانون الرومي تـأثير على الفقه الإسلامي » [(١٣٣)] . والنتيجة أن نـرى مع رأفت شفيق شـنبور أن « دستور الحكم والسلطة في القـرآن والشـرائع » [(١٣٤)] لا فـي أنظمـة مـاركس ولينـين وغيرهما[(١٣٥)] .

----

(١٢١) دار الآداب بيروت سنة ١٩٦٥، ٢٠٠ ص.
(١٢٢) تراه في سلسلة كتب أبي الأعلى المودودي.
(١٢٣) نفس المرجع.
(١٢٤) دار المعرفة، بيروت سنة ١٩٧٥، ٣٢٨ ص.
(١٢٥) دار الكاتب العربي، بيروت (بدون تاريخ)، ١٤٤ ص.
(١٢٦) دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤، ٤٤٠ ص.
(١٢٧) دار الكاتب العربي، بيروت، (بدون تاريخ)، ١٢٨ ص.
(١٢٨) دار العلم للملايين، ط ٤، سنة ١٩٧٨، ٥٧٦ ص.
(١٢٩) القاهرة، سنة ١٩٦١، ٢١٢ ص.
(١٣٠) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، سنة ١٩٨١ ، ١٦٤ ص.
(١٣١) دار يكن للنشر، بيروت ١٩٧٥ ، ١٨٤ ص.
(١٣٢) من مقدمة على كتاب المرجع السابق.
(١٣٣) من فهارس الشركة المتحدة للتوزيع.
(١٣٤) المكتبة العصرية، بيروت (بدون تاريخ)، ١٦٣ ص.

وعليه يكون « منهاج الإسلام في الحكم » [١٣٦] أكملَ ما يمكن أن يكون في هذا العالم المضطرب. وكيف لن يكون له ذلك وهو الذي اهتم بكل شاردة وواردة فـي أنظمـة البشـر ومشكلاتهم! إذ هو الذي يحدد « النظام العالي » [١٣٧]، لأن « المالَ في الإسلام » [١٣٨] هـو عصب الحياة والدولة. وقد رأى الدكتور خفاجي في « الإسلام ونظريته الاقتصـادية » [١٣٩] خير نظرة في عالم الاقتصاد الذي بسببه يتقاتلُ البشر على خيراتِ الأرض. وهذا ما يحـدونا إلى قول بأن بين « الإسلام ومتطلباتِ التغيير الاجتماعي » [١٤٠] تفـاعلاً ينتصـر بنتيجتـهِ الإسلام طبعا.

ناهيك عن أن أحسن صورة لتنظيم الأسرةِ والمجتمع تراها في الإسلام، فـ « مكانـة المرأةِ في الإسلام » [١٤١]، كمـا قال محمد عطية أرفع مكانة، وعند أحمد زكي تفـاحة تجد « المرأة والإسلام » [١٤٣] يتنفّسان هواء الحرية. وإذا ما كان « الطلاق فـي الإسـلام » [١٤٣] جائزاً فانّه، بنظر مولانا محمد علي « أبغض الحلال عند ا » ، على حد قول الرسول. ومع هذا في الإسلام « رفْع الشقاق في أحكام الطلاق » [١٤٤] خير الأحكـامِ بنظـر أحمـد أمـين الانطاكي.

---

(١٣٥) انظر : مصطفى محمود، « الماركسية والإسلام » ، دار المعارف بمصر، سـنة ١٩٧٥ ، ٨٢ ص. وعبد العزيز البدري، « حكم الإسلام في الاشتراكية » ، المكتبـة العلميـة، المدينـة المنـورة، ط ٢ ، ١٩٦٥، ١٧٢ ص. وسيد قطب، « معركة الإسلام والرأسمالية » ، بيروت ط ٣، ١٩٦٦، ١٢٤ ص.
(١٣٦) محمد أسد، دار العلم للملايين، ١٩٧٨، ١٩٢ ص.
(١٣٧) الدكتور بابللي، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٥ ، ١٧٤ ص.
(١٣٨) محمد مهدي الآصفي، المكتبة الإسلامية بيروت ١٩٧٣، ١٥٦ ص.
(١٣٩) دار الكتاب اللبناني، سنة ١٩٧٣، ١٨٢ ص.
(١٤٠) العلامة الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي، دار الغدير ١٩٨٠.
(١٤١) القاهرة، (بدون تاريخ) ١٢٦ ص.
(١٤٢) دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩، ١٩٢ ص.
(١٤٣) المكتبة العصرية، (بدون تاريخ) بيروت، ١٥٦ ص.
(١٤٤) حلب، سنة ١٩٦٦، ٦٠ ص ... وعديدة هي الكتب التي تتكلّم على شأن المرأة ومكانتها واسـتقلاليتها وأحكام الطلاق والزواج في الإسلام والقرآن. وقد توقفنا عند بعضها وليست هي أهمها ...

ولئن كان « الزواج في الإسلام » [١٤٥] خير عقدٍ فيما بين البشر، فانّـك لَواجِـد « انحـرافَ المسلمين عنه » [١٤٦] ، أو بعض المسلمين. لهذا لا بد لصلاح الأمور من الرجوع إلى القرآن لنجد « نظام الأسرة في الشرع الإسلامي » [١٤٧] وما يتضمنه من أحـوال المهـر والمتعـة والنَسب والبنوة والحضانة والنفقة ... وما إليه أحسن نظام على وجه الأرض.

وإذا تخطّينا هذه الأحوال الشخصية فإنّنـا نجد أن أضـمن « الـ ـديموقراطية فـي الإسلام » [١٤٨] ، وان القرآن يدعـو إلى « إسلام الحريـة لا إسلام العبـودية » [١٤٩] وإلى « العدالة الاجتماعية في الإسلام » [١٥٠] كخير عدالة في العالم. واننّا نجد أن بين « الإسـلام والتقدم الاجتماعي » [١٥١] تكاملاً، ولن نعود نرى بذلك أيةَ مشـكلةٍ فيمـا بـين « الإسـلام والمعضلات الاجتماعية الحديثة » [١٥٢] . بل نجد « الإنسان في القرآن الكـريم » [١٥٣] فـي أجلى صورة له، وبين « القرآن وقضايا الإنسان » [١٥٤] حلولاً جـذرية. بهذا لن يكـون بين « الإسلام ومكارم الأخلاق » [١٥٥] ، أو بين « الإسلام والحضارة الإنسانية » [١٥٦] الاّ دعـوةٌ متبادلةٌ إلى الخير والسعادة.

وبعد كل هذا ألا يكون « الإسلام دعوة عالمية » [١٥٧] ؟ أو ألا يكون

---

(١٤٥) مجيد الصيمري، الدار الإسلامية، ١٩٧٩، ١٧٨ ص.
(١٤٦) عنوان آخر للكتاب السابق.
(١٤٧) عمر فروخ، ط ٢، سنة ١٩٧٤، المكتبة العصرية بيروت، ١٩٢ ص.
(١٤٨) عباس محمود العقاد، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ١٧٨ص.
(١٤٩) الدكتور حسن صعب، دار العلم للملايين ١٩٧٤، ١٤٤ ص.
(١٥٠) سيد قطب، دار احياء الكتب العربية، ط ٥، ١٩٥٨، ٢٨٠ ص.
(١٥١) الدكتور صابر طعيمة، المكتبة العصرية ط ٢، ١٩٧٣، ٣٤٤ ص.
(١٥٢) عشرة من علماء الإسلام، دار الكاتب العربي، ١٤٤ ص.
(١٥٣) الدكتورة عائشة بنت الشاطئ، دار العلم للملايين ١٩٧٢، ٤٤٨ ص.
(١٥٥) عشرة علماء من الإسلام، دار الكتاب العربي، ١٢٠ ص.
(١٥٦) عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٨٨ ص.

« المستقبل للإسلام » [١٥٨] ؟ علما بأن الحضارةَ هي « حضارة الإسلام » [١٥٩] ، و « الإسلام هو روح المدنية » [١٦٠] . والعالم كله مدين إلى « روح الإسلام » [١٦١] ، وكل ما في العالم لا شأن له إن لم يأخذ من « الفكر الإسلامي المعاصر » [١٦٢] حظه وغذاءه . والحقّ يقال لـ ولا وجود « الفلسفة القرآنية » [١٦٣] أو بالحري « فلسفات إسلامية » [١٦٤] لما استطعنا أن نـ رى انتصاراً للإسلام عندما تحصل بين « الإسلام وشبهات الاستعمار » [١٦٥] مواجهة ومشادة، أو عندما يتعرض « الإسلام والدعوات الهدامة » [١٦٦] إلى مجابهة وصراع. ويوم يحصل ذلـ ك الصراع بين الإسلام والعلمانية مثلا، لا بد من « سقوط العلمانيـ ة » [١٦٧] لا محالـ ة. بهـ ذا يتفاعل « الإسلام وحركة التاريخ » [١٦٨] ليستمر الإسلام في القـ رن العشـ رين » [١٦٩] ، أو ليطلّ « الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر » [١٧٠] ويتعداه.

والفضل في وثبة الإسلام هذه نحو المستقبل يعود إلى « الشخصية الإسلامية » [١٧١] الفذّة، وإلى « أسلوب الدعوة في القرآن » [١٧٢]

----

(١٥٧) عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت، ٢١٦ ص.
(١٥٨) محمد فريد وجدي، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٢٤ ص.
(١٥٩) صلاح الدين خواد بخش، دار الثقافة بيروت ١٩٧١ ، ١٩٦ ص.
(١٦٠) الشيخ مصطفى الغلاييني، المكتبة العصرية، بيروت ٢٨٠ ص.
(١٦١) عفيف عبد الفتاح طباره، « روح الدين الإسلامي » دار العلم للملايين ... سيد أمير علي، دار العلـ م للملايين ط ٤ ، ١٩٧٧ ، ٤٤٨ ص.
(١٦٢) غازي التوبة، دار القلم بيروت، ط ٣ ، ١٩٧٧ ، ٢٢٤ ص
(١٦٣) عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٢ ص.
(١٦٤) محمد جواد مغنية، دار التعارف بيروت ١٩٧٨ ، ٩٦٨ ص.
(١٦٥) السيد أمير محمد الكاظمي القزويني، التوجيه الإسلامي كويت، ١١٦ ص.
(١٦٦) أنور الجندي، الموسوعة الإسلامية العربية ٣ ، ١٩٧٤ ، ٢٩٦ ص.
(١٦٧) أنور الجندي، الموسوعة الإسلامية العربية ٢ ، ١٩٧٣ ، ٢٠٠ ص.
(١٦٨) أنور الجندي، رقم ٥ من الموسوعة العربية الإسلامية، ١٩٨٠ ، ٥٠٦.
(١٦٩) عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية بيروت، ١٤٤ ص.
(١٧٠) أنور الجندي، الموسوعة العربية الإسلامية، رقم ١ ، ٣٤٤ ص.
(١٧١) الدكتورة عائشة بنت الشاطئ، دار العلم للملايين، ط ٢ ، ١٩٧٧ ...
(١٧٢) محمد حسين فضل ا ، دار الزهراء، بيروت ط ٣ ، ١٩٧٩ ، ١٧٦ ص.

والحظّ الأكبر لانتشار الدعوة إلى « الجهاد الأكبر » [١٧٣] لأن « الجهاد في سبيل ا » [١٧٤] هو «... أعلى مراحل تطور الكفاح... » [١٧٥]. بهذا يكون أعظم « دفاع عن الإسلام » [١٧٦].

وهل لك بعد أن تسأل : « كيف انتشر الإسلام » [١٧٧] ؟ أو كيـف « الطريـق إلـى الإسلام » [١٧٨] ؟ أو متى يكون « الإسلام في فجر عظمته » [١٧٩] ؟ ليس لك، بعد هذا كلّـه، الا أن تعلن وتقول : الـ « إسلام رائد » [١٨٠]، مع السعي الحثيث « نحو إسلام سليم » [١٨١]. وعليك أن تقول، كما قال أرخميدس، لقد وجدتُ « هذا الدين » [١٨٢] وجـدتُ فيـه « الأدلّـة المطمئنّة » [١٨٣] . لقد وجدتُ « التوازن في الإسلام » [١٨٤] ، ووجدتُ « العقلَ والإيمان فـي الإسلام » [١٨٥] . بهذا أفهم « ماذا يعني انتمائي للإسلام » [١٨٦] .

****

---

(١٧٣) الامام الخميني، الدار الإسلامية، بيروت، ٨٢ ص.
(١٧٤) أبو الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، ٥٦ ص.
(١٧٥) جلال الدين فارسي، بدون دار نشر، ١٩٧٨ ، ص ١٤٧.
(١٧٦) لورا فيشيا فاغلي، دار العلم للملايين، ط ٤ ، ١٩٧٩ ، ١٣٥ ص.
(١٧٧) مؤيد الكيلاني، دار لكاتب العربي، ٢٨٨ ص.
(١٧٨) محمد أسد، دار العلم للملايين، ط ٥ ، ١٩٧٧ ، ٤٠٨ ص.
(١٧٩) موريس لومبار، ترجمة حسين العودات، دمشق ١٩٧٩ ، ٢٨٠ ص.
(١٨٠) عبد ا كنون، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩ ، ١١٢ ص.
(١٨١) الشيخ أحمد مغنية، المكتبة الأدبية، ١٩٨٠ ، ٢٧٢ ص.
(١٨٢) سيد قطب، مكتبة وهبه، عبدين، ط ٤ ، بدون تاريخ، ٩٦ ص.
(١٨٣) الشيخ عبد ا مصطفى العريس، مكتبة الحياة ١٩٨٠ ، ١٦٠ ص.
(١٨٤) محمد علي التسخيري، الدار الإسلامية، ١٩٧٩ ، ١٧٠ ص.
(١٨٥) الدكتور صابر طعيمة، دار الجيل، ١٩٧٩ ، ١٩٠ ص.
(١٨٦) فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، ١٨٤ ص.

٩ ـ هذا الكتاب :

بعد هذا الغيض من فيض الكتبِ الإسلاميةِ الحديثةِ الرائجةِ في أسواق العلم والـدين، والباحثةِ في القرآن الكريم، والمطمئنّةِ إلى تعاليمه ووحيه الإلهـي، والمعبـرةِ عـن إيمـان المسلمين الطيبين، والطريفةِ كل الطرافةِ بمواضيعِها وأساليبِها ويقينِها، والكافلةِ سعادةَ النـاسِ في الدنيا والآخرة، والمتّفقةِ الأساليب والأهداف فيما بينهما، والمتعلّقةِ بكلام ا الذي اسـتمر يتساقط على الرسول طيلة ثلاث وعشرين سنة، والمستريحةِ في أحضان جبريل ساعي البريد النبوي الأمين، والمرتاحةِ إلى عصمةِ كتَبةِ الوحي وحفّاظِه المرضيين، والكثيـرةِ الاطمئنـان والارتياح إلى تحطيم الشك باليقين، والعظيمةِ التأكيد في كل معتقدٍ وتشريعٍ وتعليم، المزحزحةِ الحيرةِ والقلقِ والريبة عن عقول العالمين ...

بعد هذا كلّهِ لا بد من الاستراحة. الاستراحةِ في أحضان الإسلام، في الإيمان الذي لا يدخُلُه شك، وفي اليقين الذي لا يخامِره أي ظن، و « ان الظن لا يغني من الحق شيئًا » [١٨٧]، بل ان « الظانين با ِ ظن السوء عليهم دائرةُ السوء [١٨٨]. هذا اليقين هو من كتابِ ا « الحقّ اليقين » [١٨٩]، الذي فيه عصمةُ ا وأنبيائهِ المرسلين، والذي يضمن للإنسان العلم والمعرفةَ والحظَ السعيد، أي حظٍ هو للمسلمِ المؤمن الذي أنعم ا ُ عليه بعضلاتٍ بهـا يـربطُ الأرض المائِجةَ بِعمدِ السماء، ويغَرز للجبال في الأرضِ أوتادا [١٩٠] وينحتُ في صخورها بيوتًا [١٩١].

---

(١٨٧) القرآن : ١٠ / ٣٦ ، ٥٣ / ٢٨.
(١٨٨) ٤٨ / ٦.
(١٨٩) ٥٦ / ٩٥ ، ٦٩ / ٥١.
(١٩٠) ٧٨ / ٢٠.
(١٩١) ٧ / ٧٤ ، ١٥ / ٨٢ ، ١٦ / ٨١.

مرجعنا في هذا اليقين إلى ا ، الذي أرسلَ جبريلَ يسعى بينه وبين النبي ينزلُ عليـه القرآن من « اللوح المحفوظ » (١٩٢) في « الأفق الأعلى » (١٩٣)، ويقرأ له، ويعلّمه اياه. ولـم يترك لنا، لا الرسولُ الالهي ولا النبي الرسول، آيةً بغير ترتيب، أو حرفًا بدون عصـمة، أو كلمةً تحتاج إلى تأويل. ولم يعرفْ جبريلُ راحةً بعد، بل لم يذقْ طعم الراحةِ حتى انتهى مـن عملهِ الشاق في جمع القرآن وحفظهِ وبيانهِ، وقد طمأننا على لسان ا عز وجلّ بقولهِ : « إنّا علينا جمعه، وقرآنَه ... ثم ان علينا بيانَه » (١٩٤).

ثم أكملَ الملاك الرسولُ السعي الحثيثَ فيما بين ا والنبي : فكما كان مسؤولا عـن تنزيل الوحي والقرآن، فسيظل هكذا أيضا مسؤولاً عن حفظهِ وتدوينهِ وتسليمهِ إلى العالَمِ بدون عِوجٍ فيهِ أو اختلاف. جاء على لسان ا سبحانه: « إنا نزلنا الذكر. وإنّا له لَحافِظون » (١٩٥). من أجلِ ذلك لن تجد في القرآن الاّ الطمأنينَة واليقين، ولن تجـد فيـه أي محـل للزيـادةِ أو للنقصان أو للتلحين أو للتصحيفِ أو للتحريفِ أو ما أشبه ذلك.

واستمر جبريلُ في مهمتهِ. فبعد أن طارتْ نفس النبي إلى ربها مطمئنّـةً، ضـاعفَ ملاك الوحي نشاطَه، فحفَظ كتَبة القرآن. من أميال الهوى، وحفظَ سوره وآياتِهِ مـن التلَـفِ والضياعِ، وحفظَ حفاظَه من النسيان، وحفظَ وسائِلَ الكتابةِ من الجلـودِ والاكتـافِ والعِظـامِ والأخشابِ من الحريق، وعصم القلم من نَزق أصحابهِ واختلافاتِهم السياسية ... وفـوقَ كـل هذا، ما يزالُ جبريلُ إلى اليوم قيّما على رسالةِ السماءِ ومترصدا لكل من يخامِره ظَن أو شك في كلامِ ا . انّها معجزةٌ مستمِرةٌ ألقاها ا ُ بين يديهِ وفي عنُقهِ.

---

(١٩٢) ٨٥ / ٢٢.
(١٩٣) ٥٣ / ٧ ، انظر : ٨١ / ٢٣.
(١٩٤) ٧٥ / ١٧ ـ ١٩.
(١٩٥) ١٥ / ٩.

١٠ً ـ هل لغير ا ِ في القرآن نصيب ؟

القرآن معجزة. وأيةُ معجزة!؟ في كل شيء هو معجزة. ولن نقفَ، في هذا البحث، الاّ عند معجزةِ نشأتِه وتدوينهِ وحفظهِ. وما عدا ذلك يدخلُ في نطاقِ معجزاتِ النبوةِ والعقيدةِ، ولا شأن لنا بها الآن، لأن كلّ ما في الدنيا من خيرٍ وصلاحٍ وعلم وقـوانين هـو، فـي القـرآن والإسلامِ، على أتمه. وكل ما في الكون من فضيلةٍ لا يصلُ إلى عشْرِ معشَـارِ فضـيلةٍ مـن فضائل القرآن.

وفيما نحن نرى ا َ وراء القرآن، يستحثنا القرآن نفسه لرؤيةِ غيرِ ا . وفيما يـدعونا المسلمون إلى سؤال ا ِ عن عصمةِ كِتابهِ، والاكتفاءِ بشَهادتِه، والاتّكال عليه، يدعونا القـرآن نفسه إلى سؤال أهـل الذكرِ، والاحتكامِ إليهم، والاستشهادِ بهم. ففي قـول القرآن للمسـلمين: « اسألوا أهلَ الذكرِ إن كنتم لا تعلمون » [١٩٦] عبرةً خطيرةً للغاية! وأخطر منها حث القـرآن لمحمد نفسِه إلى سؤال أهل الكتابِ والالتجاءِ إليهم ليرفع عن نفسِه الشك والريبة. يقول لـ ـه: « إن كنتَ في شك مما أنزلْنَا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب مِن قَبلِك » [١٩٧] .

ويبدو أن محمدا كان يعرفُ تمام المعرفةِ بأن الذين يشهدون على صحةِ رسالتهِ هـم أهلُ الكتاب. وكان يكتفي بشهادتِهم لاقناعِ تابِعيه. يقول : « قلْ : كفى با ِ شهيدا بيني وبينَكم ومن عِنده علم الكتاب » [١٩٨] . وأخطر من كل شيءٍ آخر احتكام محمدٍ إلى أهـل الإنجيـل، لأنّهم يحكمون بما لديهم على ما في القرآن : « ولْيحكُم أهلُ الإنجيل بما أنزلَ ا ُ فيه » (أي في القرآن) [١٩٩] . فهل لأهل الإنجيل حق يستحقونه ؟

----
(١٩٦) ١٦ / ٤٣ ، ٢١ / ٧.
(١٩٧) ١٠ / ١٠.
(١٩٨) ١٣ / ٤٣.
(١٩٩) ٥ / ٤٧.

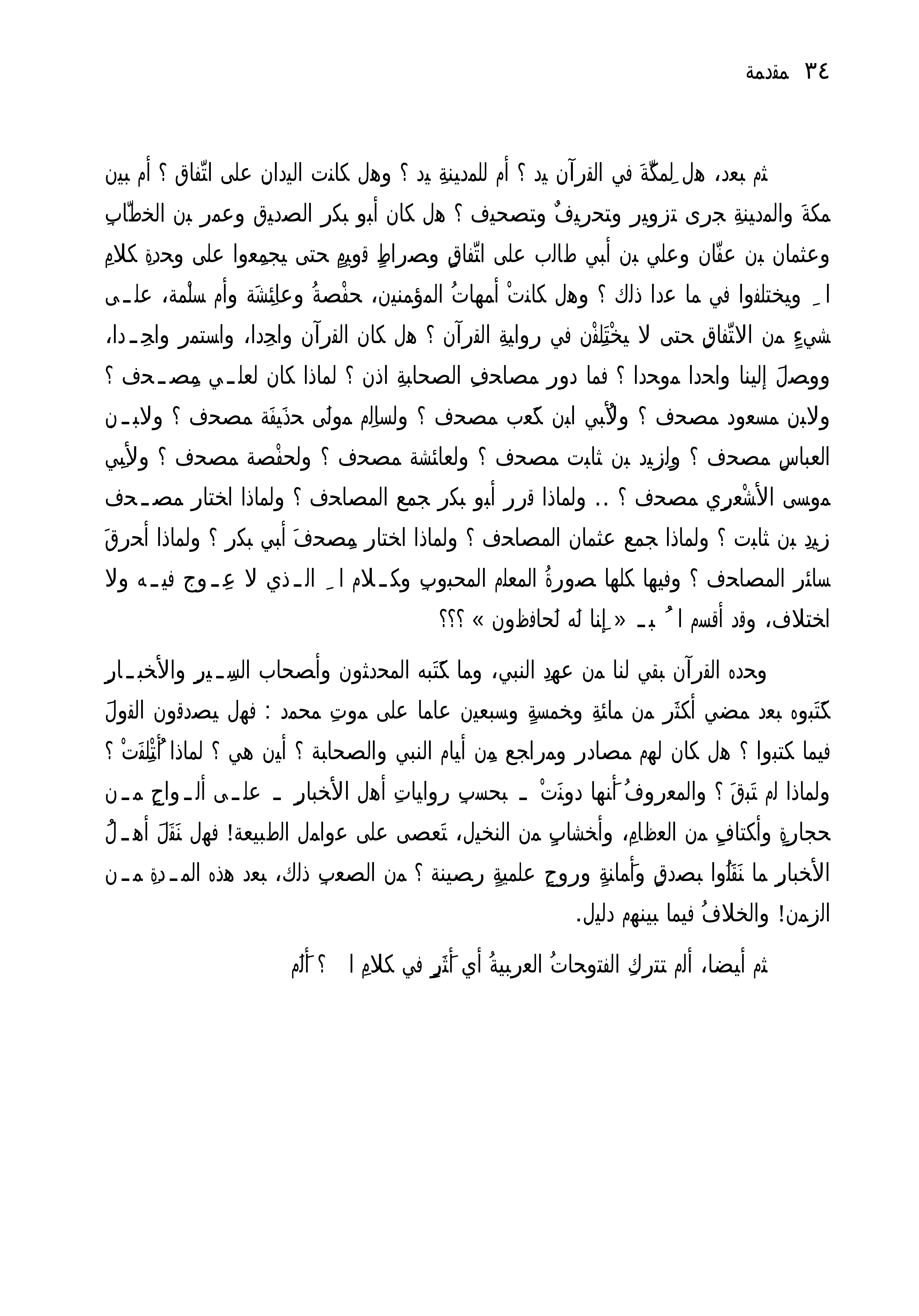
انّنا إذا كنّا نتجرأُ على مثل هذا السؤال فلأن القرآن يدعونا إليـه. ولكـن وراء هـذا السؤال سيلاً من الأسئلة، وهي تصدر عنه وتتفرع منه. وليستْ دونَه أهميةً وخطورة. من هم « أهلُ الذكر » ، و « أهلُ الكتاب » ، و « أهلُ الإنجيل » ؟ من هم الذين « يقرأون الكتـاب مِن قَبل » محمد ؟ وهل للقرآن مصدر غير ا ؟ وهل تَم نَقْلُ القرآن على يدِ غير يـدِ ا ؟ وهل هذا يعني أن « حِفْظَ » القرآن، و « جمعه » ، و « قِراءتَه » ، و « بيانَه » ، وتدوينَه، وانتشاره، واستمراره، تمتْ على يدِ جبريلٍ بشري اختلس دور جبريلَ الإلهي ؟

انّها أسئلةٌ تطالُ حرم القرآن وقدس أقداسِ المسلمين. ولكن، قبلَ الدخول في متَاهاتِها والغوص فيها، لا بد من طرح أسئلةٍ أخرى تخطر على البال، وهي أيضا من وحي سـماحةِ القرآن وسعةِ صدره :

أين أنزلَ جبريلُ القرآن ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ وعلى من أنزلَه ؟ وأين كان قبلَ تنزيلِهِ ؟ وأين كتَبه ؟ وعلى أي لوحٍ لؤلؤي دون كلام ا ؟ ولمن أعطى شرفَ حفظهِ وكتابتهِ وتدوينهِ؟ ثم هل استطاع « النبي الأمي » الذي يجهلُ القراءةَ والكتابةَ حفظَه كله ؟ هل عصِم مِن آفـةِ النسيان ؟ هل وجد محمد لكل الآياتِ الأزليةِ مناسباتٍ في التاريخ ؟ هل عصِم كتَبـةُ الـوحي أيضا من أهوائِهم لِيدونُوا بموضوعيةٍ كلَ آياتِ القرآن ؟ هل نُزعوا كلهم من أنانيتِهم وأميالِهم السياسية ؟ هل كانوا فيما دونُوا على اتّفاقٍ وعصمة ؟؟ لئن كان كذلك ـ وهم بنظر المسلمين كذلك ـ فهم، وا ِ ، أكثر عصمةً مِن الرسول نفسِه. وبِت لا أعرفُ كم بارك ا ُ هذه الأمـةَ لكي يكون فيها أكثر من خمسةٍ وأربعين رجلاً يتمتّعون بالتجردِ والصدق والأمانةِ والإيمـان والتسامي والعصمةِ والشرفِ المجيد(٢٠٠) .

---

(٢٠٠) انظر في عدد كتبة الوحي : الاستيعاب ١ / ٣٠، وكتاب الوزراء والكتّاب ١٢، والعقـد الفريـد ٤ / ٢٤٦، وحاشية على الاصابة الخ ...



ثم بعد، هل لِمكّةَ في القرآن يد ؟ أم للمدينةِ يد ؟ وهل كانت اليدان على اتّفاق ؟ أم بين مكةَ والمدينةِ جرى تزوير وتحريفٌ وتصحيف ؟ هل كان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطّابِ وعثمان بن عفّان وعلي بن أبي طالب على اتّفاقٍ وصراطٍ قويمٍ حتى يجمعوا على وحدةِ كلامِ ا ِ ويختلفوا في ما عدا ذلك ؟ وهل كانتْ أمهاتُ المؤمنين، حفْصةُ وعائِشَة وأم سلْمة، علـى شيءٍ من الاتّفاق حتى لا يخْتَلِفْن في روايةِ القرآن ؟ هل كان القرآن واحِدا، واستمر واحِـدا، ووصلَ إلينا واحدا موحدا ؟ فما دور مصاحفِ الصحابةِ اذن ؟ لماذا كان لعلـي مِصـحف ؟ ولابن مسعود مصحف ؟ ولأبي ابن كعب مصحف ؟ ولسالِم مولى حذَيفَة مصحف ؟ ولابـن العباسِ مصحف ؟ ولِزيد بن ثابت مصحف ؟ ولعائشة مصحف ؟ ولحفْصة مصحف ؟ ولأبِي موسى الأشْعري مصحف ؟ .. ولماذا قرر أبو بكر جمع المصاحف ؟ ولماذا اختار مصـحف زيدٍ بن ثابت ؟ ولماذا جمع عثمان المصاحف ؟ ولماذا اختار مِصحفَ أبي بكر ؟ ولماذا أحرقَ سائر المصاحف ؟ وفيها كلها صورةُ المعلم المحبوبِ وكـلام ا ِ الـذي لا عِـوج فيـه ولا اختلاف، وقد أقسم ا ُ بـ « إِنا له لحافظون » ؟؟؟

وحده القرآن بقي لنا من عهدِ النبي، وما كتَبه المحدثون وأصحاب السِـير والأخبـار كتَبوه بعد مضي أكثَر من مائةِ وخمسةٍ وسبعين عاما على موتِ محمد : فهل يصدقون القولَ فيما كتبوا ؟ هل كان لهم مصادر ومراجع مِن أيام النبي والصحابة ؟ أين هي ؟ لماذا أُتْلِفَتْ ؟ ولماذا لم تَبقَ ؟ والمعروفُ أَنها دونَتْ ـ بحسبِ رواياتِ أهل الأخبار ـ علـى ألـواحٍ مـن حجارةٍ وأكتافٍ من العظامِ، وأخشابٍ من النخيل، تَعصى على عوامل الطبيعة! فهل نَقَلَ أهـلُ الأخبار ما نَقَلُوا بصدقٍ وَأمانةٍ وروحٍ علميةٍ رصينة ؟ من الصعبِ ذلك، بعد هذه المـدةِ مـن الزمن! والخلافُ فيما بينهم دليل.

ثم أيضا، ألم تتركِ الفتوحاتُ العربيةُ أي أَثَرٍ في كلامِ ا ؟ أَلم

يضفْ إلى كلامِ القرآن كلام بشري يناسب الوضع السياسي المستجد ؟ أَبقِي نصـارى الشـامِ والعراق، مثلاً، مع الفاتحين كمـا كان نصـارى مكّةَ مع محمد ؟ أَيعقَلُ أن يكـون نصارى « سورةِ التوبة » هم أنفسهم نَصارى « سورةِ المائدة » ؟ أَيعقَلُ أن يكون رهبـان « التوبةِ » « يأكلون أموالَ الناسِ بالباطل » [٢٠١] ورهبان « المائدِة » « لا يسـتكبرون » [٢٠٢] ؟ وقـل الشيء نفسه عن أهل الكتابِ بالعموم، وعن الصابئةِ والمجوسِ واليهود، وانظر ما كانوا عليه أيام محمد وما أصبحوا عليه عهد الفتوحاتِ والغزوات ...

كلها أسئلةٌ تخطُر على البال. وغيرها سيطْرح في مجال البحث. وسبب طَرحِها اليوم هو ذلك الاطمئنان المتحكِم بعقول « القرآنيين » الذين احتجزوا ا َ في هيكلٍ، لا من حجـارةٍ هذه المرة، بل مِن ورق. هؤلاء الـذين قعدوا عن البحث، واعتصموا بحبل ا ، واستكنّوا في « ظلال القرآن » [٢٠٣]، واستراحوا في « دارِ الإسلام » ، ووجدوا كلَ الحقيقةَ فـي دفتَـي كتابٍ، ورأوا فيهِ كلَ العِلمِ والمعرفةِ، ونظروا فيه الحلولَ لجميع مشاكل الإنسـان وأمراضـهِ وعِقَدِهِ النفسية ... لهؤلاءِ نقول بكل اخلاص :

هل من شأن الدين أن يحل مشاكل ؟ أو أن يتنبأَ عن المستقبل ؟ أو أن يحوي في جوفهِ علوم الأرضِ والسماء ؟ أو أن ينظم علاقاتِ البشر ؟ أو أن يسِن شرائع وقوانين ؟ أو أن يعنَى بحقوق الإنسان ؟ أو أن ينتمي إلى عضويةِ الأممِ المتّحدِةِ: أو أن يكون له على الأرضِ دولة ؟ هل من شأن الدين أن يتحدى المدنيةَ المعاصرة، أو أن يكون له فلسفاتُ وعقائد ونُظُم في المال والاقتصادِ، وأحكام في ما بين الرجل وامرأتِهِ ؟ وجهاد في سبيل فـرضِ عقيدتـهِ وتعاليمـهِ وشرائعِه على الناس ؟ ..

---

(٢٠١) ٩ / ٣٤.
(٢٠٢) ٥ / ٨٢.
(٢٠٣) عنوان لتفسير سيد قطب على القرآن.

لستُ أخافُ على ا من أن لا يكون « أكبر » ولن أرتعب، مثلَ الشيخ أحمد الوائلي الذي ارتعدتْ فرائِصه لِمجردِ ذكر لفظةِ « دعوةِ وقوع التحريفِ بالقرآن » . قال الشيخ : انّنا في « موضوع ـ دعوة وقوع التحريف بالقرآن ـ يجب أن نتلمس طريقَنا في حذَرٍ شَـدِيد. وأُقسِم، وأنا أكتب هذه الكلمات، أن قلبي لا يطاوعني على مجردِ سطْرِ هذا العنوان المذكور. وفيما أعتقد أن ذلك شعور كل مسلم يؤمن با ـ ورسولِهِ وكتابهِ. ان مجرد افتراض وقوع هذا المعنى في القرآن الكريم يعتدِي على أغلى صورةٍ قدسيةٍ في صميمِ وجدان المسلم » [٢٠٤] ... أما أنَا فلن أخافَ ولن أرتعِب، ولن يضطرب قلبي لا على ا ولا على نبيه ولا على كتابـه. ومع هذا لن أكون أقل إيمانًا من خير المؤمنين.

ومع هذا أيضا سأستمر في البحثِ عن ا ـ وعن كتابهِ ونبيهِ. ولن يكون بحثي في نشأةِ القرآن أبعد من الكلامِ على معجزاتِ حفظهِ وتدوينه. ولم يوفّر ا ُ لِكِتابِه كلمـةً الاّ ومسـحها بعِصمتِهِ، ولم يترك لنا مجالا لِظن وريبةٍ الاّ وأَحكمها بمعجزتهِ. فالوحي والتنزيلُ كلاهما عند المسلمين معجزة، ووحي ا ـ إلى نبي أمي جاهلٍ بالقراءةِ والكتابةِ هو أيضا معجزة، وحفْـظُ محمد للقرآن على أميته هو أيضا معجزة، وحفظُ الصحابةِ لهذه المعجزة معجزة، وجمع السور والآياتِ من الرقاع وصدور الرجال معجزة، وبلاغةُ القرآن معجزة، وما في القرآن من علومٍ اكتشف العالم بعضا منها ويسعى إلى اكتشاف بعضِها الآخر معجزة، واتيان القـرآن بحلـول مشاكل المجتمع البشري بأحسن ما يمكن أن يكون هو الآخر معجزة ...

فأنت ترى أنّنا مع القرآن في عالم المعجزات، في حين أنّنا مع الإسلام علـى ديـن الفطرة، وأنت ترى أيضا أن ا َ في القرآن تَجسد، فيما

---

(٢٠٤) « ادعاء وقوع التحريف في القرآن وموقف الشيعة منه » ، في كتـاب : « القرآن نظـرة عصـرية جديدة » ، ص ١٣٥.

القرآن يعلن عن ا « ليس كمثله شيء » [٢٠٥] . وأنت ترى المسلمين أخيراً يحلّـون بآيـاتِ القرآن كلَ العِقَدِ والمشاكل، فيمـا الإنسان غَني بالعِقَدِ والمشاكل ولـو كان بالقرآن مؤمنـاً. هذا الغِنى أكسب الإنسان بحثًا وحرية وقلقـاً، في الوقتِ الـذي اكتسب المسلمون من القرآن « سكِينَةً » و « طمأنينة » واستراحة. ولكأنّك ترى المسلمين، وهم يقفون عنـد « مصـحفِ عثمان » ، غير جديرين لا بالإسلامِ ولا بالقرآن.

هؤلاء المطمِئنّون إلى عالَمِ المعجزاتِ هم في العالم معجزات. ومن يزحزح في العالم إيمانًا معجِزا دون أن يطَبقَ السماء بالأرض! حسب جبريلَ أن يلزم إكمالَ معجزاتِه لِيهـدِينا الصراطَ المستقيم. ولكنّه يبدو عليه الوهن لكثرةِ ما سعى! وهل عند ا سِـواه أكثـر سـعيا ونَشَاطًا! تبدو لنا أبواب السماءِ موصدة، وليس من يقوم مقام رسول الوحي القـديم العـاجز! ومع هذا سنَظَل نطرقُ الأبواب ساجِدِين باكِين معفّري الجبين بالترابِ لعل سامِعا يسمع! ولكن وراء الأبوابِ صمتٌ وهدوء. لعل سكّان السماء ضربوا أيضا بـ « سكِينَةٍ » و « طمأنينة » واستراحة!

عدتُ إلى الأرضِ من معراجٍ باتَ لحظة، ووعيتُ جنوني في عالَمٍ مجنون. التمسـتُ من عندِ المطمئنّين الطمأنينةَ فلمستُ في نفوسِهم قلقًا أشد من الجنون. ذُهِلْتُ من وضعٍ عجيب، وضع عناق الجنون للمعجزة، بل وضع التزام متناقِضين في وقتٍ واحدٍ وفـي رأسٍ واحـد : إيمان وكفر، حريةٌ واطمئنان، خير وشيطان، جبريلٌ وقرآن، بشَر يمشون صـرعى الجنـون والمعجزات ...

أما كيفَ يعانِقُ الجنون المعجزات فأمر بات لدي مضمونًا : الساكتُ عـن المعجـزةِ مجنون، والمرتاح إلى جنونهِ هو في معجزةٍ مستمرة. وأي إلهٍ يعبد في الحالين ؟! وها عنـذا بين فريقَين : فريقٍ مطمئن إلى ما لديه،

---
(٢٠٥) ٤٢ / ١١.

ما استطعتُ لطمأنينتهِ عِلاجا، وفريقٍ قَلِقٍ مجنونٍ لم أتمكّن من دفـع الكبـتِ عنـه. أولئـك ثرثارون ملأوا الدنيا حقائقَ وحلولاً وكتبا ودراسات، وهؤلاء صـامِتون مكبوتـون خـائِفون عاجِزون درجوا على القلق فأصبح القلقُ عندهم أمرا مألوفًا ومعهودا. فكلا الفريقين مزعِج : واحد لكثرةِ كلامهِ، والآخر لكبتهِ وصمتهِ. وعندهما يلتقي الجنون بالمعجزة ويتعانقان.

إنّي فيما أقصد واضح : أمامي معجزة أبغي النفاذَ إلى حرمِها، وبين يدي كتب تتحدى العِلم والمدنيةَ وكل ما في الأرضِ من عِقَدٍ ومشاكل، وترى فيها كلّ الحلول وكـلّ المعرفـةِ، وعلّي واجب دفعِ هذا التحدي، وهذه المواجهةِ الصريحة. في العالم العربي كُتُـب لـو أردتَ زرع الصحراءِ جنائن وبساتين لَطَالتْ أغصان أشجارها بروج السماء. انّها صالحةٌ جِدا لمثل هذا النمو المطلوب. لقد أعطيتُ نموذجا واضحا عنها فيما تقدم.

وعلى الصامتين، حبا برقي العالم، أن يتدخلوا، أن يخرجوا مِن الكبتِ المشـين. وإن بقَوا في قلقهم صامتين لشَاركوا الذين هم في راحتِهم مطمئنّون. وهل تسألُني بعد لماذا نحن في عالمٍ ينْدحِر! آملُ من كل هذا أمرا، وهو : أن يسمح الإنسان ـ بالتدخّل مرةً أخرى. فعند ا كلام جديد، وكتاب جديد، ومعلوماتٌ جديدة. قد يريد، لكثرةِ ووفرةِ رحمتِه، أن يتحِفَنا بمعجزةٍ أخرى. فَلْيسمح له!

لدي أمل. وأرجو خيرا. وعلى الذين يخافون على ا ـ أن يتركوا ـ شَرفَ الدفاع عن كرامتهِ! بل لِيحرروا ا َ منهم، هو الذي أعطاهم خير ما عنده، وهي حريتهم. وهل يحق لهم سلب الناسِ حريتَهم! هذا الشيء الذي لم يفعلْه ا ُ نفسه! افتَحوا أبواب الكعبةِ، ونَقبوا في رمال مكّة، لعل الباحِثين يجِدون من الذي كان « قبلَ » النبي! وا ُ قبلَه وبعده في كل حال.

****

الفَصلُ الأول

معجزة الوحي والتَنزيل

أولاً ـ استمرارية الوحي

ثانيا ـ معنى الوحي

ثالثًا ـ طرق الوحي

رابعا ـ بدء الوحي

خامسا ـ الوحي والإلهام والنبوة

سادسا ـ بين النبي محمد والأنبياء السابقين

مقدمة الفصل

في إيمان المسلمين أن اتصالَ ا بالنبي محمد لم يكن وقـتَ إنـزال الـوحي عليـه وحسب، بل سبقَ ذلك الاتّصالَ اختيار منذ الأزل. وإن لم نجد في القرآن دلـيلاً علـى هـذا الاختيار، فان كتب السير والحديثِ مليئةٌ بهذا الحدثِ الفريدِ العجيب. ولئن لم نهتم ببحثِنا هـذا بهذا الاختيار فلأنّه لا يدخلُ في نطاق ما نحن بصددِه، ولأنّه ليس في القرآن ما يشير إليه.

ومع هذا لا بد من القول بأن صفحاتٍ شاسعةً من كتبِ المسلمين اهتمتْ بتاريخ محمد الإلهي إلى جانب اهتمامِها بتاريخِه البشري. وصعِد أهلُ السِير بسلسلةِ نَسبِ محمد حتى انتهوا بآدم أبِ البشرية. ومنهم من ابتعد أكثر فدخَل الجنّةَ ووجد اسم محمد محفورا علـى جـذوع أشجارها. وكم من الإشاراتِ والتنبؤاتِ ألمحتْ مسبقًا إلى مجيءِ نبيٍ أمي مـن هـذِهِ الأمـة العربيةِ التي حرمتْ من النبوةِ في الوقتِ الذي كانتْ أختُها اليهوديةُ تَـنْعم بفَـيضِ النبـواتِ والأنبياء.

لقد آن الأوان ليكون لهذه الأمة نبي، وأي نبي! إنه خاتَم الأنبياء، ودينُه تمام الأديان، وشريعتْه كمالُ الشرائع، وكتابه وحي من ا وتنزيل، لا اختلاف فيه ولا عِوج، انـه كتـاب بلسانٍ عربي مبين. وكفى هذه الأمةَ هذا الاختيار حتى تكون « خير أمةٍ أُخْرِجتْ للناس » [(١)].

من منّا يجهل تلك الكتب التي أثبتَ ا ُ فيها اختيار محمدٍ منذ الأزل! وأتمنـى علـى القارئ العودةَ إليها بنفسهِ لِتَوفرها في أسواق الدين. ولئن كانتِ التسـليةُ فيهـا جـائزةً فـان الاعتماد عليها في أمورِ التاريخ غير جائز. وما أدراك بهذه الرواياتُ تُخبِر عن محمد منذُ آدم حتى بعثتهِ، مرورا بالتنبؤاتِ التي سبقَتْ مولِده بأجيالٍ، وبالعجائبِ التي حدثتْ عنـد مولـدِه، وبأخبار الكهان والعرافين والأحبار والرهبان التي اسـتبقتْ مجيئَـه، وبشـهاداتِ الأشـجار والأحجار والحيواناتِ تشير إلى علاماتهِ وصفاتهِ! ..

كلّ هذه لا قيمةَ لها ولا اثبات. وهي وضعتْ لتنشيطِ إيمان المسلمين، وللدلالةِ علـى أزليةِ اهتمام ا بهذا النبي وبأمتهِ المحظوظة. ونحن إذ ننبه على مقصودِها الظاهر في مجال الدفاعِ عن نبوةِ محمد والدين الإسلامي، نرفض هذه الاخبار رفضا قاطعا، لأنّها، كما يقـولُ محمد دروزة، « يبدو عليهما آثار التكلّفِ والتجوز التي تؤدي إلى عدمِ الاطمئنان، ولا سـيما أن فيها تطرقًا لا يشفِي غليلاً، ولا طائلَ من ورائهِ إلى السر الذي ظل على الرغم من ذلـك كلهِ محجوبا عن سائر الناس » (٢) .

ومع هذا التحفّظ بقي عامةُ المسلمين يؤمنون بكل هذه الأخبار، واستغل العلماء مـنهم سرعةَ انقيادِهم إليها، فراحوا يكتبون لهم فيها، ويخطُبون عن صحتِها في المساجدِ ومن علـى رؤوسِ المآذن ... ومن أجل هذا قصدتُ التنبيه. علما بأنّها وضعتْ في زمنٍ متأخّرٍ جدا عن ظهور الإسلام. وهي تشبه إلى حد بعيد ما كتبه اليهود والنصارى مِن « كتبٍ مزيفـةٍ » فـي مهمةِ إثباتِ المعجزاتِ على أنبيائِهم وتعاليمِهم.

---

(١) القرآن : ٣ / ١١٠.
(٢) محمد عزة دروزة، القرآن المجيد، ص ٢٨.

أولاً ـ استمرارية الوحي

هو الوحي نفسه الذي نزل على الأنبياءِ السابقين نزلَ على محمد. ومحمد يعتبر نفسه من جملةِ هؤلاء الأنبياء الذين سبقوه في التاريخ. وهذا ليس من كتبِ السِير والاخبار، بل من القرآن ذاته. و « لم يكن الوحي الذي أيدهم (أي الأنبياء) بهِ ا ُ مخالِفًا الوحي الذي أيد بـه محمدا، بل كانت ظاهرةُ الوحي متماثلةً عند الجميع، لأن مصدرها واحد، وغايتَها واحدة »[٣].

وجاء في القرآن : « انّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعدِه، وأوحينـا إلى إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وآتينا داوود زبوراً، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل، ورسلاً لم نقصصهم عليك. وكلّم ا ُ موسى تكليماً » [٤] .

ووحي ا على محمـد كوحيهِ على من سبقَه سواء بسواء. وكان محمـد يعي ذلك: « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك ا ُ العزيز الحكيم » [٥] ، وأيضا : « أوحـى إليـك وإلى الذين مِن قبلك » [٦] .

---

(٣) الشيخ صحبي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٢ عن الطبري ٦ / ٢٠.
(٤) القرآن : سورة النساء ٤ / ٦٣ ، ١٦٤.
(٥) القرآن : ٤٢ / ٣.
(٦) القرآن : ٣٩ / ٦٥.

هذا الوحي هو من عند ا ، وليس لمحمد أن يبدلَ فيه أو أن يعطيهِ من تلقاءِ نفسـه، أو أن ينطقَ به على هواه، أو أن يختار اتّباعه بحسب ما يشاء. قال : « قلْ : ما يكون لي أن أبدلَه من تلقاءِ نفسي، أن أَتبع الاّ ما يوحى إلي » [٧] ، و « قل : انّما أتبع ما يوحى إلي مـن ربي » [٨] ، وقال : « ... وما ينطِقُ عن الهوى، إن هو الاّ وحي يوحى » [٩] .

وما نزل على محمد من وحي كان « تبيانًا » لما ُأنزِلَ من قَبل. وكان هم محمـد أن يظهر للناسِ كلَ ما أنزِلَ على الأنبياءِ. فهو يأخذُ منهم، ويعتمِد عليهم، وينقُلُ عنهم، ويستوحِي أخبارهم، ويسرد قَصصهم، ويتمثّلُ بأمثالهم، ولا يفرطُ في كتابهِ بشيء ... وذلك ليبين للعربِ كلَ ما ُأنزِلَ على أهل الكتاب. قال : « أَنزلْنَا إليك الذكر لتبين للناسِ ما نُـزلَ إلـيهم » [١٠] . وقال أيضا : « أخذ ا ُ ميثاقَ الذين أوتُوا الكتاب لتبينَه للناس » [١١] ...

وشهد على استمراريةِ الوحي هذه كثيرون ممن يعرفون التوراةَ والإنجيـل. فمحمـد يعتبر أهلَ الكتابِ على علمٍ بما في القرآن : « والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انّه منَـزلٌ مـن ربك بِالحقّ » [١٢] . بل هم يفرحون بما جاء فيه : « الذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما ُأنـزلَ إليك » [١٣] . وجميع الناسِ، كتابيين كانوا أم أميين، يؤمنون بما ُأنزلَ على محمد وبما ُأنـزل من قبل سواء بسواء : « والراسخون في العلم منهم (من أهل الكتاب) والمؤمنـون (مـن العرب) يؤمنون بما ُأنزل إليك (القرآن) وما ُأنزلَ من قبلِك (التوراة

----

(٧) سورة يونس ١٠ / ١٠.
(٨) سورة الأعراف ٧ / ٧.
(٩) سورة النجم ٥٣ / ١ ـ ٤.
(١٠) سورة النحل ١٦ / ٤٤.
(١١) سورة آل عمران ٣ / ١٨٧، انظر : ١٦ / ٨٩.
(١٢) سورة الانعام ٦ / ١١٤، انظر : ٣٤ / ٦.

والإنجيل) » [١٤] . والمسلمون حقّـاً هم القائلون : « آمنّا با وما أُنزل إلينا وما أُنزلَ مـن قبل » [١٥] . ويحدد القرآن موقفَه منهم بقوله : « يا أهلَ الكتاب لستُم على شيءٍ حتى تُقِيمـوا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزلَ إليكم » [١٦] ، « والمؤمنون (كلّهم) يؤمنون بما أُنزل إليك ومـا أُنزلَ من قبلِك » [١٧] .

وفي الحقيقةِ ان أهلَ الكتابِ يشهدون على استمراريةِ الوحي من التوراةِ إلى الإنجيـل إلى القرآن. ويشهدون على صحةِ الوحي والتنزيل على محمد : « ان كنتَ في شكٍ مما أَنزلْنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلِك » [١٨] . وإذا كان أَتْباع محمد من العربِ والأعرابِ ممن لا يستطيعون فهم الوحي القرآني فما عليهم الاّ أن يسألوا أهلَ الكتابِ. فهـو يوصـيهم بذلك: « اسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون » [١٩] .

وحدةُ الوحي هذه جعلتْ من المؤمنين برسالةِ محمد مع المـؤمنين برسـالةِ موسـى وعيسى واحِدا. فشريعتُهم واحدة : « نشرع لكم من الـدين ما وصى به نوحاً » [٢٠] ، وهـي « سنّة من قد أرسلْنَا قبلَك من رسلِنا » [٢١] ، و « لن تجد لسنّةِ ا تبـديلاً » [٢٢] . فبوحـدةِ الشريعةِ لا بد أن يتوحد المؤمنون في أمةٍ واحدةٍ، هي أمةٌ وسط[٢٣] ، مقتصِدةٌ في عقيدتِها[٢٤] ، بسـيطةٌ فـي شـريعتِها بسـببِ ضـعفِ الإنسـان العربـي[٢٥] . وهـي دعـوةٌ قرآنيـة

---

(١٣) ١٣ / ٣٦.
(١٤) ٤ / ١٦٢.
(١٥) ٥ / ٥٩.
(١٦) ٥ / ٦٨.
(١٧) ٤ / ٢١٢ و ٦٠ ، ٢ / ٤.
(١٨) ١٠ / ٩٤.
(١٩) ١٦ / ٤٣ ، ٢١ / ٧.
(٢٠) ٤٢ / ١٣.
(٢١) ١٧ / ٧٧.
(٢٢) ٣٥ / ٤٣ ، انظـر : ٦ / ٣٤ ، ١١٥ ، ٤٨ / ٢٣ ، ١٨ / ٢٧ ، ١٠ / ٦٢ الخ ...
(٢٣) ٢ / ١٤٣.
(٢٤) ٥ / ٦٦.
(٢٥) ٨ / ٦٦ ، ٢ / ١٨٥ ، ٤ / ٢٨ ... وما سواها من آيات كثرة.

ملحة في الوحدةِ بين المؤمنين : « أَقيموا الدين، ولا تتفرقوا فيه » [٢٦] ، و « اعتصِموا بحبل ا ِ جميعا ولا تَفَرقوا » [٢٧] . وهي دعوةٌ استجاب لها محمد وأتباعه : « لا نفرقُ بـين أحـدٍ منهم. ونحن له مسلمون » [٢٨] . وقال أيضا : « لا نفرقُ بين أحدٍ من رسله » [٢٩] . ووصف أتباعه بـ « الذين آمنوا با ِ ورسلِهِ، لم يفرقوا بين أحدٍ منهم » [٣٠] ، ونَصحهم قـائلا : « لا تكونوا من المشركين مِن الذين فَرقوا دينَهم وكانوا شِيعا » [٣١] ، وأيضا : « لا تكونوا كالذين تفرقوا واختلَفوا » [٣٢] .

وبوحدةِ الوحي والشريعةِ توحد المؤمنون جميعا حتى أصبحوا « أمةً واحِـدةً » [٣٣] ، وأعلنوا إيمانَهم بقولهم : « آمنّا با ِ، وما أُنزِل إلينا، وما أُنزلَ من قَبل » [٣٤] .

*****

هذا هو الوحي المحمدي : لا شيء فيه جديد، سوى انّه خفّف عن كاهل هـذه الأمـةِ العربية بعض عسر شريعةِ أهل الكتابِ، وذلك بسبب ضعفِهم[٣٥] . وقصةُ معراج محمد علـى السماواتِ شهيرةٌ في سبيل الطلابِ من ا ِ التخفيفَ عن أمتهِ[٣٦] .

****

---

(٢٦) ٤٢ / ١٣.
(٢٧) ٣ / ١٠٣.
(٢٨) ٢ / ١٣٦ ، ٨٣ ـ ٨٤.
(٢٩) ٢ / ٢٨٥.
(٣٠) ٤ / ١٥٢. وآيات أخرى كثيرة. انظر كتـاب « قس ونبي » لأبي موسى الحريري.
(٣١) ٣٠ / ٣٢.
(٣٢) ٣ / ١٠٥.
(٣٣) ٢٣ / ٥١.
(٣٤) ٥ / ٥٩ ، ٤ / ١٣٦.
(٣٥) ٨ / ٦٦ ، ٤ / ٢٨.
(٣٦) انظر قصة الإسراء والمعـراج فـي تفسـير الجلالين، ص ٣٧١.

ثانياً ـ معنى الوحي

وردت لفظةُ « الوحي » ومشتقّاتُها في القرآن حوالي ثماني وسبعين مرة. وليستْ كلّها بمعنى واحد. وقد نستطيع حصر معانيها بما يلي :

أ ً ـ من الوحي ما هو بمعنى الإلهام الفطري للإنسان، كقوله : « وأوحينـا إلـى أم موسى أن أرضِعيه » (١) ، وقولِهِ: « وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي » (٢). وهذا الإلهام هو أيضا بمعنى التوجيه الذي رتّبه ا في نظامٍ محددٍ وفقَ طبيعةِ الإنسان.

٢ً ـ ومن الوحي أيضا ما هو بمعنى الإلهام الغريزي للحيوان، كقولـهِ : « وأوحـى ربك إلى النحل أن اتخِذي مِن الجبال بيوتًا » (٣) . « وهو يمثّل هدايةَ ا ِ وتوجيهه للحيوان بما ركبه فيهِ من خصائص لحفظِ حياته وقيامهِ بوظائِفه » (٤) .

٣ً ـ ومن الوحي ما هو بمعنى الإشارةِ السريعةِ التي تكون بالرمز والايحاء والرؤيا، كما في قوله عن زكريا : « فخرج على قومِه من المِحراب، فأوحى إليهم أن سـبحوا بكْـرةً وعشِيا » (٥) . وقد يكون وحي

----

(١) سورة القصص ٢٨ / ٧.
(٢) سورة المائدة ٥ / ١١١.
(٣) سورة النحل ١٦ / ٦٨.
(٤) الدكتور عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، ص ١٤.
(٥) سورة مريم ١٩ / ١١.

زكريا إلى الناس : رمزاً، أو كتابةً، أو اعتباراً، أو إشارةً سريعةً، أو ايماء ...

٤ ـ ومن الوحي ما يتعلّقُ بوسواسِ الشيطان وإيحائهِ للإنسان الشر والغرور. قال : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا : شياطين الجن والإنسِ، يوحِي بعضهم إلى بعـضٍ زخـرفَ القول غروراً » [٦] ، وقال أيضا : « وان الشياطين ليُوحون إلى أَوليائِهم لِيجادِلوكم » [٧] .

٥ ـ ومنه أيضا « ما يلقيه ا ُ إلى الملائكةِ من أمرهِ ليفعلوه من فَورهم » [٨] كقولِهِ : « إذ يوحي ربك إلى الملائكةِ انّي معكم. فثبتوا الذين آمنوا[٩] . هذا الوحي هو إلهام سريع، لا إشارةَ فيه ولا رموز.

٦ ـ أما الوحي الذي يحمِلُه النبي محمد إلى الناسِ ليبلّغَهم مضمونَه فهو كالوحي الذي كلّفَ ا ُ به ملاكَه جبريلَ لِينْقُلَه إلى الأنبياءِ. وبذلك يكون ما جاء به جبريلُ محمدا من وحـي هو تنزيلٌ عليه من رب العالمين[١٠] .

هذا المعنى الأخير للوحي يكون من ا على رسلهِ وأنبيائهِ، مباشرةً، أو بواسطةِ ملاكِ الوحي، ويكون أيضا برؤيا ليليةٍ أو نهارية، أو يكون بظهورِ الملاكِ نفسِه بهيئةِ رجلٍ علـى النبي، أو أيضا بغَير ذلك، كما سنرى.

******

(٦) سورة الانعام ٦ / ١١٢.
(٧) سورة الانعام ٦ / ١٢١.
(٨) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٤.
(٩) سورة الانفال ٨ / ١٢.
(١٠) انظر سورة الشعراء ٢٦ / ١٩٢ ـ ١٩٥ ، والنساء ٤ / ١٣٦ ـ ١٦٤.

ثالثًا ـ طرق الوحي

هناك، بحسب القرآن وكتب السِير، عدةُ طرقٍ أو صورٍ لإبلاغ الوحي، بها اتّصلَ ا ُ بأنبيائه، كل بحسب ظروفهِ وأحوالِهِ. وأشارتْ إلى بعضِ هذه الطرق سـورةُ الشـورى فـي قولها: « وما كان لِبشَرٍ أن يكلمه ا ُ الاّ وحيا، أو مِن وراء حِجابٍ، أَو يرسِلَ رسولاً (ملاكاً) فيوحي بأذنِهِ ما يشاء » [١] .

١َ ـ أولُ الطرقِ إذن : الوحي، بمعنى الالهامِ المباشَر، أي إن ا َ يلقي كلمتَه في قلبِ رسولِهِ وروحِه، وينفثُ المعنى في روعِه، كقول حديثٍ نبوي جاء فيه: « ان روح القدسِ (أي الملاك جبريل) نَفَثَ في روعِي أنّه لن تموتَ نفس حتى تستوفي رزقَها ... » [٢] .

٢َ ـ والطريقة الثانية تقوم في أن يوحي ا ُ إلى نبيهِ كلاما يسمعه من وراءِ حجاب، دون أن يرى النبي المتكلم، وذلك كمـا نـادى ا ُ موسى من وراءِ الشجرة وسـمع موسـى نداءه [٣] ، وكما حدث لمحمد وهو في معراجهِ على الأنبياء[٤] .

٣َ ـ والثالثة أن يكون الوحي بوساطةِ الملَكِ جبريل، ملاكِ الوحي الأمـين، الـروح القدس، الذي أرسلَه ا ُ إلى محمد، وإلى غيرهِ من الأنبياء، بصورةِ رجلٍ. ويبدو أن القـرآن كله نزلَ بوساطتِهِ، كما جاء : « نَزلَ به الروح

----

(١) ٤٢ / ٥١.

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٢٢٠ حاشية (١).

(٣) انظر سورة النساء ٤ / ١٦٤ ، طه ٢٠ / ١١ ـ ١٤.

(٤) سورة النجم ٥٣ / ٨ ـ ١٠ ، سورة الاسراء ١٧ / ١ ...

الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسانٍ عربي مبين »[٥]، وجاء أيضا : « قـلْ نزلـه الروح القدس من ربك بالحق ليثبتَ الذين آمنوا »[٦] .

وأما في كتب الحديثِ والسيرةِ النبويةِ فهناك صور أخرى لحدوث الوحي وتنزيلهِ على محمد. وهي، على غَرابتِها، تفسر بعض ما جاء في القرآن :

جاء على لسان عائشة قولُها : « أولُ ما بدِئَ به رسولُ ا ِ صلعم من الوحي الرؤيـا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا الاّ جاءتْ كفَلَق الصبح »[٧] . وحدثَ مثلُ هذه الرؤيـا لابراهيم واسمعيل[٨] ، ولكن « لم يثبتْ ثبوتاً قاطِعاً أن شيئًا من القرآن نزلَ عن طريق الرؤيا المنامية »[٩] .

*****

أما كيفيةُ نزول الوحي على النبي فكانتْ بأحوال مختلفة ومتعددة : أحيانًا كان يأتيـهِ بعنفٍ وجهدٍ وتعبٍ وثقلٍ وشدة. وقد عبر الرسولُ عن ذلك بقوله : « أحيانًـا يـأتيني مثـل صلصلة الجرس، وهو أشده علّي، فيفصم عنّي، وقد وعيتُ عنه ما قال »[١٠] ، كما عبـرتْ أيضا عائشة بقولها : « ولقد رأيتُه ينزلُ عليه الوحي في اليومِ الشديدِ البردِ، فيفصم عنه، وأن جبينَه ليَتفصد عرقًا »[١١] ، وكذلك ابن عباس قالَ : « كان رسولُ ا يعالِج

----

(٥) سورة الشعراء ٢٦ / ١٩٣ ـ ١٩٥.

(٦) سورة النحل ١٦ / ١٠٢.

(٧) صحيح البخاري ١ / ٣ ، ابن هشام ١ / ٢١٦ ...

(٨) سورة الصافات ٣٧ / ١٠٢ ـ ١٠٥.

(٩) الدكتور عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، ص ١٧.

(١٠) صحيح البخاري ١ / ٢ ـ ٣.

(١١) نفس المرجع ١ / ٣ ... انظر ما جاء في جميع كتب السير، فهي على وفاق تام فيما بينهما بما يخـص كيفية نزول الوحي على الرسول.

من التنزيل بشِدة » [١٢] . وعن السيرةِ الحلبية جملةُ أحوال تنقلُها عن مصادر عديدة. تقول في وصف حال النبي أن يأتيهِ الوحي بأنّه كان « يغط كغطيطِ البكر المحمرةِ عيناه » [١٣] . وعن زيد بن ثابت قوله : « كان إذا نزلَ الوحي على رسول ا ثقلَ لذاك، ومرةً وقع فخذُه علـى فخذي، فوا ، ما وجدتُ شيئًا أثقلَ من فخذِ رسول ا » . ويضيف : « ربما أُوحِي إليه وهو على راحِلَتِهِ (ناقته) فترعد حتى يظَن أن ذراعها ينقَسِم. وربما بركتْ ... فلـم تسـتطع أن تحمِلَه، فينزل عنها » [١٤] .

وفي رواياتٍ كثيرة أيضا جاء على لسان رسول ا قولُه : « ما مِن مرةٍ يوحى إلـي الاّ ظننتُ أن نفسي تُقبض منّي » . وعن أسناء بنت عميس : « كان رسول ا ، إذا نزل عليه الوحي يكاد يغشى عليه ... ويصير كهيئةِ السكران » [١٥] . وعن محيي الـدين : « كـان إذا جاءه الوحي يستَلقي على ظهرِهِ » . وسبب ذلك « لم يبقَ للجسمِ من يحفَظُ عليـه قِيامـه ولا قُعوده فيرجِع إلى أصلهِ وهو لُصوقُه بالأرض » [١٦] .

وعن أبي هريرة : « كان رسولُ ا ، إذا نزل عليه الوحي صـدع، فَيغَلـفُ رأسـه بالحناء » . وعنه أيضا : « كان رسولُ ا ، إذا نزل عليه الوحي لم يستطع أحد منّـا يرفـع طَرفَه إليه حتى ينقضي الوحي » . وسبب ذلك ان الرسولَ حين الـوحي تسـتقبله الرعـدة، والكرب، فيتربد وجهه ويغمض عينيه، ويسمع عند وجههِ كدوي النحل، ويضطرب ارتعاشًا، وينوء تحتَ

----

(١٢) صحيح البخاري ١ / ٣.
(١٣) السيرة الحلبية ١ / ٢٥٧.
(١٤) نفس المرجع، ١ / ٢٥٧.
(١٥) نفس المرجع، ١ / ٢٥٧.
(١٦) نفس المرجع، ١ / ٢٥٧ ـ ٢٦٣.

النوباتِ العصبية والارهاصاتِ العاطفية، ويرزح تحتَ ثقل ملاكِ الوحي. وقد جاء في حديث خديجة عن حال النبي ما يلي :

سألتْ خديجةُ زوجها قائلة : « أي ابن عم، أتستطيع أن تُخبرني بصاحبِك هذا الـذي يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم. قالت : فإذا جاءك فأخبرني به. فجاء جبريل عليهِ السلام، كمـا كان يصنع. فقال رسول ا لخديجة : يا خديجة، هذا جبريلُ قد جاءني. قالت : قم يا ابن عم، فاجلس على فَخْذِي اليسرى. فقام رسولُ ا ِ فجلس عليها. قالت : هل تراه ؟ قال : نعم. قالت: فتحولْ فاجلِس على فخذي اليمنَى. فتحولَ رسولُ ا فجلس على فخذِها اليمنى. فقالت : هـل تَراه ؟ قال : نعم. قالت : فتحولْ فاجلس في حِجري. فتحولَ رسولُ ا فجلَس في حجرهـا. قالت : هل تراه ؟ قال : نعم ... فَتَحسرتْ (خديجة) وألقتْ خمارها ورسولُ ا ِ جالس فـي حِجرها. ثم قالتْ له : هل تراه ؟ قال : لا. قالت : يا ابن عم. أثبتْ. وابشِر. فوا ِ، انّه لَملَك. وما هذا بشيطان » [(١٧)] .

أما عبد ا بن حسن فقد سمع أمه فاطمة تحدثُه عن خديجة، تقول له : « إنّي سمعتُها (أي فاطمة سمعت خديجة) تقول : أدخلْت رسولَ ا بينها وبين درعها. فذهب عنـد ذلـك جبريل. فقالت لرسول ا : ان هذا لَملَك. وما هو بشيطان » [(١٨)] .

هذه الحالاتُ الشديدة التي كان تنتاب النبي كشفَ القرآن عنها في قوله : « انّا سنُلقِي عليك قَولاً ثَقيلاً » [(١٩)] . هي حقّا كانت عليه شديدةً حتى أنّه كان ينوي القاء نفسهِ مـن علـى رأسِ الجبل لمعاناتِه مع رسول الوحي ...

----

(١٧) سيرة ابن هشام ١ / ٢٢٣.
(١٨) نفس المرجع ١ / ٢٢٣.
(١٩) سورة المدثر ٧٤ / ١ ـ ٥ ، سورة المزمل ٧٣ / ١ ـ ٥.

رابعاً ـ بدء الوحي

يجمع المسلمون على أن أولَ ما نزل من القرآن كان في غَـار حِـراء، فـي شـهر رمضان، في ليلةِ القَدرِ المباركة. وأولُ آية نزلتْ كانتْ من سورةِ العلَق. وبيان المسلمين على ذلك لا يستقصيه عِلم لكثرةِ الشهودِ والأحاديث النبوية المنقولة إلينا بالطريق الصحيح.

أ ـ مكان النزول :

نقل إلينا ابن هشام عن ابن اسحق عن عبد الملك بن عبيد ا بن أبي سـفيان : « إن رسولَ ا ، حين أراده ا بكرامتهِ، وابتدأه بالنبوة، كان إذا خرج لحاجتهِ أَبعد حتى تَحسر عنه البيوت، ويفضِي إلى شِعابِ مكّة وبطون أوديتها، فلا يمر رسولُ ا بحجرٍ ولا شَجرٍ، الا قالَ: السلام عليك يا رسولَ ا . قال : فيلتفتُ رسولُ ا ِ حوله وعن يمينهِ وشمَالِه وخَلْفَه فلا يـرى الاّ الشجر والحجارة. فمكثَ رسول ا ِ كذلك يرى ويسمع، ما شاء ا أن يمكثَ. ثـم جـاءه جبريلُ عليه السلام، فما جاءه من كرامةِ ا ، وهو بِحِراء في شهر رمضان » [(1)] .

وعن وهب بن كيسان قال : سمعتُ من ابن الزبير قال : « كان رسولُ ا يجاوِر في حِراء من كل سنةٍ شهراً ... حتى إذا كان الشهر

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٢١٧ ، انظر الروح الانف ١ / ٢٦٦ ، صحيح مسلم، وصحيح البخاري، بـاب : بدء الوحي في الجزء الأول ...

شهر رمضان من السنةِ التي بعثَه ا فيها » [٢] , وتشهد عائشة على ذلك بقولها: « ... وكان يخلو بغَار حِراء، فيتحنّثُ, والتحنّثُ هو التبرر » [٣] ، « والتعبد الليالي ذوات العدد » [٤] .

٣ ـ أول ما نزل من القرآن :

استمر النبي يتردد على غار حِراء، طيلةَ خمس عشَرةَ سنة، برفقةِ القسِ ورقـة بـن نوفل وعنايتهِ، وكان هناك يتعبد ويصلّي ويرتاض ويصوم، إلى أن « جاءه الحقّ، وهو فـي غار حِراء. فجاءه الملَك فقال : اقرأ. قال : ما أنا بقارئ. قال : فأخذَني فَغَطني حتى بلغ منّي الجهد. ثم أرسلني. فقال : اقرأ. قلتُ : ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثانية حتى بلـغ منّـي الجهد. ثم أرسلني. فقال : اقرأ. فقلتُ : ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثالثة. ثم أرسلني. فقال: اقرأْ باسمِ ربك الذِي خَلَق، خَلَقَ الإنسان مِن علَق، اقرأ وربك الأكرم[٥] .

« فرجع بها رسول ا يرجفُ فؤاده، فدخَل على خديجة بنتِ خُويلِد، فقال : زملوني زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة، وأخبرها الخبر. لقد خشيتُ على نفسي. فقالتْ خديجة : كلاّ. وا ِ، ما يخزيك ا ُ أبداً. انّك لَتَصِلُ الرحِم، وتحمِـل الكَـل، وتُكسـب المعدوم، وتُقري الضيفَ، وتُعين على نوائبِ الحقّ.

---

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٢١٧ ـ ٢١٩ وما بعد ...
(٣) سيرة ابن هشام ١ / ٢١٨ وما يلي، انظر في مجمل كتب السير ...
(٤) صحيح البخاري، ١ / ٣، انظر صحيح مسلم، في بدء الوحي.
(٥) سورة العلق، رقم ٩٦ ، وهي باتّفاق المسلمين أول ما نزل من القرآن.

« فانطلقت به خديجة حتى أتتْ به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابـن عـم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانـي فيكتـب مـن الإنجيـل بالعبرانية ما شاء ا أن يكتب، وكان شيخًا كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسولُ ا خبر ما رأى. فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزلّه ا ُ على موسى، يا ليتَني فيها جـذعاً ليتنـي أكـون حيـاً إذ أخرجك قومك. فقال رسول ا : أَومخْرِجي هم ؟ قال : نَعم. لم يأْتِ رجلٌ قطّ بمثل ما جئتَ به. ألا عودي. وان يدركْني يومك أنصرك نصرا مؤَزرا. ثم ينْشَب ورقَـة أن تَـوفي وفَتَـر الوحي » [٦] .

هكذا ابتدأ الوحي، وهكذا كان أولُ ما أوحِي به إلى محمد. ولكن موتَ القس ورقة لم يكن الاّ بعد ثلاث سنين أو أربع من بدء الرسالة النبوية. والبخاري، الذي نقلنا عنه هذا النص، يتابع في كلامهِ ما ُأنزلَ من وحي على النبي بعد انقطاعهِ عنه حوالي ثلاثَ سنين. وبعد ذلك استمر الوحي ينزل على الرسول بحسب الظروفِ والمناسباتِ طيلـةَ مـا يقـارب الـثلاثَ والعشرين سنة.

٣ ـ كيفية التنزيل :

من إيمان المسلمين أن القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماءِ الدنيا جملةً واحدةً، ولكن محمداً لم يتلقّاه الاّ منَجما، أي أنّه ُأنزلَ على محمد آيةً آية، أو كلَ خمسِ آيات، أو عشر آيات، أو أكثر أو أقل[٧] .

---

(٦) صحيح البخاري، ١ / ٣ ـ ٤.
(٧) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ١ / ٧٣.

أما الحكمة من تَنْجيمهِ فهي مضاعفة : إنّها حكمةٌ بالنسبة إلى النبي، وذلك لكي « يظل الوحي متجاوبا مع الرسول، يعلّمه كلَ يوم شيئًا جديداً، ويرشده ويهـ ـدِيه، ويثبتُـه ويزيـده اطمئنانًا » [٨] . وفي ذلك شهادةُ من القرآن نفسه بقوله : « وقال الذين كفروا : لولا نُزِّلَ عليه القرآن جملةً واحدة! » ويجيب ا : أنزلناه « كذلك لنثبتْ به فؤادك. ورتّلناه تـرتيلاً » [٩] . ويقول أيضا : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكْثٍ. ونزلناه تنزيلاً » [١٠] .

وهي أيضا حكمةٌ بالنسبة إلى الصحابة، حتى يبقَى الوحي « متجاوباً مـع الصـحابةِ يربيهم ويصلح عاداِتهم ويجيب عن وقاِئعهم، ولا يفاجئُهم بتعاليمهِ وتشريعاتِهِ » [١١] . والحكمةُ في ذلك كانت للصحابة « حتى يحفظوه في صدورهم، ويكتبوه على الرقاع، ويتيسر لهم العملُ بمضمونه شيئًا فشيئًا » [١٢] . والغاية من ذلك « تربيةُ الأمة وترويضها وهدايتُها، وتمكينُها من التطبيق والالتزام بالأحكام وما إليه ... » [١٣].

غير أن الخطر في الاسترسال بالقول بالتنجيم يكمن في جعل الآيـات مفكّكـةً غيـر مرتبطَةٍ بعضها ببعض. وقد لمس المسلمون ظاهرةَ التفككِ هذه، فأوجدوا « علم المناسـبة » الـذي يضع ِلربطِ السور والآيـاتِ قواعد وأصولاً[١٤] . وعند الامام فخر الـدين الرازي أن « أكثر لطائفَ القرآن مودعةٌ في الترتيباتِ والروابط » [١٥] .

- -

(٨) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٤٩.
(٩) سورة الفرقان ٢٥ / ٣٢.
(١٠) سورة الاسراء ١٧ / ١٠٦.
(١١) الشيخ الصالح، المرجع المذكور، ص ٤٩.
(١٢) انظر الدكتور النمر، علوم القرآن الكريم، ص ٨١.
(١٣) الدكتور داود العطار، موجز علوم القرآن، ص ١٠٩ و ١١٤ ـ ١٢٤.
(١٤) انظر فصلاً في السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ١ / ٩٦ وما يلي.
(١٥) انظر كتاب تفسير القرآن للإمام الرازي.

٤ ـ متى نزل القرآن ؟

يحدد القرآن وقت نزوله في أمكنة ثلاثة منه :

في سورة البقرة قوله : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » [١٦] .

وفي سورة الدخان : « انّا أنزلناه في ليلة مباركة » [١٧] .

وفي سورة القدر : « انّا أنزلناه في ليلةِ القدر » [١٨] .

لقد رأينا شهادةَ المحدثين بأن النبي جاءه الحقّ في رمضان عندما كان يتحنّث ويرتاض في غار حِراء. وفي البخاري قوله : « وكان جبريلُ يلقَاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدارسه القرآن » [١٩] . وكانت الليلةُ الأولى ليلةَ السابع عشَر، المسماة بليلةِ القدر، من السنة ١٣ قبل الهجرة الموافقة لشهر تموز سنة ٦١٠ م. وكان عمر النبي إذ ذاك أربعين سنة.

ومما يرجح هذا التاريخ ما نجده في مناسبة أخرى من قول القرآن، وهي مناسبة التقاء الجمعين : أي المسلمين والمشركين في معركةِ بدر التي حدثتْ في السابع عشر من رمضان السنة الثانية للهجرة. قال : « ان كنتم آمنتم با وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » [٢٠] .

أما ليلة القدر فهي أولُ ليلة أنزلَ فيها القرآن. جاء في أهميتها : « انّا أنزلناه في ليلة القدر، وما أدراك ما ليلةُ القَدر، ليلةُ القَدر خير من ألفِ شهر، تُنزلُ الملائكةُ والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر. سلام حتى مطلع الفجر » [٢١] . ومعنى ذلك أن ا ً أنزلَ « القرآن جملةً واحدةً من

----

(١٦) سورة البقرة ٢ / ١٨٥.
(١٧) سورة الدخان ٤٤ / ٣.
(١٨) سورة القدر ٩٧ / ١.
(١٩) صحيح البخاري ١ / ٣ و ٤.
(٢٠) سورة الانفال ٨ / ٤١.
(٢١) سورة القدر ٩٧ / ١ ـ ٥.

اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا »[٢٢] . ويشهد على ذلك ما ورد في سورة النجم بأن القرآن كان كله منذ الأزل « بالأفق الأعلى »[٢٣] ، « عند سِدرةِ المنْتَهى، عندها جنةُ المأوى »[٢٤]. وبعد ذلك أنزله ا ُ منَجما على الرسول بحسبِ المناسبات، على ما جاء سابقًا.

الاّ أن « اللوح المحفوظ » قد لا يكون كتاباً موجوداً في « الأفق الأعلى » ؛ بل قـد يكون كتاب موسى، من قول القرآن نفسه : « ومِن قَبلهِ كتاب موسى إمامـا ورحمـةً »[٢٥] وقوله : « ويتلوه شاهد منه ومن قبلهِ كتاب موسى إماما ورحمة »[٢٦] . وما يرجح ذلك هو أنّنا نجد في القرآن ما نجده في « إمام موسى » : « كلُّ شيء أحصيناه في إمامٍ مبين »[٢٧] . وقد يكون كتاب موسى الموصوفُ بـ « الإمام » هـو نفسه « أم الكتاب »[٢٨] ، ويصرح: « وانّه (أي القرآن) في أم الكتابِ لدينا »[٢٩] .

ولكنّنا نجد في القرآن ما لا نجده في كتاب موسى! فما هو مصدره ؟ لعلّه « الإنجيلُ العبراني » الذي كان بين يدي القس ورقة ينقلُه إلى العربية، ومحمد يحضر نَقْلَه طيلةَ أربـع وأربعين سنة !! ولعلّ أيضا خبرةَ محمد خلال حياتِه وجهادِه وأسـفارِه ومسـتجداتِ الحيـاة والمجتمع لها أيضا في القرآن يد! وفي كل حال لنا عودة إلى مصادر القرآن فيما بعد ...[٣٠]

(٢٢) انظر تفسير الجلالين على ٩٧ / ١، والقرطبي ٢ / ٢٩٧، والزركشي في البرهان ١ / ٢٢٨ ، والاتقان في فصل « كيفية انزاله » ، الجزء الأول ...
(٢٣) سورة النجم ٥٣ / ١ ـ ١٢.
(٢٤) سورة النجم ٥٣ / ١٣ ـ ١٨.
(٢٥) سورة الاحقاف ٤٦ / ١٢.
(٢٦) سورة هود ١١ / ١٧.
(٢٧) يس ٣٦ / ١٢ ، الحجر ١٥ / ٧٩.
(٢٨) سورة الرعد ١٣ / ٣٩.
(٢٩) سورة الزخرف ٤٣ / ٤.
(٣٠) انظر كتاب « قس ونبي » .

خامساً ـ الوحي والإلهام والنبوة

لئن كان في اليهودية والنصرانية فرق بين الوحي والإلهام والنبوة، فان الإسلام لـن يميز بينها. وسبب ذلك هو أن ا هو مصدر كل ما في القرآن من وحي ونبوة وإلهام وعلـم وشريعةٍ وحقائق. فنبي المسلمين ليس له في القرآن أي تدخّل، فهو « لا يصوغُه بلفظـه، ولا يلقيه بكلامه » [١] بل هو « لا يملك حتى حق استخدامِ ذاكرتهِ في حفظِ القرآن، بل ا يتكفّـل بتحفيظه اياه » [٢] .

ويبدو أيضا من إيمان المسلمين بأن محمدا كان يتلقى الوحي من ا بلفظِ ا وأسلوبهِ ولغتهِ وقراءتهِ وبيـانه، ولا يملك محمد أيةَ حريةٍ شخصيةٍ أو إرادةٍ ذاتية أو علمٍ من عنـده. « انّه الوحي ينزل على محمد حين يشاء رب محمد، ويفْتَر إذا شاء له رب محمد الانقطـاع، فما تنفع التعاويذُ والاسجاع، ولا تُقَدم عواطفُ محمد ولا تؤخر في أمرِ السماء » [٣] .

ويحرص محمد، وا يكلّمه تكليماً، أن يصرح باستمرارٍ بأنّه بشَر كسائر البشـر، لا يملك من علمِ السماءِ شيئًا، ولا يعرفْ ما في خزائن ا ، ولا يعلم الغيب، ولا يـزعم لنفسِـه صِفةً ملائكية، ولا يمكنه أن يدفع عن نفسهِ، لا خيرا ولا شرا، بل يخافُ أن يبدلَ بما يـوحى إليه[٤] .

---

(١) الشيخ الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠.
(٢) نفس المرجع، ص ٣٣.
(٣) نفس المرجع، ص ٣٨.
(٤) القرآن : ٧ / ١١٨ ، ٦ / ٥٠ ، ١٠ / ١٥ ـ ١٦ ...

هذا الوحي كان يفاجئ محمداً في أية ساعة : في النهار كما في الليل، في البرد كمـا في القيظ، في يقظتهِ كما في منامه، في بيته كما في أسفاره، في ساعات الصلاة والعبادة كمـا في أحضان خديجة وسائر النساء, في عروجهِ إلى السماوات كما في حروبِه وغَزواتِه وجمـع المغانم ... انّها مشيئةُ ا لا مشيئة محمد. وانّه عملُ ا في محمد. فا « ذاتٌ متكلمةٌ آمِـرة معطِية، و (محمد) ذاتٌ مخاطَبةٌ مأمورةٌ متلقية » [٥] .

ومع هذا التجرد النبوي عن كل ذاتِه وعن كل إرادتِه، لم يسلَم محمد، رغـم التـدخّل الإلهي في كل شيء، من ألسنةِ المتّهِمين الذين حسِبوه مجنونًا، فقالوا « معلّم مجنـون » [٦] ، ورد ا ُ تهمتَهم بقوله : « ما أنت بنعمةِ ربك بمجنون » [٧] ، وحسبوه شاعرا، ورد ا عنـه بقوله : « وما هو بقول شاعر » [٨] ، وحسِبوه حالِما ومحاكِياً الشياطين[٩] ، و « ما هو بقول شيطان رجيم » [١٠] . وآخرون اتّهموه بأنّه يأتي بما في صحفِ موسى وابراهيم[١١] وأساطير الأولين[١٢] ، وكان ا يتكفّل بالرد العنيف.

*****

فانطلاقا من هذا المفهوم القرآني للوحي يستبعد المسلمون أن يكون فيما بين الـوحي والإلهام وما يشبهه من تعابير أيةُ علاقة. فلا الكشفُ

----

(٥) الشيخ الصالح، مباحث ...، ص ٢٧.
(٦) سورة الدخان ٤٤ / ١٤.
(٧) سورة ن والقلم ٦٨ / ١.
(٨) سورة الحاقة ٦٩ / ٤١.
(٩) سورة الأنبياء ٢١ / ٥.
(١٠) سورة التكوير ٨١ / ٢٥.
(١١) سورة الأعلى ٨٧ / ١٨ ـ ١٩ ، النجم ٥٣ / ٣٧ ـ ٤٠ ، ٢٥ / ١٣٣ ...
(١٢) ٦ / ٢٥ ، ٨ / ٣١ ، ١٦ / ٢٤ ، ٢٣ / ٨٣ ، ٢٥ / ٥ ، ٢٧ / ٦٨ ، ٤٦ / ١٧ ، ٦٨ / ١٥ ، ٨٣ / ١٣ . وفيها رد التهمة.

ولا الحدس الباطني، ولا الشعور الداخلي، ولا العرفان، ولا الوجد، ولا الذَوقُ الصـوفي، ولا العرفان، أو اللاوعي واللاشعور ... تستطيع أن تسموا بصاحِبِها إلى درجةِ الوحي والنبوة.

وبكون الوحي كلّه من عندِ ا ، فلا بد أن يلم بكل العلومِ والحقائق التاريخية والكونية، الماضية منها والمستقبلة. لهذا فان القرآن قد « صحح بعض أخطاء وردتْ في الكتبِ السابقةِ تتناولُ عصمةَ الأنبياء، وفنّد بعض المغالطاتِ التاريخية، وصور محمدا شاهِدا الأحداثَ كلها، مراقبا اياها، كأنّه يعيشُ في عصرِها بين أصحابِها » [١٣] .

وأما أمور المستقبل فلا حصر لها في القرآن، لقد تنبأ بانتصار الرومِ على الفرس[١٤] ، وتنبأ بانتصارهِ في معركة بدر الكبرى[١٥] ... وتنبأ عن علومٍ توصل إليهـا العلـم الحـديث مؤخرا، كما عن علومٍ سيكتشفها في أجيال البشرية اللاحقة[١٦] . ولو اطّلع البشر على جوانبِ القرآن « لأدركوا، مثلَ جميع المنصفِين عجز الزمان عن إبطال شيء منه، ولأيقنوا أن علوم الكـون ستظل جميعا في خدمتهِ للكشفِ عن آياتِ ا في الآفـاق والأنفس، كمـا قاله ا : « سنُريهم آياتِنَا في الآفاقِ وفي أنفسِهم حتى يتبين لهم الحق » [١٧] .

******

---

(١٣) الشيخ الصالح، مباحث ...، ص ٤١ وما يليها.
(١٤) سورة الروم ٣٠ / ١ ـ ٣.
(١٥) سورة القمر ٥٤ / ٤٤ ـ ٤٥.
(١٦) انظر كتاب : « القرآن والعلوم الطبيعية » ، « القرآن والعلم » « القرآن والطب » ، « القرآن ومحاولة لفهم عصري » الخ ... ذُكِرتْ قبلاً.
(١٧) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٤٧.

ان المعجزة الكبرى في الوحي المحمدي هو القرآن نفسه، فهو الوحي، وهو النبـوة، وهو الإسلام، وهو كلام ا الذي لا يأتيه الباطل. لهذا تحدى محمد المشركين والكفار وأهـلَ الكتاب والإنس والجن والشعراء والعلماء والفصحاء والبلغاء والمقاتلين والمسالمين وأهلَ الحق واليقين وأصحاب الروح والتصوف والملائكة والقديسين وكلّ أصناف العالمين ... بأن يـأتوا بمثل سورةٍ واحدةٍ من سور القرآن لما استطاعوا ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً ومعيناً ...

وبكلمة : « القرآن هو نفس الوحي. وذلك تمام إعجازه » [١٨] . ومـن ذلـك حـديث الرسول في شرف القرآن : « انه ستكون فِتَن كقِطَعِ الليل المظلم. فقلت : ما النجاة منهـا يـا رسولَ ا ؟ قال : كتاب ا تبارك وتعالى. فيه نبأُ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بيـنكم. وهو فَصلٌ ليس بالهزل. من تركه تجبرا قصمه ا ُ، ومن ابتغى الهدى في غيرهِ أضـله ا ، وهو حبلُ ا ِ المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراطُ المستقيم. هو الذي لا تزيغُ بـه الأهواء، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، من عِلِم عِلمه سبق، ومن عمِلَ به أُجر، ومن حكَم به عدل، ومن اعتصم به فقد هدِي إلى صراطٍ مستقيم » [١٩] .

وبذلك لا شيء من كتبِ الأنبياءِ السابقين يضاهِي القرآن. تلك الكتب كتبهـا الأنبيـاء بإلهامٍ رباني، وهم يحتفظون بشخصيتهم وإرادتِهم وأساليبهم ولغتِهم وحريتِهم، وفي القرآن ليس لمحمد من ذلك شيء ...

----

(١٨) الدكتور مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن ...
(١٩) مقدمتان في علوم القرآن، تحقيق آرثر جفرى، ص ٢٥٦.

سادساً ـ بين النبي محمد والأنبياء السابقين

لقد لاحظنا، من خلال بحثنا، أن بين نبوة محمد ونبوة الأنبياء السابقين علاقةً قريبـةً وتشابها ظاهِرا وتداخلاً صريحا. وذلك واضح في نشدان محمد « تصديقَ » التوراة والإنجيل، وفي اعتبار نفسِه نبيا من أنبياء العهد القديم. ويقوم هذا التقارب على نقاط عديدة. وكذلك أيضا بين الوحي القديم والوحي الإسلامي خلاف في جملة أمور، نقف عندها.

أ ـ وجه المشابهة :

اعتبر محمد نفسه نبياً من أنبياء ا [(١)]، وصدق أقوالهم[(٢)]، واستشهد بهـم[(٣)]، وعلّـم تعاليمهم[(٤)]، واستعمل أساليبهم[(٥)]، وصنع المعجزات مثلهم[(٦)]. لقد بشّر بكلمة ا كمـا هـم بشّروا[(٧)]، ووضع الشرائع الإلهية والقوانين الاجتماعية كما هم وضـعوا[(٨)]، وقـام بوجـه الوثنيين والكفّار كما هم قاموا[(٩)]. وشد مثلهم على وحدانية ا [(١٠)]،

----

(١) القرآن ٢ / ١٣٦ ، ٤ / ١٦٣ ، ٣٣ / ٧ ...
(٢) ٢ / ٤١ ، ٩١ ، ٣ / ٥٠ ، ٥ / ٦٥ و ٤٨ ، ٣٥ / ٣١ ...
(٣) ١٩ / ٥١ ، ٢٨ / ٣ ، ٤٨ ، ٤٨ / ٢٩ ...
(٤) ٥ / ١٢٠ ، ٣ / ٤٨ ...
(٥) ٤٢ / ٥١ ، ١٣ / ١٧ ، ١٤ / ٢٥ ، ٢٤ / ٣٥ ...
(٦) ٣ / ٨٦ ، ٤٠ / ٦٦ ، ٦١ / ٦ ، ٧٢ / ١ ...
(٧) ٧ / ١٥٧.
(٨) ٤٢ / ١٣ ، ٤٥ / ١٨ ...
(٩) ٩ / ٧٣ ، ٦٦ / ٩ ...
(١٠) ٢ / ١٦٣ ، ١٨ / ١١٠ ، ٢٢ / ٣٤ ، ٢١ / ١٠٨ ، ١٦ / ٥١ ...

وأبرز مثلهم اهتمام ا بالبشر وعنايته بهم وحاجتهم إليه[١١] . وأظهر صلة الإنسان با كمـا هم فعلوا[١٢] ، وأبان كمالات ا كما هم أبانوا : فا عندهم، خالق الإنسان والكون[١٣] ، معتن بالخلق أجمعين[١٤] ، عليم بالإنسان وبمصيره[١٥] ، سميع لتنهدات صدره[١٦] ، بصير بما يعمل في السر وفي العلانية[١٧] ، رحوم غفور لخطاياه[١٨] ...

وشأن الوحي، في الأنبياء كما عند محمد، انّه اعلان ا ذاته بذاته بواسطة أنبيائـه، لأن ا لا يكشف عن مقاصده الخفية الا لعبيده الأنبياء[١٩] ، لأنّه اله محتجِب عـن بصـائر البشر، فلا ينالُه انسان مطلقا، ويفوقُ مدارك كل إنسان بما لا يحد[٢٠] . فلولا الـوحي لبقيـتْ ذاتُه مستترةً، وأسراره خفيةً، ومعرفتُه مستحيلةً، وصفاتُه غير مدركة، واسمه محتجِبا علـى الجميع[٢١] . ولولا الوحي لعجز الإنسان عن تدبير خلاصِه، وتنظيم حياته الدنيا، وترتيبِ أمور نفسه، لذلك كانتِ الشريعةُ الإلهيةُ نظاماً للبشر وقاعدة لسلوكهم[٢٢] .

ثم ان النبوة، في الإسلام كانت أم في اليهودية، هي هبةٌ من ا مجانية، تُعطى لبعض الناس فيتكلّم بما يمليه عليه ا ، لا بما

----

(١١) ٤ / ٤٠ ، ١٠ / ٦١ ، ٣٤ / ٣ ، ٩٩ / ٧ ...
(١٢) ٢٦ / ١٧ ، ٣٠ / ٥ ، ٤٩ / ١٢ ...
(١٣) ٦ / ١٠١ ، ١٦ / ٣ ، ٤ ، ٥٥ / ٣ ...
(١٤) ٢ / ٢٩ ، ٦٤ / ٣ ، ٨٢ / ٧ ...
(١٥) ٥ / ٩٧ ، ١١ / ٥ ، ٣٩ / ٧ ...
(١٦) ٢٦ / ٢٢٠ ، ١٤ / ٣٩ ، ٣ / ٣٨ ، ٢ / ٧٧ ...
(١٧) ٢ / ٣٣ ، ١٤ / ٣٨ ، ٥ / ٩٩ ، ١٦ / ١٩ ...
(١٨) ٧ / ١٤٩ ، ١٥٥ ، ٣ / ١٢٩ ، ٥ / ٣٤ ، ٢٣ / ١١٨ ...
(١٩) النبي عاموس ٣ / ٦ قابله مع سورة طه ٢٠ / ١٣.
(٢٠) أيوب ٤٢ / ٣ وأشعيا ٤٥ / ١٥ قابل الانعام ٦ / ١٠٣ و ٧٠ / ٥ ..
(٢١) تثنية الاشتراع ٢٩ / ٢٨ ، دانيال ٢ / ٧ قابل الشورى ٤٢ / ١١ ...

يمليه عليه عقله : جاء في رسالة القديس بطرس : « لم يأت نبوة قط بـإرادة بشـر، ولكـن الروح القدس حمل بعض الناس على أن يتكلّموا من قبل ا » (٢٣) ، وجـاء في سورة طـه: « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » (٢٤) ، وجاء أيضا في سورة النحل : « قـل نزلـه روح القدس من ربك » (٢٥) ، وأيضا في سورة الشعراء: « نزل به الروح الأمين على قلبك » (٢٦).

فمبدأ النبوة، ومواضيعها، وطرقها متّفقة اذن فيما بين القرآن والنبوات القديمة. ولهذا جاء كتاب محمد « مصدقاً لما بين يديه من التوراة » (٢٧) أو هو « تصديق الذي بـين يديـه وتفصيل الكتاب » (٢٨) .

٣ ـ أوجه التباين والخلاف :

ان ما يجعلُ النبوةَ في الإسلامِ تختلفُ عما هي في اليهودية أكثر مما يقـارب بينهـا. ونقاطُ التباين لأعمقُ من نقاطِ الوفاق. وأهم ما يقع عليه التباين يكمن فيما يلي : فـي سـيرةِ الأنبياءِ مع ا ، وفي صراعِهم مع ما لا يستطيعون حملَه، وفي ضغط كلمةِ ا علـيهم وفـي شعورهم بثقل الرسالة الملقاة على عاتقهم، وفي ترددِهم المستمر في اتّباعِ طـرق ا حتـى نهايتها، وفي غير ذلك ... كل هذه لم يتعرض محمد لِمتَاعِبِها في سيرتِهِ مع ا . فلننظر :

\- -
(٢٢) خروج ٢٠ / ١ ـ ١٧ وتثنية الاشتراع ١٢ ـ ١٦ / ١٥ ـ معظم سور القرآن.
(٢٣) ٢ بطرس ١ / ١٩ ـ ٢١
(٢٤) طه ٢٠ / ١٣.
(٢٥) ١٦ / ١٠٢.
(٢٦) ٢٦ / ١٩٣.
(٢٧) ٥ / ٤٦ ، انظر ٢ / ٤٨ ، ٤١ ، ٩١ ، ٩٧ ، ٣ / ٣ و٣٩ و٥٠ ، ٤ / ٤٧ ، ٣٥ / ٣١ ، ٤٦ / ٣٠ ، ٦١ / ٦ ...
(٢٨) ٢ / ١٠١ ، انظر ٢ / ٨٩ ، ٣ / ٨١ ، ٦ / ٩٢ ، ٤٦ / ١٢ ...

* لقد تلقّى النبيون الوحي من عند ا متردين، لأنّهم غير جديرين بالقيـام بعـبءِ الوحي الثقيل، ولأن عيوبهم البشرية كثيرةٌ لا تخولهم الامتثالَ أمام ا ، ولأن الخوفَ يعتريهم عندما يسمعون كلمةَ ا : لقد قال موسى انّه غير جديرٍ بمثل هذا العمل : « لستُ أنا صاحب كلامٍ منذ أمس ولا أول من أمس ... بل أنا ثقيلُ الفم واللسان » [٢٩] . وشعر أشعيا بأن عيوبه أمام الرب كثيرةً : « ويلٌ لي انّي هلكتُ لأنّي إنسان نَجِس الشفتين، وأنا ساكِن بـين شـعبٍ نَجِسِ الشفتين، لأن عيني قد رأَتا الملِك رب الجنود » [٣٠] . وأحس أرميا بخوفٍ كبيرٍ عنـدما دعـاه ا ، وكان لا يزالُ فتى، فقـال : « آه يا سيد الـرب، أني لا أعرفُ أن أتكلم لأنـي ولد... » [٣١].

* وفوق ذلك، يظهر الوحي وكأنّه محنةٌ ابتلى ا ُ بها عبيده الأنبياء : فهـذا موسـى الذي ابتلاه ا بشعبٍ قاسي الرقبة[٣٢] ، وايليا الذي التمس لنفسِه الموت[٣٣] ، وأرميـا الـذي أمره الرب أن يصنَع « ربطًا وأنيارا ويجعلَها على عنُقِه » [٣٤] ، ويعلِن موقفَه بقولِهِ : « قـد خَدعتَني يا رب فانخدعتُ، ألححتَ علي فَغُلِبتُ » [٣٥] ، وأشعيا يثير النزاع بينَه وبين ا [٣٦] ، ويكلّمه ا ُ بإلقاءِ يدِه عليه وبإنذارهِ اياه[٣٧] ، وحزقيال يرضخُ ليدِ الرب القـديرةِ تدفعـه إلـى الهربِ والاستنكار[٣٨] وغيرهم ... لكأن الوحي مصيبةٌ تثقّلُ كاهِلَهم وتجعلُ مـنهم « إنسـان خصامٍ ونزاعٍ للأرض كلّها » [٣٩] .

---

(٢٩) سفر الخروج ٤ / ١٠.
(٣٠) نبوة أشعيا ٦ / ٥.
(٣١) نبوة ارميا ١ / ٦ ـ ٨.
(٣٢) سفر العدد ١١ / ١١.
(٣٣) سفر الملوك الثالث ١٩ / ٤.
(٣٤) ارميا ٢٧ / ١٨.
(٣٥) ارميا ٢٠ / ٣ ـ ٩.
(٣٦) اشعيا ٦ / ٨.
(٣٧) اشعيا ٨ / ١١.

* وفوق ذلك أيضا، يدفع الوحي بالأنبياء أحيانًا إلى الاستشهاد والموت في سبيل ا . فلا الهرب، ولا الثورة، ولا الشكوى المريرة، ولا أي شيء آخر يستطيع أن ينجي النبي مـن ضغطِ ا عليهِ. وبقدر ما يرفض النبي مهمتَه ووحيه بقدر ما يستحثه الـوحي للخضـوع : فغضب ا أجبر تعنّتَ موسى لقبول الرسالةِ، والعاصفةُ والتنّين أعادا يونان بالقوةِ إلى النبوة، وايليا أعِد مرغَما لرسالة جديدة، وأرميا بقي أسيرا لكلمة ا ...

وليس من نبي استطاع التفلّتَ من يد ا . وقد عبر النبي عاموس باسهابٍ عـن هـذه الملاحقَةِ الإلهية، ومثّلَ نفسه مع ا ِ بقول : « كالأسدِ وفريستِه، والعصفورِ وفخّهِ، والبوقِ في الحرب. تكلّم ا فمن لا يتنبأ ؟ » [٤٠] . وشهد التاريخُ النبوي على استشهادِ الأنبيـاء شـهادةَ واقعٍ : لقد ُأعدِم الأنبياء في أيام آخاب[٤١] ، وفي أيام منسا[٤٢] ، وفي أيام يواكيم[٤٣] . ولم يـر أرميا ذلك أمرا غريباً[٤٤] ، إذ أصبح الموت في سبيل ا أيام نحميا شيئًا عادياً[٤٥] . وقد أشار المسيح إلى هذه الحالة النبوية التعيسة بوضوح، فقال : « أورشليم قاتلـة الأنبيـاء وراجمـة المرسلين إليها » [٤٦] .

----

(٣٨) حزقيال ٣ / ١٤.
(٣٩) ارميا ٥ / ١٠.
(٤٠) عاموس ٣ / ٣ ـ ٨.
(٤١) ٣ ملوك ١٨ / ٤ و ١٣ ، ١٩ / ١٠.
(٤٢) ٤ ملوك ٢١ / ١٦.
(٤٣) ارميا ٢٤ / ٢٠ ـ ٢٣.
(٤٤) ارميا ٢ / ٣٠.
(٤٥) نحميا ٩ / ٢٦.
(٤٦) متى ٢٣ / ٢٧.

* يجب أن نقر ونعترف : إن محمداً كان مع ا مرتاحاً ومرتاحاً جداً. بل كان على « سكينة » واطمئنان تامين. جـاء في القرآن : « أنزل ا سكينته علـى رسـوله وعلـى المؤمنين » (٤٧) ، و « أنزل ا سكينته عليه وأيده بجنود لم تَروها » (٤٨) . وليس في القـرآن صلاةٌ واحدة بها يتضرع النبي إلى ا ليبعد عنه ثقل الرسالة والمهمة. بل انّه آمِن مـن كـل خوفٍ ورعدة أمام عظمة ا وجبروته. وجلّ من نرى من متاعب أنهكتْ قوى النبي كان يأتيه ذلك من الكفّار والمشركين. أما مع ا فهو يرى نفسه أهلاً لذلك، وبمقدوره أن يقـوم بهـذه الدعوة. وما نراه في كتب السيرة والأحاديث شيء لا يعتد به ولا يحسب له حساب.

* أما التباين الأشد عمقاً فهو في موضوع النبوة. من المعروف أن موضوع النبـوة انما يكون من طبيعةٍ دينية، إيمانية، خلاصية، لا بحث فيه عن المعضلات العلمية، والأمـور التاريخية، ولا معالجة في نظريات ما ورائية أو فلسفية أو اجتماعية. موضوع النبوة الأساسي هو إعلان ا عن مقاصده التي فيها يعلن عن عمله الخلاصي. الخلاص، خلاص الإنسان هو موضوع الوحي والنبوة، وهو مقصود ا ، وتدبيره، ومشيئته ... ولن نجد، في القرآن، شـيئاً من ذلك، بل لا ورود، في القرآن، لكلمة « خلاص » ... في حين أن موضوع نبواتِ العهـد القـديم الأساسي هـو الإعلان عن مجيء « المخلّص » ، الـذي تحقّقَ، في المسيحية ، بـ « المسيح » . لذلك، فبالنسبة إلى المسيحية، عندما جاء المخلّص، انتهت النبـوة، أي عنـدما تحقّقت النبوات في المسيح بطلتْ. وأَحداثُ النبوات القديمةِ لم تَكن لِتدرك

----
(٤٧) ٩ / ٢٦ ، ٤٨ / ٢٦.
(٤٨) ٩ / ٤٠ ... انظر المقدمة ص ٢١ ـ ٢٣.

معانيها لولا أحداثْ المسيح وتعاليمه وأعمالُه التي فسرتْها وأعطتْها المعاني الحقيقيـةَ لهـا : فالمسيح، بالرؤيةِ المسيحية، أظهر كلّ سر مكتوم منـذ الأزل[٤٩] ، وأوحـى معنـى الكتـب المحتجب[٥٠] ، وانتهى به الناموس وعملُ الناموس[٥١] ، وانكشفَ به كلُّ مستور : « لا شـيء يبقى مستوراً بعـد اليـوم، كلُّ شيءٍ يجب أن يظهـر، ولا شيء يجـب أن يبقـى غيـ ـر معروف »[٥٢] . ولولا المسيح لما انكشف سر ا للناس[٥٣] ...

هذه الحقائق النبوية، في اليهودية كما في المسيحية، لا نجد لها مثيلاً في الإسلام، لأن موضوع النبوة المحمدية وغايتَها يختلفان تماماً عن موضوع النبوة وغايتِها عمـا هـي فـي المسيحية. ولئن أعلن محمد بأنّه « خاتَم النبيين » [٥٤] ، فلا شيء يشير إلى أنّه مـن طينـتِهم وجبلتِهم ورسالتِهم ومهامهم، كما لا شيء يشير إلى أنّه يتِمهم ويكملُهم.

* ومن حيث أساليب النبوة فهناك أيضا تباين واضح في الإسـلام عمـا هـي فـي اليهودية. لقد أتى الوحي الأنبياء بطرقٍ شتى وأساليب مختلفة[٥٥] ، وذلك بحسب قدرةِ النـاس على فهمها، وبحسب مقاصدِ ا في إعلان الحقائق الموحاة. وأهم ما في التوراة من أسـاليب الوحي هو كما يلي :

----

(٤٩) انجيل مرقس ٤ / ١١ ...
(٥٠) انجيل متى ١٦ / ٢١ ...
(٥١) انجيل يوحنا ١٩ / ٢٨ ، رسالة غلاطية ٤ / ٤ ..
(٥٢) انجيل مرقس ٤ / ٢٢.
(٥٣) انجيل متى ١١ / ٢٧.
(٥٤) سورة الأحزاب ٣٣ / ٤٠.
(٥٥) الرسالة إلى العبرانيين ١ /٢.

أ ـ الأحلام والرؤى. هي أولى أساليب الوحي التي أوحى بها ا إلى أنبيائـه. وقـد استعملها الأنبياء بعد أن أخذوها عن الشعوب الشرقية القديمة وجردوها مـن بقايـا السـحر والشرك والتنجيم[٥٦] ، وبعد أن أضافوا إليها بعض القيم الروحية الخاصـة بهـم وبالشـعب اليهودي. وقد رضي ا ذاته عن هذه الطرق التقليدية البدائية : فالكهنة كانوا يطلبون قضـاء أوريم وتوميم لمعرفة قصد ا [٥٧] ، ويوسف كان يملك قدحا للكهانة[٥٨] ، وهو خبير في تفسير الأحلام[٥٩] ؛ لكأن الأحلام هي، عند اليهود، علامات السماء[٦٠] . وبقـي هـذا حتـى جيـل متأخّر[٦١] . ولكن عرف بنو إسرائيل فيما بعد كيف يميزون الأحلام الصادقة التي تأتي مـن ا [٦٢] من الأحلام الكاذبة التي يقوم بها الكهان المحترفون[٦٣] ، وقد نقضها الأنبياء واعتبروها غير صادقة[٦٤] .

أما بالنسبة إلى الإسلام، فلن تكون الأحلام من أساليب النبوة الصحيحة : لقد اعتبـر النبي محمد الأحلام كوسوسة شيطانية يقوم بها الشيطان ليبعد النبي عن مهمته، لـذلك نـرى القرآن يقول : « ومـا نحن بتأويل الأحلام بعالمين » [٦٥] ، وينسب الأحـلام إلى الشعراء : « قالوا : أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر » [٦٦] . أما بالنسبة إلى الرؤيـا فيختلـف الحال. انها صادقة وحقّ : « قد صدقت الرؤيا » [٦٧] أو

---

(٥٦) أحبار ١٩ / ٢٦ ، تثنية الاشتراع ١٨ / ١٠ ، ١ ملوك ١٥ / ٢٣ ، ٢٨ / ٣ ..
(٥٧) سفر العدد ٢٧ / ٢١ ، تثنية الاشتراع ٣٣ / ٨.
(٥٨) سفر التكوين ٤٤ / ٢ و ٥.
(٥٩) سفر التكوين ٤٠ / ٤٠ و ٤١.
(٦٠) تكوين ٢٠ / ٣ ، ٢٨ / ١٢ ـ ١٥ ، ٣١ / ١١ ، ٣٧ / ٥ ـ ١٠.
(٦١) قضاة ٧ / ١٣ ، ٢ ملوك ٢٨ / ٦ ، ٣ ملوك ٣ / ٥ ـ ١٤.
(٦٢) عدد ١٢ / ٦ ، تثنية الاشتراع ١٨ / ٢.
(٦٣) أحبار ١٩ / ٢٦ ، تثنية الاشتراع ١٨ / ٢.
(٦٤) اشعيا ٢٨ / ٧ ـ ١٣ ، ارميا ٢٣ / ٢٥ ، جامعة ٥ / ٢ ، سيراخ ٣٤ / ١ ...
(٦٥) سورة يوسف ١٢ / ٤٤.
(٦٦) سورة الأنبياء ٢١ / ٥.

« لقد صدق ا رسول الرؤيا بالحقّ » [٦٨] . لهذا فهي فتنة للناس لأنهم لا يدركون كنهها: « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » [٦٩].

ب ـ ثم تخطّى الأنبياء هذه الطرق البدائية في تقبل الوحي، وأصبحت النبوة معهم في مرحلتها الثانية تعتمد على الرؤية والسماع[٧٠] . الاّ أن الرؤية بقيت لغزاً لا يكشف عن حقيقة النبوة، لذلك استتر برموز من الأديان الشرقية القديمة وبإشارات غامضة لا يدركها عامة الناس[٧١] ، ولذلك أيضا استتر برموز وإشارات ابتكرها الأنبياء ليخفوا عن الناس كيفية رؤيتهم وحصول الوحي والنبوة[٧٢] . ولكن بعض الأحيان يكون سماع ولا تكون رؤية، لأن رؤية وجه ا أخطر من سماع صوته، بل لا يستطيع إنسان أن يرى وجه ا ويبقى حيا[٧٣] .

أما بالنسبة إلى الإسلام فلم يذكر القرآن أن محمداً رأى ا أو سمع صوته. جل ما يذكره أن ا أعطى محمداً أن يرى آياته فقط[٧٤] ، ولا يحقّ للنبي أو لأي إنسان آخر أن يرى وجه ا بحال من الأحوال[٧٥] ، كما لا يحقّ له أن يسمع صوته. وما يسمعه هو آيات من ا [٧٦] . فليست الرؤية إذن ولا السماع من طرق الوحي في القرآن. هناك فقط الملك جبريل، ساعي البريد النبوي الأمين، والواسطة التي قامت بالمهمة.

----
(٦٧) سورة الصافات ٣٧ / ١٠٥.
(٦٨) سورة الفتح ٤٨ / ٢٧.
(٦٩) سورة الاسراء ١٧ / ٦٠.
(٧٠) سفر العدد ٢٣ / ٣ و ١٥.
(٧١) ١ ملوك ٢٢ / ١٦ ، اشعيا ٦ /١ ، حزقيال ١ / بمجمله.
(٧٢) ارميا ١ / ١١ ، حزقيال ٩ بمجمله، عاموس ٧ / ١ ـ ٩.

ج ـ ثم هناك وحي بطرق أخرى : بإعمال الفكر، وميل القلـب، والاعتمـاد علـى الفطنة[٧٧] ، والأخذ بالحكمة[٧٨] ، فهي كلّها من جوهر ا ومن طرقه في الوحي[٧٩] ... هـذه الأساليب النبوية، بمعناها الكتابي، لا يوجد منها شيء في الإسلام. ولئن رأينا بعضـها فـي القرآن فذاك يكون تلميحاً، ومن باب التعليم الذي اتّخذه النبي محمد ليفهم الناس مدى علاقـتهم با .

* ثم ان بين نبوة العهد القديم ونبوة الإسلام فرقاً آخر، وهو من صميم الحياة النبوية. ويقوم على أن النبي لا يستفيد لنفسه من نبوته، بقدر ما يفيد الآخرين. النبوة عطاء وتضـحية تتعدى شخصية النبي. قد يجلب النبي على نفسه العذاب والآلام الكثيرة في سبيل الخدمة. وقد تقوم عليه قيامة البشر أجمعين، لأنّه لا يراعي أميالهم وأهواءهم. انّه « إنسان خصام ونـزاع للأرض كلّها » [٨٠] . انّه سائح في الأرض تائه من أمام وجه ا ، لا يعرف راحة ولا لذّة ولا هـدوء، مضطهد لا عزاء له فيمـا بين البشر. يهمه الخدمة حتى التضحية في سبيل شـعب ا [٨١] ...

غير ذلك أمر النبي العربي : لقد خاض معارك كثيرة، وجـاهد في سـبيل « مغـانم كثيرة » ، وأسس حكماً ودولة، واضطهد الناس بالسيف

----

(٧٣) سفر الخروج ٣٣ / ٢٠ ، انظر : ١٩ / ٢١ ، أحبار ١٦ / ٢ ، عدد ٤ / ٢٠.
(٧٤) القرآن : ١٧ / ١ ، ٢٠ / ٢٣ ، ٥٦ ، ٧٩ / ٢٠ ...
(٧٥) القرآن : ٦ / ٧٦ ـ ٧٨.
(٧٦) القرآن : ٢٠ / ١٨.
(٧٧) سفر الأمثال ٢ / ١ ـ ٥ ، ٨ / ١٢ و ١٤.
(٧٨) سفر الحكمة ٢ / ٦.
(٧٩) سفر الحكمة ٧ : ١٥ ـ ٢١.
(٨٠) نبوة أرميا ٥ / ١٠.
(٨١) انظر : أيوب ٤٠ / ٤ ، اشعيا ٦ / ٨ ، حزقيال ٢ / ٢ ، ارميا ٢ / ٦ ...

والعنف. وهـو يعِد أصحابه بـ « مغانم كثيرة يأخذونهـا » [٨٢] ، و « عنـد ا مغـانم كثيرة » [٨٣] . و « أغناهم ا ورسوله من فضله » [٨٤] ... لقد كان محمد، على الناس، حكما وقائدا وقاضياً يقسم الأرزاق والمغانم فيما بينهم، ويستفيد منها « الخمس » [٨٥] . في حين أن المسيح أجاب رجلاً يريد اقتسام الميراث مع أخيه : « يا رجل، من أقامني عليكم قاضـياً أو قساماً ؟ » [٨٦] .

* وفرق آخر : لقد كان أمنيةُ الشعب اليهودي أن تكون النبوة مشتركة وعامة بين كل أفراده. لهذا صلّى موسى وتمنّى على ا : « ليت جميع أمة الرب أنبياء، يجعل الرب روحه عليهم! » [٨٧] . ورغب إسرائيل أن يكون « مملكة أحبار وشعباً مقدساً » [٨٨] . فلا يعـود هناك تمييز في مملكة ا ، أو تباين بين أفراد الأمة اليهودية في علاقتهم با .

أما في الإسلام فالأمر يختلف تماماً : لن تكون النبوة في المسلمين الاّ لمحمـد، ولـن تعطى النبوة بعد محمد لأحد. لقد ُأغلِقَ الباب وُأحكِم غلقُه، وكان « خاتَم النبيين » [٨٩] . ولـن تكون كلمة ا على الإنسان واحد بعد محمد يستحقّ أن يكون وسيطاً أو شفيعاً أو قديساً غيره لدى ا . فالنبوة، في الإسلام حكر لمحمد، رغم أن صفاتِ النبوة تنطبقُ على

---

(٨٢) سورة الفتح ٤٨ / ١٩.
(٨٣) سورة النساء ٤ / ٩٤.
(٨٤) سورة التوبة ٩ / ٧٤.
(٨٥) سورة الأنفال ٨ / ٤١.
(٨٦) انجيل لوقا ١٢ / ١٣ ـ ١٤ ولكن موسى كان قائداً وقاضياً : خروج ٢ / ١٤.
(٨٧) سفر العدد ١١ / ٢٩.
(٨٨) سفر الخروج ١٩ / ٦.
(٨٩) سورة الأحزاب ٣٣ / ٤٠.

كثيرين من الناس المتفوقين. ولهذا كثير منهم ادعى، في الإسلام، النبوة لنفسه : « فمن أولئك مسيلمة بن حبيب الكذّاب ... وعبهلة بن كعب ... وطليحة بن خويلد الأسدي ... وسجاح بنت الحارث التميمية ... والنضر بن الحارث ... وابن المقفع الكاتب البليغ ... وابن الراوندي ... وشاعر الإسلام أبو الطيب المتنبي ... وأبو العلاء المعري ... » [٩٠] .

* وأخيرا، ان النبوة في اليهودية لها قيمةُ ادراكِ المطلَق أكثر من كونها استباقَ معرفةِ المستقبل، أو تنظيم أحوال المجتمع، أو تأسيس دولةٍ إلهية علـى الأرض، أو سـن شـرائع وقوانين، أو إدراك وقائع العلوم قبل اكتشافها، أو معرفةَ حلول عِقَدِ الإنسان ومشاكِله، أو غير ذلك مما نراه في الإسلام. ولئن كان للنبواتِ القديمة معنى اكتشافِ المستقبلات قَبلَ حـدوثها، فانّها تطمع بذلك من اكتشافِ المطلَق ومعرفتهِ. فالنبوة كانتْ حنِينًا إلى معرفةِ ا أكثر منهـا حنين إلى معرفةِ الغد. وجوهر النبوة يقوم على ادخال ا في تاريخ البشر، وعلـى اعـلان مقاصد ا الخلاصية، وفي النتيجة على تجسدِ ا فيما بين البشر ليتمكّنوا من سعادتهم بـه. وهذه كلها أمور لا شأن لنبوة محمد ووحي القرآن فيها.

****

بعد هذا كلّه، يجب أن نعرف جملة أمور هامة في مفهومِ الإسلام للوحي والنبوة. هذه الأمور هي من خصائص المسلمين دون سواهم من الناس :

---

(٩٠) انظر الدكتور مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن، ص ١٧٢ ـ ١٨٧ حيث يستعرض المتنبئـين وسيرتهم وأعمالهم في منافسة القرآن ...

أولاً ـ إن الإسلام مؤسس على القرآن، لا على محمد. وقد يزول محمد ويبقى القرآن فيبقى الإسلام ما بقي القرآن.

ثانياً ـ إن القرآن دليلٌ على رسالة محمد وبرهان وحيد على نبوته، وليس العكـس. ولو كان العكس صحيحاً لكان الرسول أسمى من الرسالة، ولكان محمد أعظم مـن القـرآن. والحال إن الرسالة هي الأصل. ولم يكن محمد الاّ بشيراً ونذيراً ومبلّغاً. قال القرآن : « ومـا على الرسول الاّ البلاغ المبين » (٩١) و « إن لم تفعل فما بلّغت رسالته » (٩٢) .

ثالثاً ـ إن القرآن لا يظهر شيئاً عن الرسول : عن سيرته وأعماله وأقواله، وإن فعلَ شيئاً من ذلك فبالعرض. ولا يعقَل أن يكون الأمر غير ذلك، لأن القرآن، في معتقدِ المسلمين، كتاب أزلي سابقٌ وجوده على وجودِ محمد.

رابعاً ـ إن العِلم في الإسلام هو « عِلم القرآن » ، لا « عِلم ا » أو ما يسمى اليوم بـ « اللاهوت » ، لأن ا ، في الإسلام، لا يدرك، ولا يوصف. ولئن نـرى، اليـوم، عنـد المسلمين، بعض دراساتٍ عن مواضيع الهية، فتبـأثيرٍ مـن الآدابِ المسـيحية واللاهـوتِ المسيحي. الأصلُ في علوم الإسلام هو « علوم القرآن » ، إذ القرآن هـو « كـلام ا » ، وعليه تدور المباحثُ والأبحـاثُ والعلم والمعرفةُ والخلاص والأدلّـةُ والاطمئنـان ... وان صح لدينـا إنشاء كلمـةٍ « كُورانُولُوجِي » فتكـون متنـاسِبةً مـع مـا يسمى بالمسـيحية بـ « الكريستولوجي » ، وليس لـ « علم الإنجيل » من مكان في اهتمام المسيحيين.

خامساً ـ إن الأحداثَ التي ألزمتْ نزولَ الآياتِ زالتْ. ولكن

----
(٩١) القرآن : ٢٩ / ١٨ ، ٢٤ / ٥٤ ، ٥ / ٩٢ ...
(٩٢) القرآن، سورة المائدة ٥ / ٦٧ ...

الآيات لا تزول. وكيف يكون ذلك : الأحداث تتغير والآياتُ الحاكيةُ عنها لا تتغير!! كيف يتغير المجتمع والعصر والعلم والناس، ونظم القرآن هي هي لكل مجتمعٍ وعصرٍ وعلم!! لئن جاز للنبي نَسخُ آياتٍ بآياتٍ طيلةَ ثلاثٍ وعشرين سنة، أفلا تكفي ألفٌ وأربعمائةٍ وسنتان لِنَسخِ آياتٍ، وتنزيل أخرى من لدن الرب الرحيم!!

ولكن، إذا عرفنا منطقَ القرآن والإسلام والمسلمين، نتأكّد أن العالم القرآني يدور في زمن دائري، على طريقةِ الميتولوجية اليونانية، ويوحي من الصحراءِ المترامية الأطراف، وبإلهامِ السماء اللامتناهية. كل ما في الإسلام على نَحوٍ سبق. لهذا فتطور الحياةِ وتغير الاحداثِ لا قيمةَ لها البتة في نظرةِ المترامي الأبعادِ واللامتناهي الحدود. فالكلُ في القرآن يدور على نفسه وعلى مثال سابقٍ محتّم.

سادساً - إن القرآن هو كتاب عقيدةٍ وتشريعٍ ونُظُم حددتْ وثُبِّتَتْ من لدن العلي العليم، ولا شأن فيه للوقائع الزمنيةِ المتبدلّة. هو كتاب دينٍ فيه من الفرائضِ والواجباتِ المنزلةِ ما لا يستطيع الإنسان، في ظروفهِ الراهنة، تبديلَ شيءٍ فيها. انه كتاب يشيد بـ « تَعالِيـةِ » ا ِ، وبعدِهِ عن الإنسان، ووحدانيته المطلقة، حتى لم يبقَ له بالإنسان الضعيفِ أيةُ علاقة. ومن هنا كانت بعض الفِرقِ التي نشأتْ في الإسلامِ ونَمتْ تَرى نفسها مضطرةً لبعضِ التجسداتِ الإلهيةِ، فكانتِ الدرزيةُ تقول بتجسدِ ا ِ في الحاكِم، والنصيريةُ في علي، وغيرها ... حتى المسلمون أنفسهم اضطُروا إلى أن يعطُوا لمحمد دورا إلهيا وصفاتٍ كماليةٍ حتى كاد يلامس التأليه ...

****

خاتمة الفصل

إذا أردنا استقصاء معجزاتِ ا مع نبيه، في هذا الفصل، لعجزنـا عـن حصـرها وتعدادها؛ بل إنّها فائقةُ الوصفِ والحد : فمِن معجزةِ اختيارِ ا لمحمـد منـذ الأزل، إلـى معجزاتِ استقبالِهِ الظافر قبْل مجيئه، إلى معجزاتِ مولدِه، وطفولتهِ وزواجِه من خديجة، إلـى معجزاتِ جبريل ساعي البريد النبوي الأمين، الذي استمر على اتّصالٍ دائم مع النبـي طيلـةَ ثلاثٍ وعشرين سنة، إلى معجزةِ اشتراكِ خديجة بتفسير الرؤى والأحلام وبتأكّدها من الوحي ينزلُ على زوجها، إلى معجزةِ تنقّل خديجة فيما بين بعلِها وابن عمهـا القـس ورقـة، إلـى معجزاتِ الوحي ينصب على النبي فتتغير الجن والشياطين لِهول ما يسمعون فإذا الواحِد منهم يتسمع ويقول لأخيه : « انّا سمِعنَا قرآنا عجبا » (٧٢ / ١) ...

لقد تفتّحت أبواب السماء، ونشطتِ الملائكةُ تسعى فيما بـين ا ومكّـة، وجنـد ا يحرسون طريقَ جبريل على الصفّين، وهو يحملُ إلى محمد أعظم هديةٍ مـن السـماء إلـى الأرض، ألاَ وهي كلام ا . واستمر جبريلُ محظوظًا بهذه الرسالة، ويتشوفُ على خلْـقِ ا أجمعين. ومِن حظِ جبريل العظيم ألا يسلم الهديةَ دفعةً واحدة، لئلا تنتهي مهمتُه سريعاً، بـل راح يقسطُ الآياتِ، واحدةً فواحدة، لتطولَ مدةُ تنقّله السعيدِ فيما بين ا والنبي، أو لأن جبريلَ استلذ دفء بيتِ النبي، أو أيضا لأنّه سئِم من البطالةِ التي طالَتْ مدتُها أكثر من ستّمائة سنة...

وبعد خمسة عشر جيلاً ما الذي حدثَ لجبريل! ألم يعد إلينا نحن المساكين! ألم يسـئم من تسابيح رفاقِه الأطهار! ألا يعود ليرى ماذ صار برسالته النبوية! ألا تلذ له العـودةُ إلـى الأرض، وقد أصبح كلُ شيء فيها جميلاً، منظماً، كاملاً، بتلك الآياتِ التي نزلَها قديما إلينـا! أليس عنده شيء جديد يريد إرساله إلينا! ألعل ا لم يعد يثقُ به! أو لعلّه خان ا َ وحرفَ فيما نزلَه علينا منذ مدة! لماذا اختفَى صديقُ الأرض القديم! ما معنى هذا الاختفاء السري، ونحـن بأمس الحاجة إليه!

ألم ير جبريلُ في كتابِ ا فسادا! وانّه يقع في أيدٍ غير مطهرة، وهو قد حذرنا منـذ البدءِ بأن « لا يمسه الاّ المطهرون » (٥٦ / ٧٩)! أليس من رسالةٍ جديدة تُزيلُ الفساد، أو تُعطينا من عندِ ا شيئًا جديداً! أم ليس عند ا ، بعد القرآن، شيء جديد! هل حصر ا كلّ ما عنده بين دفّتي الكتاب المجيد! أم عنده أشياء ضن بها علينا! هل في القرآن كلُ ما يكفينا إلى الأجيال القادمة! أم أن عند ا مفاجأةً قرآنيةَ أخرى، قد تَنزلُ علينا غدا أو بعد غـد! ويعـود جبريل إلى مسعاه القديم في نقل الكلامِ والهروبِ من السماء إلى أحضان من في الأرض! عل جبريل يحظى بمحمدي آخر! فلماذا نوصد بوجهه الأبواب! ونمنع على ا القدير وحياً جديداً يستطيعه!

أقول لكم : لا تيأسوا! سيعود جبريل، ولكن بلا جناحين، ليمكث بيننا، ويحـلّ فينـا، ويهتم بكل واحد منّا. وهكذا تعم رسالتُه، ويرفرف وحيه، فيكون كلُ شعب ا أنبياء، أي حظّ يكون لنا إن كان هذا مطلبنا! ألا فلينعم المؤمنون بحب جديد. ولتأخذ المعجزة مجراها فـي عالم المعجزات!

****

الفصل الثاني

معجزة « أمية » محمد



أولاً ـ القلم العربي

ثانياً ـ القراءة والكتابة في مكة

ثالثاً ـ وسائل الكتابة

رابعاً ـ أمية الرسول

مقدمة الفصل

في إيمان المسلمين أن النبي محمدا كان « أمياً » ، لا يعرف الكتابةَ ولا القراءة، وان مكة كانت غارقةً في « جاهليةٍ » متمكّنةٍ بعقول أهليها. واستدلّوا على رأيهم في « أمية » محمد بما جاء في القرآن عن « الرسول النبي الأمي » [(١)] ، واستدلّوا على « جاهليةِ مكّة بحديثٍ نبوي جاء فيه : « إنا أمةٌ أميةٌ، لا نَكتُب ولا نَحسب » [(٢)] .

وتمسك المسلمون مذْهولين بهذه الحقيقةِ، وذلك قَصد الدلالة على معجزةِ النبوة، وجديةِ الإسلام. وفي ظنّهم أن اختيار ا ِ محمداً « أميا لا يقرأ ولا يكتب يضيفُ إلى اذعان الناس له وإيمانِهم برسالته سببا » [(٣)] ، علما بأن ا كان باستطاعتهِ اختيار نبي عالِمٍ مثقّفٍ، إذ « لم يكن اختيار محمدٍ قارئًا وكاتباً شيئًا يعِز على السماء، ولكنّه كان شيئًا إن تَم يهون من حجةِ السماءِ في نفوسِ الناس » [(٤)] .

وبسبب الاعتقاد بـ « أمية » محمد، أصبح كلُّ العرب فيما قبل الإسلام أميين جاهليين. ولم يكن الأمر كذلك لولا « عاطفة دينية - عندهم - شددوا - بها - في أمية العرب، فجعلوهم أميين، لإظهار معجزة

----
(١) سورة الأعراف ٧ / ١٥٧ و ١٥٨.
(٢) البيان والتبيين ٣ / ٢٨ ، الصاحبي ٨ / ١١ ، تفسير القرطبي ٢ / ٥ ، لسان العرب ١٢ / ٣٤ (أمم)، تاج العروس ٨ / ١٩١ (أمم) ...
(٣) إبراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٥١.
(٤) نفس المرجع.

للرسول ... في انّه ظهر بالنبوة في أمة أمية، وجاء من ا بأحسن بيان، وهي حجة له علـى أهل الكتاب والمشركين » [5] .

ان « جاهلية » مكّة و « أميةَ » محمد هما أمران مستحكّمان في الدين : فكلّما كـان في الدين معجزاتٌ وعجائب، كان نمو الدين وانتشاره أسرع. ومن جملةِ عجائبِ ا في خَلِقه أَن ينْبِتَ « العِلم » حيثُ « الأمية » ، وأَن يشِع « المعـرفةَ » حيثُ « الجهلُ » ، وأن يرسخَ « الإيمان » حيثُ « الكفر » . وفي الإسلام كان ذلك : لقد قرر المتدينون تدخّلَ ا ِ المباشَـر لصنع عجائب في الدين. قرروا « جهلَ مكّة، وكُفْر أهلِها، وشِـركهم، وعبـادتهم الأوثـان؛ واخترعوا، اكراما لـ « فتح مكّة » ، ثلاثمائة وخمسة وستين صنماً، حطّمهـا محمـد يـوم النصر المبين تحطيماً. وقرروا « أميةَ » محمد، اكراما لبلاغة القـرآن وفصـاحتهِ وبيانِـه المعجز، وذلك ليقولوا بأن ا َ سبحانه هو صاحب الكتاب ومؤلفُه وكاتبه ومنزلُـه وضـامِنُه وقارئُه وحامِيه ...

ونحن نسأل : هل ما قرره المتدينون هو الواقع والحقيقة ؟ لننظر فيما إذا كانت مكّـة على « الجهل » أم « العلم » ، وفيما إذا كان محمد على « الأمية » أم بعض الثقافة! ولنبحث في الخطّ العربي الذي كتب به القرآن، وفي انتشار الكتابة والقراءة في مكّة، وفـي أسـاليب الكتابة، وفي الأدلّة على معنى « الأمية » المنسوبة إلى النبي.

******

---

(5) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٨ / ١٤٢ ؛ إلا إن صاحب الكتاب لا يعتقـد بأميـة محمد، ولكنه ينقل هنا رأى معظم المسلمين في القديم والحديث. من جملـة هـؤلاء : الشـيخ صـبحي الصالح، في كتابه « مباحث علوم القرآن » ، ص ١٨٦، حاشية ٢، والابيارى، في « تاريخ القـرآن »، ص ٤٧ ـ ٥٥ ، والزنجاني « تاريخ القرآن » ص ٣٥ ...

أولاً ـ القلم العربي

من « الثابتِ علميا، وبصورةٍ لا تقبلُ المراء، أن الخط العربي الذي كان مستعملاً في بيئة النبي وعصره، يمتد وجوده إلى عشرات السنين قبل بعثتهِ، كما أنّه متطور عن أشـكال لخطوطٍ أخرى، كان يستعمِلها عرب الشام واليمن. وكذلك من الثابتِ علمياً أن ذلك الخطَ كان منتشِرا بمقياسٍ غير ضيقٍ في بلاد الشام واليمن والحجاز والعراق، حتى كان يشملُ بدو هذه البلاد، ولو بمقياسٍ ضيق. وما جاء في بعضِ الكتبِ العربيةِ عن نشأةِ الخط العربي ووصولهِ إلى الحجاز وضيق انتشاره فيه ضِيقًا شديداً، هو تخليطَ لا يتحمل نقداً » [١] .

ويتبين من نصوص جاهلية أن العرب كانوا يدونون، قبلَ الإسلام، بخطِ « المِسنَد » ، أو بـ « قلَمِ حِمير » ، الذي جِيء به من ناحيةِ اليمن مع القوافل التجارية التي كانتْ تجـوب الجزيرةَ العربية، تبتدِئُ باليمن، وتمر بمكة، وتتوزع على بلادِ الشـام وفلسـطين والعـراق والساحل الفينيقي. وكانت مكةُ محط رحالِها، وبيتَ استراحتِها، وانتعاشِها لتكمـل اجتيازهـا العنيد عبر الصحارى الملتهبة.

وبحركة التجارة هذه دخلَ مكةَ « قلَم » آخر، « أسهلُ وألين في الكتابـة مـن القلـم المِسنَد، أخذوه من القلمِ النبطي المتأخر، وذلك قبيل الإسلام » [٢] .

---

(١) محمد عزة دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥ ، وهو يعتمد على « كيتاني » .
(٢) الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨ / ١٥٢ ...

وكذلك أيضا انتشر القلم الآرمي بواسطة المبشّرين بالنصرانية الذين دخلوا جزيـرةَ العـرب وانتشروا في مختلفِ الأماكن، ونشروا معهم دينَهم ولغتَهم وقلمهم.

فمن « القلم المسند » ومشتقاتِه، و « القلمِ النبطي » وتفرعاتِه إلى « القلم الآرمي » ، و « الاسترانجيلي » ، تكون « القلم العربي » الذي كُتب به القرآن. ويبدو أن قبيلـةَ قـريش تعلّمتِ الكتابةَ من الحِيرةِ والأنْبار، حيثُ راجتْ تجارتُها، وعقدتْ مـع قبائِلهـا المعاهـداتِ الأمنية[٣] .

****

ومهما كان الأمر من تفرع الخطوط فان آثارا كثيرةً تدلّنا على وجود الخطِ العربي في مكة والحجاز، في عصور ما قبلَ الإسلام. فهناك « أثر كتابةٍ عثِر عليهـا مدونـةً باللهجـةِ العربيةِ الشمالية القريبة من لَهجةِ القرآن، وكتبتْ بالقلمِ النبطي المتـأخّر، وبأسـلوبٍ متـأثّرٍ بالآرمية » [٤] ، ونجدها في أُم الجمال في الحرةِ الشرقية من جبل الدروز، على قبـر امـرئ القَيس الأول ابن عمرو ملكِ العرب من سنة ٣٢٨ ميلادية.

ونص آخر في خرائب زبد بين قنّسرين ونهر الفرات جنوبي شرقي حلـب، كتبـت بثلاث لغات : اليونانية والسريانية والعربية، ويرجع تاريخها إلى سنة ٦١٢ للميلاد[٥] .

----

(٣) انظر : ابن رستة، الاعلاق، ص ١٩٢ ، لسان العرب ١٢ / ٣٤ (أمم)، جواد علي، المفصـل...، ٨ / ١٦٩ ، العقد الفريد ٣ / ٣٠٢ ...

(٤) جواد علي، المفصل ... ، ٨ / ١٧٦ حيث تجد المراجع والنص.

(٥) جواد علي، نفس المرجع ٨ : ١٧٦ ، حيث النص والمراجع. انظر بلاشير، في « مدخل إلى القرآن » ، ص ٤ .

ونص آخر يسمى بـ « نقش حران » في المنطقة الشمالية من جبل الـدروز، فـوق باب كنيسة، ويعود تاريخه إلى سنة ٥٦٨ للميلاد. وهو باللغتين اليونانية والعربية[٦] .

وهناك نصوص أخرى كثيرة ترى اثباتًا لها في « المفصل في تاريخ العـرب قبـل الإسلام » ، الجزء الثامن، ص ١٤٤ ـ ٢٢٠ ، والجـزء الأول، ١٠٧ ـ ١٣٩ ، للـدكتور جواد علي؛ وكتاب « عصر النبي وبيئته قبل البعثـة » ، ص ٦٠ ـ ٧٠ ، ٣٨٨ ـ ٥٢٨ ، لمحمد دروزة.

و « يلاحظ ـ الدكتور جواد علي ـ ان الذين كتبوا بالقلم العربي الشمالي، الذي أُخذ منه قلم مكة، هم مِن العربِ النَصارى في الغالب، فأهل الأنبار، والحِيرة، وعـين الشـمس، ودومةِ الجنْدل، وبلاد الشام، كانوا من النصارى » [٧] .

وفي رأي المستشرق « ويل » Weil أن نظرية اشتقاق الخطوط تشير « بكل جـلاء إلى اشتقاق القلم العربي من القلم النبطي المتفرع عن الخط الأرامي » [٨] .

ولذلك فان ما ذكره المؤرخون من « ان الحروف العربية لم تخترع الا قبيل البعثـة النبوية ... هو قول جزاف لا يثبت على التمحيص والتدبر » [٩] .

---

(٦) جواد علي، المفصل ... ، ٨ / ١٧٧ ، حيث النص والمراجع.
(٧) نفس المرجع، ٨ / ١٧٨ ـ ١٧٩.
(٨) Weil, Encyclopédie de l'Islam / 68
(٩) محمد عزة دروزة، عصر النبي، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ ، حيث يتوسع في ذكر اكتشاف آلاف النقوش فـي أعالي والحجاز والمنطقة العربية، ويذكر جملة مؤرخين عرب جهلوا الحقيقة وأضلّوا سواهم ...

والجدير بالذكر « ان البيئة الحجازية ... وخاصة مكّة والمدينة، كانت بيئةُ تجاريـة، متّصلةً بالبلادِ المجاورة التي كانت تتمتّع بحظ غير يسير من الحضارة والثقافة. وكان فيهـا جالياتٌ كتابيةٌ نصرانية ويهودية نازحة من تلك البلاد، وكانت تتداولُ الكتب الدينيـة وغيـر الدينية قراءة وكتابة. فلا يعقلُ أن يظل العرب أهلُ هذه البيئة غافلين عن اقتباسٍ وسيلةٍ مـن أشد الوسائل ضرورة إلى الأشغال التجارية، ومن أعظم مظاهر الحضارة التي اقتبسوا منهـا من البلاد المجاورة الشيء الكثير » [١٠].

ولكن مما يؤسف له حقاً « إنّنا لا نملك اليوم كتابة واحدة من الكتابات المدونة في أيام الرسول. ولا نملك أي نسخة من نسخ القرآن أو من صحفه المدونة في أيامه. فلا نملك اليوم نسخة حفصة للقرآن الكريم، ولا نسخة عثمان بن عفّان، ولا النسخ التي دونت بأمره لتـوزع على الأمصار، ولا أية نسخ أخرى من النسخ التي دونها الصحابة لأنفسهم، ولا نملك النسـخ الأصلية للمراسلات التي كان يأمر الرسول بتدوينها لترسل إلى الملـوك أو سـادات القبائـل والأمراء » [١١].

وقد تكون صرخة مدوية، نطلقها، مع بلاشير[١٢]، بدعوة المسلمين والدول الإسلامية الغنية، بأن يبذلوا جهدهم في البحث عن آثار النبي وصحابتهِ وكتابه العزيز. لعـلّ ا يمـن علينا بنسخة من يد الرسول تتبارك بها رمال مكة والصحراء، والمسلمون بعجزهم يبـاركون الجهل.

****

----

(١٠) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥ ـ ٧٦.
(١١) جواد علي، المفصل ... ، ٨ / ١٨٣.
(١٢) Régis Blachère, Introduction au Coran, 196.

ثانياً ـ القراءة والكتابة في مكة

إن حديثَ « إنا أمةٌ أميةٌ لا نكتب ولا نحسب » تعارضه أحـاديثٌ نبوية أخرى مثـل « قريشٌ أهلُ ا ، وهم الكتَبةُ الحسبةُ » [١] ومثل « حقُ الوالِدِ على ولَـدِه أن يعلّمـه الكتابـةَ والسباحةَ والرماية ... » ، وشبيه به : « حقّ الوالد على ولده أن يحسن اسمه، ويزوجـه إذا أدرك، ويعلّمه الكتاب » [٢] .

ومع هذا، لا نقفَ، لإثباتِ القراءةِ والكتابةِ في مكـة، علـى مثـل هـذه الأحاديـث المتضاربة، مهما كان انتسابها إلى النبي صحيحاً. فان التاريخَ الموثوقَ والحفريـاتِ الأثريـةَ والقرآن نفسه هي لدينا خير دليل. فلا الأحاديثُ النبوية ولا رواياتُ الصحابة تُمكن أن تضعنا على خطِ العلم القويم، لأن ما كتَبه أصحاب الرواياتِ والمحدثون كان في خدمة الـدفاعِ عـن الدين أكثر مما كان في خدمةِ العلمِ والحقيقةِ والواقعِ التاريخي.

ففي القرآن مثلاً آياتٌ كثيرةٌ « تدل دلالةً صريحةً على أن القـراءة والكتابـةَ كانتـا منتشرتَين في الكتابِيين بوجهٍ عام ... بمقياسٍ يصح أن يقال عنه انّه كان واسِعا بعض الشيء. وأنتَ إذْ تقرأُ ما جاء في الآيات المكّيةِ التي هي في الذين كانوا في مكّة مـن الكتـابيين ... يحصلُ

---

(١) الصولي، أدب الكتاب، ص ٢٨ ، حكمة الإشراق ، ص ٦٧.

(٢) الجامع الصغير، رقم ٣٧٤٢ و ٣٧٤٣ ، حكمة الإشراق، ص ٦٦ وما بعدها، وهي عـن أبـي هريـرة المحدث الثقة.

عندك ترجيح بأن أكثر الكتابيين في مكة كانوا يقرأون ويكتبون » [٣] .

ثم ان القرآن قد « احتوى آياتٍ عديدةً ذُكِرتْ فيها أدواتُ الكتابةِ والقراءة مِـن كتـبٍ وقرطاسٍ وورقٍ وصحفٍ وأقلامٍ ومِدادٍ وسجلات[٤] . وننبه على أن هذه الآيات جميعها مكّيةً، ومن تحصيل الحاصل أن نقولَ أن أهلَ مكةَ الذين كانوا أولَ من سـمِعوها كـانوا يفهمـون مدلولاتِها. ولقد وردتْ كلماتُ الكتابةِ ومشتقاتها في القرآن نحو ثلاثمائة مرة ونيـف، وكلمـة القراءة ومشتقاتها نحو تسعين مرة ونيف، وبأساليب متنوعة » [٥] .

وآية ٢٨٢ من سورة البقرة كغيرها، « تحتـوي أسـماء ورسـائل وأدوات القـراءة والكتابة، وتحتفي بالقراءة والكتابة هذه الحفاوة الكبيرة دليل راهن على أن العرب فـي بيئـة النبي وعصره قد عرفوا تلك الوسائل والأدوات، واستعملوها، وعلى أن القراءة والكتابة فيهم كانتا منتشرتين في نطاق غير ضيق. فكثرة الترديد تدلّ على الألفة، وهذه لا تكون إلا حيـث يكون المألوف ذائعاً ذيوعاً غير يسير » [٦] .

وبالإضافة إلى هذا التنويه بالقراءة والكتابة، نرى القرآن يحض التجار على تـدوين المعاملات التجارية نقداً وديناً وصغيرة وكبيرة ... ومن الأرجح أن محمداً لم يوجدها بنفسه، بل كانت موجودة قبله في اللغة العربية. ومن المعروف أن المجتمع المكّـي كـان مجتمعـاً تجارياً هاماً، يتّصل اتّصالاً حميماً ومستديماً بالبلاد المجاورة كالشـام وفلسـطين والعـراق ودولتي

----

(٣) انظر الآيـات : ٦ / ٢٠ و ١١٤ ، ٧ / ١٥٧ ، ١٠ / ٩٤ ، ٢٦ / ١٩٧ ، ١٦ / ٧٦ و ١٠٣ ، ٢٨ / ٥١ ـ ٥٢ ، ٤٢ / ١٠ ، ٤٦ / ١٠، ٢٥ / ٤ ـ ٥ ...
(٤) انظر : ٦ / ٧ و ٩١ ، ١٧ / ١٣ ـ ١٤ و ٩٣ ، ١٨ / ١٠٩ ، ٢١ / ١٠٤ ، ٣١ / ٢٧ ، ٥٢ / ١ ـ ٣ ، ٦٨ / ١ ـ ٢ ، ٧٤ / ٥٢ ، ٨٧ / ١٨ ، ٩٦ / ١ ـ ٤ ...
(٥) انظر : ١٠ / ٩٤ ، ٢٥ / ٥ ، ٢٦ / ١٩٨ ـ ١٩٩ ، ٢٩ / ٤٨ ، ٣٤ / ٤٤ ...

الفرس والروم. وهذه كانت تنعم بحظ من الثقافة كبير[٧] .

وبالإضافة إلى ذلك أيضا نرى في القرآن كلمات مستوردة يربو عددها على المئات، وهي مأخوذة عن اليونانية والسريانية والعبرية والحبشية والفارسية والنبطية ... وقد أثبت المسلمون الأقدمون هذه الكلمات وكتبوا فيها المجلّدات الطوال[٨] .

ثم إن القرآن احتوى الكثير من الألفاظ والأسماء المعربة، مما يدلّ على شيوعها واستعمالها عند أهل عصر النبي وبيئته. « هذه الأسماء جاءت في القرآن بصيغةٍ عربية فصحى، أي غير ما هي عليه في لغاتها الأصلية؛ وبعبارة أخرى انّها معربة » [٩] .

أضف إلى ذلك أيضا « إن النبي كان يتّصل بمختلف الطبقات والشخصيات المكية، ثم بمختلف الطبقات والشخصيات والقبائل التي كانت تَفِد على مكّة، في المواسم والأسواق، ويتحدثُ إليهم، ويتلو عليهم آياتِ القرآن، ويتفاهم معهم بلغتهِ التي هي لغة القرآن بطبيعة الحال » [١٠] .

ثم ان الذين آمنوا في بدء الدعوة ، لم يؤمنوا لأجل فصاحة القرآن اللغوية ومعجزته البيانية وبلاغتهِ الإعجازية، بقدر ما آمنوا لسببٍ آخر من الأسباب. وذلك لأن المؤمنين الأولين في مكّة آمنوا بالنبي قبل أن ينزل من القرآن شيء يذكر ـ هذا إذا سلّمنا بنظرية التنجيم كالمسلمين!

---

(٦) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٤٤٤ ، انظر : ٤٣٦ ـ ٤٤٥ ...

(٧) Lammens, La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 120…; Torrey, The commercial Theological Terms in the Koran ; v. Nöldeke, GdG, II, 24…

(٨) انظر : الراغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن، والسيوطي، الاتقان، فصل فيما وقع فيه بغير لغة العرب، وفي معرفة غريب القرآن، ١ / ١١٣ ـ ١٤١ .

وأيضا لو كانت لغة القرآن هي سبب إيمان المؤمنين لأجل بلاغتها وفصاحتها فلمـاذا بقي أكثر المكيين والحجازيين جاحدين! ألعلّهم لم يفهموا مضمونها! أم لأنهم فهموا وأنكـروا! والأرجح إنّهم أدركوا وفهموا وإلاّ ما معنى قول القرآن: « لقد بعثنا في كل أمة رسولاً »[11] ؟

******

لم يخْفَ على أئمةِ المفسرين كون لغةِ القرآن هي لغةُ أهل الحجاز كلهم، بكل ما فيها من بلاغةٍ وفصاحة : قال الطبرسي في مجمع البيان : « ان ا خاطب قوماً عقلاء فصحاء، قد بلغوا الغايةَ القصوى من الفصاحة، وتسنّموا الذروةَ العليا من البلاغة » . وقال الزمخشري في الكشّافِ : « إنّهم كانوا من صحةِ التمييز بين الصحيح والفاسد، والمعرفةِ بدقائق الأمـور وغوامضِ الأحوال والإصابةِ في التدبير والدهاءِ والفطنةِ بمنزل لا يدفَعون عنـه » . وقـال النيسابوري في تفسير ٢ / ٢٢، القائلة : « فلا تجعلوا ـِ أندادا وأنتم تعلمون » ، أي وأنـتم أهلُ العلمِ والمعرفة بدقائق الأمور وغوامضِ الأحوال. وهكذا كانت العرب خصوصاً قطـان الحرمِ من قريشٍ وكنَانَةٍ لا يشقُ غبارهم في الدهاءِ والفطنة » [12] .

وفي كتب السير خبر مشهور عن أسرى قريش الفقراء الذين قبض المسلمون علـيهم في معركة بدر، والذين لم يستطيعوا دفع الفدية عن أنفسهم، كُلفوا بتعليمِ بعضِ أطفال المسلمين القراءةَ والكتابة ...[13] . « فإذا كان فقراء أهل مكة يقرأون ويكتبون فأولى أن يكـون كـذلك أغنياؤُها

----

(٩) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٦٢ و ٦٨ ، ٤٢٩ ، ٤٦٥.
(١٠) نفس المرجع، ص ٦١.
(١١) سورة النحل ١٦ / ٣٦ ، انظر سورة يونس ١٠ / ٤٧ ...
(١٢) انظر هذه الأقوال في مراجعها، وفي عصر النبي ٤٣٢.
(١٣) طبقات ابن سعد ٢ / ١ ، وسائر كتب السير ...

وتجارهـا ونبهاؤهـا، وأن تكون القراءةُ والكتابةُ ممـا هـو مألوفٌ ومنتشر بنطـاقٍ غيـر ضيق » [١٤] .

وعند أهل الأخبار روايات عن جملة أسماء لمعوا فـي القـراءة والكتابـة والشـعر والقَصصِ والخطابةِ والوعظِ والأمثال وغير ذلك من أنواع الأدب. وفي كتاب « المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام » سرد واسع عن بعضهم، في الصفحات ١١٢ ـ ١٤٣ من الجزء الثامن. وفي ذلك ما يكفي للدلالة على العلم الكثير والمعارف الواسعة بالقراءة والكتابة في مكّة والحجاز.

******

بقي أن تكون آثار ما قبل الإسلام دليلاً على ما ورد في القرآن والأحاديـث وكتـب السِير. والحقيقة، كما قـال دروزة : « لقـد اكتُشِـفَتْ آلافُ النقـوشِ السـبئية والمعينيـة والحضرموتية والقتبانية والحِميرية في اليمن والثمودية واللحيانية في مناطق العـلا ومـدائن صالح في أعالي الحجاز والصفوية في منطقة الصفا في جبل حوران، فضلاً عـن النقـوش النبطية والتدمرية المكتشَفة في البلقاءِ وسيناء وتَدمر، وكثير منها يعود إلى القرون القريبة من عصر النبي، بل منها ما هو عائد لهذا العصر وبخاصة من النقوش الصفوية. وحروف هـذه النقوش خاصة مماثلةٌ للحروف العربية » [١٥] .

وفي « المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام » نموذجات عن آثار جاهلية كثيـرة، تشير كلّها إلى اتّساعِ نطاقِ المعرفة في مختلَفِ الأمكنة[١٦] .

---

(١٤) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥ ـ ٧٦.
(١٥) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩.
(١٦) انظر : جواد علي، ١ / ٤٢ ـ ٥٣ ، ٨ / ١٧٥ ـ ١٧٩.

من الواضح اذن، استناداً إلى انتشار الخط العربي فيما قبل الإسلام، وإلى كثرة الاثارات الجاهلية وتوزعها في مختلف مناطق الحجاز والجزيرة العربية، وإلى شمولية الكتابة والقراءة في مجتمع مكّة التجاري، وإلى نصوص القرآن التي تقرر، بمفرداتها ومصطلحاتها وتراكيبها واستعاراتها وتشابيهها، إن اللغةَ العربيةَ كانتْ مألوفةً ومفهومةً ومستَعملةً في بيئةِ النبي وعصرهِ بنطاقٍ واسع.

كل هذا الذي رأينا يقرر بوضوح معرفةَ المكين الواسعة بالقراءة والكتابة، فيما المذْهولُون بجدية النبوةِ والدين يرون مكّةَ على جهلٍ وغباوة، تغرقُ في « جاهلية » دكناء. لهذا نقول، مع جواد علي : « لا نتمكّن من الاطمئنان إلى هذه الأخبار والروايات المدونة في الموارد الإسلامية عن الجاهلية » [١٧] .

وعدم الاطمئنان إليهم أمر يدعو إلى التساؤل عن الأسباب : هل يقصد المسلمون طمس أخبار الجاهلية ؟ هل يريدون القولَ بأن الإسلام كان أول من دعا إلى العلمِ والمعرفةِ والكتابةِ والحسابةِ والقراءةِ والتدوين والتدريس!؟ هل يقصدون إظهار جديةِ الإسلامِ فقالوا بجاهليةِ ما قبله، كمن يظهر الضوء في ليلٍ بهيم ؟

في الحقيقةِ يخشَى أن يكون في الإسلامِ رغبةٌ في استئصال كل ما يمت إلى أيامِ الجاهلية بصلة. ويخشى أن يكون الحديثُ القائلُ : بأن « الإسلام يهدم ما قبله » [١٨] حديثًا ثابِتًا مسنَدا إلى النبي!؟ وهو على ما يبدو صحيح الإسنادِ لثبوتهِ عند « مسلم » أحدِ المحدثين الثقاة !!!

----

(١٧) المفصل ... ، ١ / ٧٣.
(١٨) صحيح مسلم ١ / ٧٧ ـ ٧٨.

ثالثاً ـ وسائل الكتابة

من مسلّمات المسلمين أن النبي اتّخذوا كُتّـاباً للوحي، وأمرهم بكتـابةِ كل ما ينـزلُ من القرآن على « الرِقَاعِ » [١] « واللِخَافِ » و « العسبِ » و « الأَكْتَافِ » و « الأَقْتَـابِ » و « قِطَعِ الأَدِيم » [٢] . وقد جاء على لسان زيد بن ثابت أشهر من كَتَب للنبي قوله : « كنّـا عند رسول ا صلّى ا عليه وسلّم نؤلف القرآن من الرقاع » [٣] .

قد تكون هذه الوسائل البدائية صحيحة، لندرةِ الورق والشجر في الجزيـرة العربيـة، ولبهاظَةِ ثَمنِهِ في حال استيراده من البلاد المجاورة. ولكن، إذا كانتِ الكتابةُ والقراءةُ مألوفـةً في مكة والحجاز، كما رأينا، فلا بد أن تكون وسائلُ الكتابةِ هي الأخـرى مألوفـةً وسـهلةَ الاستعمال. وخير ما يرجح هذا القولَ ما ورد في القرآن من إشاراتٍ إلى هذه الوسائل.

* يذكر القرآن أكثر من مرة كلمةَ « قرطاس » و « قراطيس » ، مما يدلّ على أنّها كانت معروفةً ومألوفةً كوسيلةٍ للكتابة والتدوين. جاء في القرآن : « ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم ... » [٤] ، و « قل من

---

(١) الرقاع، جمع رقعة، قد تكون من جلد أو ورق أو كاغد ...

(٢) اللخاف، لخفة وهي الحجارة الدقاق أو صفائح الحجارة، والعسب، جمع عسيب وهـو جريـد النخـل. والأكتاف، أي عظام أكتاف الجمال وغيرها من الحيوان. الاقتاب، جمع قتب وهو الخشب الذي يوضـع على ظهر البعير ليركَّب عليه. وقطع الأديم، أي الجلد. ...

أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا... » [٥]
هذان النصان يلهمان « ان الكتابة على القرطاس وكون الكتب مؤلّفة من قراطيس هو الشيء المألوف الذي لم يكن لِيتَصور غيره » [٦].

وفي لسان العرب أن « القرطاس معروفٌ، يتخذ من بردي يكون بمصـر ... وهـو الصحيفة الثابتة التي يكتب فيها » [٧]. وقد ورد ذكره على لسان كثير من شعراء مـا قبـل الإسلام وبالمعنى نفسه.

* ويحتوى القرآن على كلمة « الصحف » أكثر من مرة (٨ مرات) في معـرض الإشارة إلى القرآن والكتبِ السماوية. جاء فيه : « في صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة » [٨]، « ان هذا لفي الصحف الأولى صحفِ ابراهيم وموسى[٩] ، « بل يريد كل امرئٍ منهم ان يؤتَى صحفًا منشرة » [١٠] ... الخ.

« لم يذكر أحد أن كلمة الصحيفة كانت تطلق على تلك الوسائل البدائية، وانّما كانـت تطلق على ما كان معروفاً من وسائل الكتابة التي تُحملُ بسهولة، وتُطوى بسـهولة، ويجمـع بعضها إلى بعض بسهولة. ولعلّ في آية المدثر قرينةً على أن الصحفَ كانت تُنْشَر وتُطـوى، وهو ما لا يمكن أن يتّصفَ به الا وسائلُ الكتابةِ الليِنةِ كالقماش وورق القماش وورق الحرير والرقوق الناعمةِ

---

(٣) انظر : الاتقان ١ / ٩٩ ، البرهان ١ / ٢٣٧. ومن المعاصرين من يأخذ بنظرية هذه الوسائل البدائية : صبحي الصالح، مباحث ... ، ص ٦٩ ، الزنجاني، تاريخ القرآن، ص ٤٤ ـ ٤٩ ، الابياري، تـاريخ القرآن، ص ٨٦ ، شحاته، تاريخ القرآن والتفسير، ص ٢٥ و ٣٦ ، الرافعي، اعجاز القرآن، ص ٣٤ ـ ٣٧ وغيرهم الكثير ...
(٤) سورة الانعام ٦ / ٧.
(٥) سورة الانعام ٦ / ٩١.
(٦) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٧.
(٧) لسان العرب، ٦ / ١٧٢ (مادة : قرطاس).

المسواة الخ » [١١] .

* وفي قول القرآن : « يوم نَطوي السماء كطَي السِجِل للكتبِ » [١٢] « دليل على أن طَي الورق، أو ما كان يقوم مقامه من وسائل الكتابة اللينةِ ليكون سِجِلاً للكتابة والتدوين كان مألوفًا شائعا. وهـذا لن يكون الاّ حيثُ تكون الكتب والقراطيس والوسـائل الكتابيـة اللينـة الأخرى ... » [١٣] .

* وحين يتكلّم القرآن على « القَلَم » [١٤] وعلى ا « الذي علّم بـالقلم » [١٥] والـذي يقسِم بـ « القَلَم وما يسطرون » [١٦] ، وعلى « شجرةٍ أقلام » [١٧] ... فانّه يشير إلى أن هذه الوسيلةَ للكتابة كانتْ موجودةً في المفردات الجاهلية؛ وهي، بحسب علوم اللغة، مأخوذةٌ عـن السريانية التي أخذتْها بدورها عن اليونانية.

* وفي القرآن أيضا ذكر لـ « المداد » [١٨] وهي المـادة المسـتخرجة مـن الفحـم المستعملة للكتابة؛ وذكر لـ « الدواة » أو « المحبرة » ، الأداة التي تحفـظ الحبـر. ومـن المفسرين من رأي في آية « ن والقلم » [١٩] معنى الدواة والقلم[٢٠] .

---

(٨) سورة عبس ٨٠ / ١٣ ـ ١٤ ، انظر ٢٠ / ١٣٣ ، ٩٨ / ٢ ...
(٩) سورة الأعلى ٨٧ / ١٨ ـ ١٩.
(١٠) سورة المدثر ٧٤ / ٥٢.
(١١) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٨.
(١٢) سورة الانعام ٦ / ١٠٤.
(١٣) محمد دروزة، نفس المرجع.
(١٤) ترد في القرآن ٤ مرات، مفردة وجمعاً.
(١٥) سورة العلق ٩٦ / ٤.
(١٦) سورة القلم ٦٨ / ١.
(١٧) سورة لقمان ٣١ / ٢٧.
(١٨) سورة الكهف ١٨ / ١٠٩.

* وفي القرآن أيضا ذكر للرق في قوله : « والطور. وكتـابٍ مسـطور. فـي رق منشورٍ » [٢١] . والرق هو جِلْد رقيق، « وقد اشتهرتْ جملةُ مواضع في الحجاز وفي الـيمن بترقيق الجلد ودباغته ... وأجوده هو المعمول مِن جلد الغزال. وذُكِر أن الصـحابةَ أجمعـوا على كتابةِ القرآن في الرقّ، لِتَيسرِهِ عندهم، ولطول بقاءِ الكتابة فيه » [٢٢] . ويبدو أن شعراء ما قبل الإسلام كانوا يكتبون عليه بكثرة[٢٣] ...

******

يتحصل من كل هذا أن « بيئةً هذه صِلاتُها بالبيئات المجاورة المتمدنة التي تتيسر فيها وسائلُ الكتابة والقراءةِ المألوفةِ على تنوعها، وفيها كثيرون من أهل هـذه البيئـات يقـرأون ويكتبون ويتداولون الكتب، وحركتها التجارية قوية واسعة، وقد احتوى القرآن من أوصـافِ حياتها، ومعايِشها، وحضارتِها، ووسائِلها ما فيه الدلالةُ الوافيةُ على أنها هي أيضا كانتْ على درجةٍ غير يسيرة من الحضارةِ ووسائِلها، والكتابةِ والقراءة فيها منتشرتان بمقياس غير ضيق لا يعقل في حال أن لا يكون فيها وسائل مدنية للكتابة وأن لا يوجد ما يدون عليه القـرآن الاّ ألواح العِظَامِ ورقائق الحجارة وأضلاع النخيل وقِطَعِ الخَشَب » [٢٤] ...

----
(١٩) سورة القلم ٦٨ / ١.
(٢٠) لسان العرب ١٣ / ٤٢٧ ، الفيروزبادى، تنوير المقياس ... ص ٤٥١.
(٢١) سورة الطور ٥٢ / ٢ ـ ٣.
(٢٢) جواد علي، المفصل ... ٨ / ٢٦٢ ـ ٢٦٣.
(٢٣) انظر صبح الأعشى ٢ / ٤٧٥.
(٢٤) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٦ ـ ٧٧.

ومما يرجح كتابة القرآن على وسائل حضارية لينة كالورق والقماش وما أشـبه مـا ذكره البخاري وأهلُ الأخبار عن إحراق عثمان للمصاحفِ أو تمزيقِها. والوسائل البدائيـة لا تُحرق ولا تُمزق بالسهولةِ التي أرادها عثمان.

ومن الأرجح أيضا ألاّ تكون هذه الوسائلُ البدائية يحمِلُها كَتَبَةُ الوحي، ويتبعون النبي أينما حلّ ورحل، ليسجلوا ما ينزل عليهِ من آيات ... ومن المعروف أن النبي كان في بـدء بعثته يدعو الناس بِخَفَاءٍ وخفر وبعضِ السرية ... وليس من الممكن أن يحمِلَ كتّاب الـوحي أحمالاً من الألواحِ والعظامِ والحجارة ليكتبوا عليها، وهم مع النبي على سـفَرٍ دائـمٍ وربمـا مفاجئ!

وبالنتيجة، « ان ما روي مِن أَن القرآن كان يدون على قِطَعٍ عظِيمـةِ الحجـمِ ثقيلـةِ الوزن، صعبةِ الحمل والحفظِ والترتيبِ، كأضلاعِ النخيل، وأكتافِ العظامِ، ورقـاقِ الحجـارةِ والخشب، لا يمكن أن يكون هو الواقع على اطلاقه ... » [٢٥] .

وإذا تمسك المسلمون المتدينون بهذه الوسائل البدائية لكتابةِ القرآن فان لهم عند محمد صبيح جوابا فيه بعض خفّةِ الروح. يقول : « كتابةُ القرآن المكي على هذه الأدواتِ الخَشِـنَةِ كان مِصحفًا يحتاج إلى عشرين بعِيرا لِحملهِ. ولم نعلم مِن أنباءِ الهجرةِ أَن قافلةً من الأحجار فَرتْ قبلَ النبي، أو مع النبي، ومعها هذا الحِملُ الغريب » [٢٦] .

---

(٢٥) محمد دروزة، القرآن المجيدن ص ٧٥.
(٢٦) محمد صبيح، بحث جديد عن القرآن، ص ٨٧ ـ ٨٨.

****

الذي يهمنا من كل ما تقدم قوله، هو إن مكة لم تكن في « جاهلية » وغبـاوة، كمـا يطمئن إليه المسلمون. فتلك المدينة المنفتحة على اليمن ذاتِ اليمن والخيرات جنوبا، وعلـى بلادِ الشام ودولتَي الرومِ والفرس شمالاً، وعلى فلسطين مهدِ النبؤاتِ والأنبياءِ والتوحيدِ غربا، وعلى بلادِ ما بين النهرين ومهدِ الحضارات القديمة شرقًا ... هذه المدينة التي يحاصِرها العِلم والحضارةُ من كل جهة، لا يمكن أن تبقَى غريبةً عنه، تتخبطُ في الجهل والغَباوة.

ولئن كان مقصود المتدينين انذهالهم أمام فصاحةِ القرآن وبلاغتهِ، فان ا َ لا يعجِـزه خَلقَ مثل هذه الفصاحةِ في عالمٍ فصيح. ولن يكون شأن النبي أعظم في حال إثبـاتِ الجهـل والكفر والغباوةِ حواليه من أن نجعله ينعم في مجتمع فيه من الـوعي مـا يكفـي لمجادلتـه ومقارعته.

وما اتّهام الكافرين لمحمد بأنّه افترى القرآن افتراء إلاّ لأنّهم « رأوا أن القرآن، فـي مادتهِ وتراكيبهِ، وفنونهِ اللفظية، انما هو مِثْلُ تراكيبهم ومادتِهم وفنونهم اللفظية، وان هذا فـي متناولِهم » [٢٧] . وما تحدى النبي بأن يأتي الناس بمِثْل ما أتى إلاّ « اعترافٌ واضِح بان لغةَ القرآن في مادتِه واسلوبهِ ونُظُمهِ وفنونهِ اللغوية، كان مما يدخلُ في متناول العـربِ الاتيـان بمثلِهِ، لو لم يصرفْهم ا ُ عن ذلك » [٢٨] .

****

----
(٢٧) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٤٠٠ ... انظر آيات الافتراء في القرآن.
(٢٨) نفس المرجع، ص ٤٠١ ... انظر آيات التحدى في القرآن.

رابعاً ـ أمية الرسول

إن لم تسلم مكةُ من تهمةِ الجهل والغبـاوة، فمحمد، وهـو منهـا، لم يسلم من تهمـةِ « الأميةِ » وجهلهِ القراءةَ والكتابة. و « على ذلك أجمع المسلمون » [١] . وهم، بما أجمعـوا عليه، مذهولون؛ وقصدهم، بذهولهـم، واضح، وهـو التثبت من أن القرآن « كله من عنـد ربنا » [٢] ، وليس لمحمد فيه صنعة. نزله ا ُ على قلبهِ تنزيلاً، وأوحاه إليه وحيـا والهامـا، وبلّغه اياه منجماً ...

ومعتَمد إجماعِ المسلمين آيتان في القرآن : كلتاهما تصفُ محمدا بـ « الرسول النبي الأمي » [٣] . والأمية، برأي المسلمين قاطبةً هي الجهل بالقراءة والكتابة، و « الأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب » [٤] ، وهو « العيي الجِلْفِ الجافي القليل الكلام. قيل له أمي لأنه على ما ولدتْه أمه عليه من قلّةِ الكلام وعجمةِ اللسان » [٥] . والأميون، في أحسن حال، هـم الذين كانتِ الكتابة فيهم عزيزةً عديمة [٦] . والرسول أمي أيضا لنسبته

----

(١) الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨ / ٩٢.
(٢) سورة آل عمران ٣ / ٧.
(٣) سورة الأعراف ٧ / ١٥٧ ، و ١٥٨.
(٤) الراغب الاصبهاني، المفردات في غريب القرآن ٢٢ ، وجميع مفسري القرآن لسورة الأعراف، أمثال : الزمخشري والبيضاوي والنسفي والقرطبي والطبري والخازن وابن عباس والنيسـابوري والطبرسـي والسيوطي ...
(٥) لسان العرب ١٢ / ٣٤ (مادة : أمم).
(٦) تاج العروس ٨ / ١٩١ (مادة : أمم).

إلى « أم القرى » ، أي مكّة، وذلك لجهله وجهلها على السواء[٧] .

لقد عالجنا في كتابٍ « قس ونبي. بحث في نشأة الإسلام » معنى الأميـة، وأعطينـا الأدلّة على معرفة محمد بالقراءة والكتابة من القرآن نفسه، ومن تربية محمد الدينية على يـد القس ورقة ابن عم زوجته خديجة، ومن اطلاع النبي على « الإنجيل العبراني » الذي كـان القس ينقله إلى العربية بحضور محمد[٨] . أما الآن فلا بد من اثبات ذلك بما ورد في الحديث النبوي وكتب السيرة :

جاء في صلح الحديبية أن الرسول « هو الذي كتب الكتاب بيده الشريفة، وهو ما وقع في البخاري » [٩] . وجاء في سيرة ابن هشام : « فبينا رسول ا صلّى ا عليه وسلّم يكْتُب الكتاب هو وسهيل » [١٠] . وجاء في البخاري : « وأخذَ رسولُ اِ (ص) الكتاب لِيكْتُـب، فَكَتَب : هذا ما قاضى عليه محمد » [١١] . وفي آخر حياته « لما اشتد وجعه قـال : ائتـوني بالدواةِ والكتبِ، أَكْتُب لكم كتَابا لا تضلّون معه بعدِي أبداً » [١٢] . وفي حديث أبـي بكـر أن رسول ا « دعا في مرضِهِ بدواةٍ ومِزبرٍ (قلم) فَكَتَب اسم الخليفـةِ بعـده » [١٣] . وذكـر الهمداني أن العرب كانتْ « تُسمي كل من قَرأَ الكتب أو كَتَب : صابِئًا؛ وكانتْ قريشٌ تسـمي النبي (ص) أيام يدعو الناس بمكة ويتلو القرآن : صابِئًا » [١٤] .

---

(٧) الراغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٢٢.
(٨) انظر كتابنا « قس ونبي » ص ٤٦ ـ ٥١.
(٩) الروض الانف ٢ / ٢٣٠ ، السيرة الحلبية ٣ / ٢٣ ...
(١٠) انظر ذلك نقلاً عن « نولدكه » في « تاريخ القرآن » جزء ١ ص ١٣.
(١١) الروض الانف ٢ / ٢٣٠، الطبري ٣ / ٨٠، الحلبية ١ / ٢٤.
(١٢) البلاذرى ١ / ٥٦٢، الطبري ٣ / ١٩٢ : بعض الخلاف في الرواية.
(١٣) تاج العروس ٣ / ٢٣١ (مادة : زبر).
(١٤) الهمداني، الاكليل ١ / ٤٤.

بسبب هذه الروايات المعارضة لموقف المسلمين واجماعهم على أميـة محمـد، رأى بعض « الماهرين بالتفسير وصياغةِ الكِلام أن النبي تعلم القراءةَ والكتابة بعد النبوة. جاء على لسان الحافظ بن حجر أن النبي كان أمياً وذلك « بسبب الاعجاز؛ ولما اشتهر الإسلام وأَمِـن الارتياب عرفَ حينئذ الكتابةَ » . وقال ابن أبي شيبه : « ما مات رسـول ا (ص) حتـى كَتَب وقرأ » . وقال مجالد وابن دحية والنيسابوري والباجي والبغوى : « إن معرفةَ الكتابـةَ بعد أميتِهِ لا تُنافِي المعجزة، بل هي معجزةٌ أخرى بعد معرفةِ أميته وتحقق معجزته » .

وقال الطبرسي : « فأما بعد النبوة فلا تعلق به بالريبة والتهمة، فيجوز أن يكون قـد تعلمها (أي الكتابة) من جبريل عليه السلام، بعد النبوة » [١٥] .

وعند بعض المفسرين إن رسولَ ا كتب مع عدم علمِهِ بالكتابةِ وتمييز الحروف[١٦] . وهذا أيضا معجزة[١٧] .

وفي شروح الباجي لهذا الخاط بالتفسير قوله : كل ما ورد في الحديث مـن قولـه : كَتَب، فمعناه أمر بالكتابة.

ولكنّـنا لحسن الحظ نجـد بعض المسلمين المتقدمين يفسرون كلـمةَ « الاميـّين » بـ « الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب » ، وذلك بمقابل « الذين أُوتُوا الكتاب من اليهودِ والنصارى » [١٨] . وفي تفسير القرطبي

---

(١٥) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ٨ / ٢٨٩.
(١٦) هذا الرأي للقاضي أبي جعفر السماني.
(١٧) تاج العروس ٨ / ١٩١ (مادة : أمم).
(١٨) الطبري في تفسيره على آية ٣ / ٢٠، ص ١٤٣ من الجزء الثالث، انظر : روح المعاني ٢١ / ١٧.

الذي نقل عن ابن عباس رأي جازم حسن قال : « الأميون العرب كلهم، من كَتَب منهم ومـن لم يكتب، لأنهم لم يكونوا أهلَ كتاب » [١٩] .

****

خاتمة الفصل

ان الإيمان بمعجزة أمية الرسول فيه من الغرابة ما يجعل المسلم المؤمن في حيـرة : لقد كان مقصود المسلمين في إثبات الأمية لمحمد سبيلاً واضِـحا لإثبـات معجـزةِ القـرآن ومصدرِهِ الإلهي. وهذه المعجزة جرتْ معها ووراءها تزويراً للتـاريخ وتحـويرا صـريحاً. بسببها سقطتْ مكّةُ في الجهل والغباوة، وبسببها عم الجهلُ والكفر علـى عصـر مـا قبـل الإسلام، وبسببها قلّب ا نظام الكون، فوضع الفصاحةَ على لسان جاهلٍ، ووضع العلم حيثُ الجهلُ، والإيمان حيثُ الكفر، والمعرفةَ حيثُ الغباوة ...

أمن حق المسلمين، لإثباتِ بلاغة القرآن، تهمةُ الناسِ بالجهل! أهي معجزةٌ للـدين أن يعجز الناس عن الاتيان بفصاحته! أمن كِبرِ ا ِ وعظمتهِ أن يأتي بنبي جاهل! هل من شـأن الدين أن يبنى على بدائيةِ البشر، ويفتخر بتعاليمه على بداوتهم! هذا، وان التاريخَ يثبتُ عكس ما يريده المتدينون : فالقراءةُ والكتابةُ ووسائلُها كانتْ في مجتمع مكّة فـي غايـةِ الانتشـار والمألوف. فلماذا التغاضي عن فخرٍ بالجدودِ هو حقّ لهم علينا!

ان الإيمان بمثل هذه المعجزة يعجز البشر عن رؤيةِ وجهِ الحق.

----

(١٩) الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٩١.

الفصل الثالث

معجزة حفظ محمد للقرآن

أولاً ـ النسيان النبوي

ثانياً ـ النسخ في القرآن

ثالثاً ـ إجازة التبديل في القرآن

رابعاً ـ دس الشيطان في الوحي

[Blank Page]

مقدمة الفصل

في إيمـان المسلمين أن ا تولّى ويتولّى بنفسه شؤون كتـابه الكريم. فهـو الـذي « أوحاه » ، وهو الذي « نزله » من الأفق الأعلى، وهو الذي « أنزله » على محمد منجماً، وهو الذي « جمعه » ، و « رتّبه » ، و « قرأه » لمحمد، وهو الذي « يحفَظُه » ، ويعمـل على « بيانه » ... وبالتالي، لا شأن فيه لمحمد : فلا ذاكرةُ محمد تفيد في حفظِه، ولا علمـه يزيد القرآن علماً ... لا اتّقاد ذاكرةِ النبي حفظتِ الكتاب، ولا ضعفُها أثر على صيانتهِ ...

ولئن كان ا ُ يتدبر أمر القرآن فأحرى به أن يتدبر محمداً لكي يحفظَه ويبلغَه بأمانـةٍ ودقّةٍ متناهية. وهكذا عصم ا ُ النبي من نقيصةِ « النسيان » ، وعصمه من الأهواءِ والنَزعاتِ الشخصيةِ، وعصمه من أن يبدلَ ويحرفَ في الكتاب، وعصمه من أن ينقِص منه أو يزيـد، وعصمه من دسائسِ الشيطان وحِيِله ... لقد أنعم ا ُ على نبيه بالعصمةِ لأنّه تعالى حمله حِملاً ثقيلاً : « أنا سنُلقي عليك قولاً ثقيلا » [1] .

ولكن عصمةَ ا هذه لم تمنع الرسولَ من أن ينعم بكل ما له مـن عواطـفِ الحـب والغضبِ، وأميال النفسِ والجسد، ونزعاتِ القلب والشهوات، ووهن الطبيعة ومتطلباتها : لقد عرفَ النبي الحب والشهوةَ، واختار له نساء، وميز بينهن، فأحب واحدة أكثر من واحدة، وكان له أولاد، وهم

----

(١) سورة المزمل ٧٣ / ٥.

تربية الأولاد، وكان له أصحاب أوفياء، وأعداء نَزلَ عليهم اللعنات. كان كسائر البشَر في كل شيء : في تَعبِهِ ومرضِهِ وآلامِه وأَكْلِهِ وشربه ومشيه في الأسواق[٢] ... في هـذه كلهـا لـم يعصِمِ ا نبيه، ولم يقيد حريتَه ...

الاّ ان ا عصم نبيه من ارتكابِ الفواحشِ والأخطاءِ والأغلاط وكل ما يمـتّ إلـى الأخلاق بصلة. وعصمه أيضا وخاصةً فيما يتعلّق بتبليغ كتابهِ وكلامه. وهذه العصمة هي أمر قديم جداً في تاريخ ا مع الأنبياء : لقد كان النبيون في إسرائيل معصومين؛ وفي المسـيحية عصمةٌ تمتد بعيداً؛ بل كلُ صاحبٍ عقيدةٍ أو نفوذٍ أو قيادةٍ يتمتّع، عند أتباعه، بعصمةٍ مـا ... ويبدو أن الإنسان، في ضياعِه في خضم هذا العالم المضطرب، يحتاج إلى بعـض العصـمة يجدها في مكانٍ ما، ليطمئن. بل كل امرئٍ يسعى لأن يكون في مسعاه معصوماً ...

وكم في التاريخ عصِمتْ أنبياء وأولياء وقديسون وأئمةٌ وأصـحاب عقيـدةٍ وزعمـاء سياسيون وثوار ومنظّرون ومنظّمون... وكم عصِمتْ شـرائع وقـوانين وكتـب ووسـائلُ ومبادئ... فمن يستطيع تغيير حرفٍ واحدٍ من كتبِ السـماءِ دون أن تنهـالَ عليـه ويـلاتُ الأرضِ وأوهالُ السماوات! ومن يمكنُه ألاّ يرى حتى في كتابهِ كلَ عصمةٍ وكلَ حقّ! ومـن يتمكّن من إزالةِ حرفٍ واحدٍ من الناموس، حتى ولو كان كلُ حرفٍ من الناموس مـن صـنع رجالٍ تعساء!

لكأن العصمةَ هي، عند البشر، نزعةٌ نحو الأبدية : والحقيقةُ هي أن كل شيء علـى الأرضِ يموج؛ والأرض كلها تموج بكل شيء، والحياةُ غير مستقرة، وعواملُ الكـون فـي تغييرٍ مستمر، ومعالِم البشريةِ تُمحى سريعاً، وعلوم الإنسان تَنقِلب من عصـرٍ إلـى آخـر، والأمر الواحد حقيقةٌ هنا وضلالٌ

----
(٢) سورة الفرقان ٢٥ / ٧ ، وغيرها.

هناك، ودولٌ تَدول، ومجتمعاتٌ تَزول، وعالَم يبور، والكلُّ في اضطراب. وليس على الأرضِ ثابِتٌ الاّ ما لا يثبت ... تجاه هذا الواقع المائِج، خَلَقَ الإنسان له حبلاً مِتينًا ربطَ بِـهِ الأرض المائِجةَ بِعمدِ السماءِ الثابتة، فكانتِ العصمةُ خير ما أُوجد.

ملايين الكتبِ في المكتباتِ حاولَ أصحابها وضع بعضِ العصمةِ فيهـا. ولـيس فـي الأرضِ من مفكرٍ أو صاحبِ رأي أو منظرٍ الاّ ويدمغُ ما عنده بالعصمة. بل ليس من سـاعٍ نحو عصمةٍ ما لديه الاّ ويريد دفْع الآخَرين إلى عصمتهِ دفعاً. وبات الجميع ينوء تحت عبءِ ثقل العصمةِ وأصحابِها. وقد لا تكون مشاكلُ الأرضِ والإنسانيةِ الاّ من هذا القبيل. فلولا خَففَ الإنسان عن أخيه ضغْطَ عصمتهِ لَهانَتْ بين الناسِ سبلُ المحبةِ والوفاقِ والسلام. ولكن مـيلاً في عمقِ كل انسان يجمع بِهِ نحو العصمة. فلهذا كان في الأرض حروب وثـوراتٌ وبغـض وكفر وبلبال. وأجلى صورِ العصمةِ رقمتْ في الدين. فلا الدين يزول، ولا العصمةُ فيه تَخِف حِدتُها؛ لا المؤمن يتزحزح عن عصمةِ دينه، ولا لاعِن الأديان يستطيع النجاةَ مـن دغدغـةِ عصمته!

يهون الإيمان بالعصمة في ما يتعلّقُ بأمور السماء والأديان ... ولكن كيف يهون مع رجالٍ عصموا أنفسهم وعصمهم الناس ؟ وقد يهون الأمر أيضا إذا تمتّـع هـؤلاءِ الرجـالُ بعصمةِ أهل زمانهم، ولكن كيف يهون متى انقلب ذاك الزمان، وتَبـدلَتْ معـالم الحضـارة، وانقلب التاريخُ على نفسِه، وقلَع مجتمع حضاري مجتمعا بـدائِيا بـدويا، وأطاحـتِ الأرض الخضراء بالصحراءِ المتلهبة، وأخذتِ الطائراتُ تملأُ آفاقَ البر والبحر مكان الابل والحمير...

متى حدث كلُّ هذا، نسأل : هل تبقى العِصمةُ في مجدِها ؟ وهل نبقى تحتَها رازحـين إلى الأبد ؟ هل يبقى الرجالُ أحياء بعصمِتنا لَهم،

وقد أماتَهم ا ُ رحمةً بنا ؟ هل يتسنّم كلُ معصومٍ بمجدِه على رؤوسِنا وفي عـرش قلوبنـا، وعظامه في الترابِ بِليتْ وصيرتْها الأرض الحنونةُ هباء ؟ هل يحق لنا تخليد رجالٍ أفنـاهم ا ؟ ... ليتَ الوثنيةَ تعود بوجهها الصريح من أن تكون على مثل هذا الوجهِ الخبيث!!!

من هو الكافر با ، أَعابِد الأصنامِ الذي بها يسعى نحو ا ، أم الذي يسـرقُ مـن ا ِ عصمتَه ليغرزها في رجلٍ مائتٍ كالرجال ؟ من هو المشرك با ، ذاك الذي أطلقَ سراح ا ، أم ذاك الذي حصر ا َ في هيكلٍ من حجارةٍ أو في كتابٍ من ورقٍ وحروف!؟

ومع هذا يجب أن يبقى عند بعضِ الناسِ لبعضِ الرجال بعض العصمة. لولاها لَضاع الناس في ضياعٍ محتوم. بعض العصمة يخلّص الإنسان من القلق، ولكن العصمةَ كلها تُـريح العقلَ الذي خُلِقَ حرا باحِثًا متحركًا ناشِطًا عامِلاً في كل أمرٍ من أمور الخَلقَ. بعض الاتّـزان يكفي لبعضِ الخلودِ على أرضِ الفناء. وبعض الحرية من معصومي السماء يكفلُ لنا أَجرين : أجر الباحثِ، وأجر من يحافِظ على كرامة الإنسان. فأطلِقوا الحريةَ، وقيـدوا اتسـاع رقعـةِ العصمةِ والمعصومين، ولكم منّي، بعد هذا، نشيد الظفر.

ونشيد الظفر هو هذا : أن تحرر ا َ، وأن تتحرر بفضل ا . أن تسأل : كيف عصـم ا ُ نبيه محمداً من النسيان ومن أهواءِ الطبيعة ومن دس الشيطان ومن التحريفِ والتصحيفِ في الكتابِ الذي بين يديه. وكيف ربطَ هذا الكتاب بِعمدِ السماء، وكيف نزلَه ملاك من السماء، وكيف يتمتّع هذا الملاك بعصمةِ ا ؟ وأن تسأل: هل حفَظَ محمد كلَ القرآن، أم نسي بعضه ؟ هل من حفظِ القرآن معجزةٌ إلهية، أم ا ُ ترك التاريخ يسعى بموجبِ نظامِه المتـأرجح بـين الحقِ والباطل ؟ فلننظر.

أولاً ـ النسيان النبوي

يعترف القرآن نفسه بأن كثيراً منه قد نُسِي. ولئن كان الأنبياء معصومين في رسالتِهم وأخلاقِهم، فإنّهم، على ما يبدو، لم يعصموا من الضعفِ والـوهن الحاصِـلين فـي الطبيعـة البشرية. ونجد القرآن والسنّةَ يقران بهذا الضعفِ النبوي. ولا بد للمسلمين أن يقـروا بهـذا الضعف في ذاكرةِ النبي الذي أساء في حفظ كل القرآن.

فمنذ مطلع الوحي حذّر ا محمداً من نسيان شيء من القرآن، قال : « سنُقْرِئُك فـلا تَنسى إلا ما شَاء ا ُ. إنّه يعلَم الجهر وما يخفى. ونُيسرك لِليسرى » [١]. وجاء فـي تفسـير الجلالين : سنقرئُك القرآن فلا تنسى ما تقرؤُه الاّ ما شاء ا أن تَنْساه، بِنَسخ تلاوتِه وحكمِـه. وكان الرسولُ يجهر بالقراءةِ مع قراءةِ جبريل خوفَ النسيان، فكأنّه قيل له : لا تعجلْ بهـا، انّك لا تَنْسى فلا تُتعِب نفسك بالجهر بها، انّه تعالى يعلم الجهر من القول والفعل وما يخفـى منهما ... » [٢].

فإذا كان « الجلالان » يقران بإمكانيةِ النسيان عند محمد، فان محمد الكلبـي يجيـزه فيقول : « ان النسيان جائز على النبي (ص) فيما أراد ا أن يرفَعه مِن القـرآن، أو فيمـا قضى ا ُ أن ينْساه، ثم يذْكره. ومِن هذا قول النبي (ص) حين سمع قراءةَ عباد بـن بشـير رحمه ا : لقد أذكرني

----

(١) سورة الأعلى ٨٧ / ٦ ـ ٨.
(٢) تفسير الجلالين على سورة الأعلى، ص ٧٩٥.

كذا وكذا آيةً كنتُ قد نسيتُها » [٣] .

أما تفسير الزمخشري فيتوقّف على معجزة قراءةِ جبريل للنبي لئلا ينساه. « وقيـل : كان يعجلُ بالقراءة إذا لقّنه جبريلُ، وقيل : لا تعجل فان جبريلَ مأمور بأن يقرأه عليك قراءةً مكررةً إلى أن تحفظَه ثم لا تَنساه الاّ ما شاء ا ، ثم تذكّره بعد النسيان ... وروى انّه أَسـقَطَ آيةً في قراءتهِ في الصلاةِ فَحسِب ُأبي (بن كعب) انّها نُسِخَتْ، فسأله، فقال : نَسِيتُها » [٤] .

وجاء في تفسير الطبري : « أخبر انّه ينسِي (ا ُ) نبيه منه (من القرآن) ما شاء : فالذي ذَهب منه هو الذي استثناه ا » [٥] . ونجد أيضا في « كتاب مجموعةٍ من التفاسـير » للبيضاوي والنَسفي والخازن وابن عباس اقرارا بالنسيان النبوي وبحدوثهِ مِرارا على ما روى المحدثون ومنهم الصحيحان[٦] .

****

وفي سورة الكهفِ قوله : « واذكر ربك إذا نَسِيتَ. وقلْ : عسـى أن يهـدِيني ربـي لأقْرب من هذا رشدا » [٧] . فسر البيضاوي ذلك بقوله : « إذا فرطَ منك نسيان ذلك ... اذكر ربك وعقابه إذا تركتَ بعض ما أمرك بهِ، ليبعثَك على التداركِ. واذكره إذا اعتراك النسـيان لِيذْكِرك المنْسِي » [٨] .

- -
(٣) محمد الكلبي، كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٤) الزمخشري، الكشاف ٤ / ٢٤٣.
(٥) تفسير الطبري ٢ / ٤٨.
(٦) انظر « كتاب مجموعة من التفاسير » ، ٦ / ٤٩٤.
(٧) سورة الكهف ١٨ / ٢٤.
(٨) تفسير البيضاوي للقرآن على سورة الكهف.

وفي تفسير الزمخشري اشارةٌ إلى منفعة النسيان وضرورتِهِ. يقول : « واذكر ربك إذا تركتَ بعض ما أمرك به ... واذكره إذا اعتراك النسيان لِيذكّرك المنسـي ... والظـاهر أن يكون المعنى : إذا نسيتَ شيئاً فاذكر ربك. وذكر ربك عند نسيانِه أن تقولَ : عسى ربـي أن يهدِيني لشيءٍ آخر بدلَ هذا المنسي أقرب منه « رشَدا » وأدنى خيرا، ولعلُو منفعةِ النسـيان خيرة، كقوله ـ أو نُنْسِها نأتِ بِخَيرٍ مِنها » [٩] .

وهو أيضا تفسير النسفي والخازن وابن عباس[١٠] .

****

وفي سورة البقرة قوله: « وما نَنْسخُ من آيةٍ أو نُنْسِها نأتِ بخيرٍ مِنها أو مِثْلِها » [١١]. نتكلّم الآن على فعل « نُنْسِها » ونرجئُ الكلام على « النَسخ » إلى ما يلـي. لقـد اختلفـتْ قراءاتُ فِعل « نُنْسِها » ؛ فمِن المفسرين من قرأَها بمعنى « نؤخرها فلا نُنزِلُ حكمها ونَرفَع تلاوتَها، أو نؤخرها في اللوح المحفوظ » [١٢] . ومنهم من رأى « معناها: نُثْبِتُها على قلبِك... (فيكون) الإنْساء نَسخًا من غيرِ إقامةِ غيرِهِ مقامِه (من أحكام).

أما الرأي المرجح فهو : « إنساؤُها : اذهابهـا عـن القلـوبِ » أي نسـيانِها، « أي نُنْسِكها: أي نُمحِها من قلبك » [١٣] . ويعتبر الطبري أن « نسيان الوحي ظاهرةٌ نبويةٌ إلهيةٌ في القرآن » [١٤] .

----

(٩) الزمخشري، الكشاف ٢ / ٤٨٠.
(١٠) كتاب مجموعة من التفاسير، ١ / ١٠٠ على سورة الكهف.
(١١) سورة البقرة ٢ / ١٠٦.
(١٢) تفسير الجلالين على ٢ / ١٠٦، مجموعة من التفاسير، ص ١٧٤.
(١٣) تفسير الجلالين على ٢ / ١٠٦.
(١٤) تفسير الطبري، ٢ / ١٠٦.

بأي معنى جاءت لفظة « نُنْسِها » فلا اعتراض عليه. ولكن كُتُب الحـديثِ والسـنّة تعترفُ بظاهرةِ النسيان المحمدي بما لا يبقى لدينا أي شك في ذلك :

لقد نَقَل الطبري عن قتادة قوله : « يقرأُ نبي ا ِ الآيةَ أو أكثر من ذلـك، ثـم تُنْسـى وتُرفَع » . وأيضا : « كان ا ينسِي نبيه ما شاء » . وعن مجاهِد : « كان عبيد ا بن عمير يقول : « نُنْسِها، نرفَعها من عندكم » . وعن الحسن : « ان نبيكم أُقرِئَ قرآنًا ثم نَسِـيه » . وعن الربيع : « نُنْسِها، نرفَعها. وكان ا أنزلَ أموراً من القرآن ثم رفَعها » [(١٥)] .

والحقيقة إن ما ورد على لسان المفسرين من معانٍ لفعل « نُنْسِها » تتقارب : قَرفْـع أحكامِ آيةٍ ما من آياتٍ القرآن، أو تأخيرها، أو نسيانُها، أو محوها من قلبِ النبي ... كلها تدلّ على طَعنٍ في صميم العصمة. إن ا الذي عصم نبيه لِيعصِم بعصمتِه القرآن « يرفَع » الآن عصمتَه، وذلك بسببِ تبدل ظروفِ النبي وأحوالِهِ وأحداثِ التاريخ. ويثبتُ ذلك ما سيتّفقُ عليه عامةُ المسلمين من جواز نَسخ آيةٍ بآية، كما سيأتي ...

وفي صلاةِ النبي لربهِ خير ما نختم به مقالنا : « الّلهم! ذكّرني منه ما نَسِيتُ، وعلّمني منه ما جهلتْ » . ويعترفُ المحدثون بأهميةِ هذه الصلاة، فيفسرون : « ربما نزل على النبي الوحي بالليل ونَسِيه بالنهار » .

****

---

(١٥) انظر مقالة : الطبري، في دائرة المعارف بمصر، ٢ / ٤٧٤ ـ ٤٨٠، تخريج الأخوين شاكر ...

ثانياً ـ النسخ في القرآن

في إيمان المسلمين إنّه « لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب ا الاّ بعد أن يعـرفَ منـه الناسِخَ والمنسوخ. وقد قال علِي ِلقَاضٍ : أتعرفُ الناسخَ من المنسوخ ؟ قال : لا. قال : هلِكْتَ وَأهلَكْتَ » [١] .

وللنسخ معانٍ :

« منها معنى الإزالـة، ومنه قـوله : « فَينْسخُ ا ُ ما يلِقي الشيطان، ثـم يحكِـم ا ُ آياتِه » [٢] .

ومنها معنى التبديل، ومنه : « إذا بدلنا آيةً مكان آية » [٣] .

ومنها معنى التحويل، كتناسخ المواريثِ بمعنى تحويل الميراثِ من واحدٍ إلى واحد[٣] .

ومنها معنى النقل من موضع إلى موضعٍ، ومنه : « نَسخْتُ الكتاب » ، إذا نقلتَ مـا فيه حاكِياً للفظِه وخطه. وهذا الوجه لا يصح أن يكون في القرآن » [٤] .

والنسخُ هو من خصائص الأمةِ الإسلامية، وقد خصها ا ُ بهِ لِحِكَمٍ

----

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ٢ / ٢٠.
(٢) سورة الحج ٢٢ / ٥٢، نفس المرجع السابق.
(٣) سورة النمل ٢٧ / ١٠١، نفس المرجع.
(٤) الاتقان ٢ / ٢٠ ـ ٢١، البرهان ٢ / ٢٩.

منها التيسير، وقد أجمع المسلمون على جوازه، ولكنّهم اختلفوا في وجـوهه. وأحد وجـوهه « إن القرآن نَسخَ جميع الشرائع والكتبِ القديمةِ كالتوراةِ والإنجيل وغيرهما. الوجه الثـاني : المراد من النسخ هو نَسخُ القرآن ونَقْلُه من اللوح المحفوظ إلى سماءِ الدنيا. والوجه الثالـث، وهو الصحيح، الذي عليه جمهور العلماء، إن المراد من النسخ هو رفْع حِكمِ بعـض الآيـاتِ بدليلٍ آخر يأتي بعده. وهو المراد بقوله تعالى : « ما ننسخُ من آيةٍ أو نُنسِها نأتِ بخيرٍ منهـا أو مثِلها » [٥] .

وبتعبير استساغَه الشيخْ صبحي الصالح : النسخُ هو « رفْع الحكم الشـرعي بـدليلٍ شرعي » ، وهو، بنظره، « أدقّ تحديدٍ اصطلاحي لهذه اللفظة » [٦] . وهـو، كغيـرهِ مـن المسلمين المتأخّرين، يعتمد على أئمة المفسرين[٧] .

ثم اختلافَ المسلمون في تعيين الآياتِ الناسِخَة والمنسـوخَةِ، وفـي تعيـين الأحكـام الناسِخَة، فإذا ببعضِهم يغلو فيقول بأن معظم سور القرآن يجتَمع فيهـا الناسِـخ والمنسـوخ؛ وبعضِهم الآخر يفر من النسخ ويقول بأن ليس في القرآن ناسِخ ومنسوخ، وذلك خوفًا مـن أن يقع هؤلاء بالقول بـ « البداء » ، وهو القول بأن ا يغير أحكامه ويبدلُها بحسبِ الظـروفِ والمناسبات، وحاشاه من ذلك؛ إلاّ أن المعتدِلين أجمعوا على القول بأن الأصلَ في القرآن هو « الأحكام » ، ولكن يوجد فيه بعض « النَسخ » ، ولكنّه قليل. وقد عـد السـيوطي إحـدى وعشرين آية ناسخة ومنسوخة[٨] والشيخ صبحي لا يرى أكثر من عشر آياتٍ فقط[٩] .

----

(٥) سورة البقرة ٢ / ١٠٦، كتاب مجموعة من التفاسير، ص ١٧٥.
(٦) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٦١.
(٧) انظر فصل في حكم النسخ في كتاب مجموعة من التفاسير، ص ١٧٥.

ثم إن النسخ في القرآن على ثلاثة أضرب : أحدها ما نُسِخَ تلاوتُه وحكمه معاً، أي أن آياتٍ، بحسب تعبير أبي موسى الأشعري، « نزلتْ ثم رفعت » [١٠] . الثاني : ما نُسِخَ حكمـه دون تلاوتِهِ. وهو قليل جداً، لأن من « حق الناسخ والمنسوخ أن تكون آيةٌ نَسخَتْ آيةً » [١١] . والضرب الثالث : ما نُسِخَ تلاوتُه دون حكمه، أي إن كثيرا من القرآن قد ذهب وسقَط وبقـي حكمه[١٢] .

****

أما الحكمة، برأي المسلمين، في معرفة الناسِخ والمنسوخ « تظهرنا على جانب مـن حكمة ا في تربيةِ الخلق، وتقفنا على مصدر القرآن الحقيقي : وهو ا رب العالمين، لأنـه يمحو ما يشاء ويثبتُ، ويرفع حكماً ويبدلُ آخر، من غير أن يكون لأحدٍ من خلقِه عملٌ في ذلك ولا شأن، حتى ولا خاتَم النبيين نفسه » [١٣] .

وحكمة ذلك من وجهين : أحدهما إن القرآن يتلى، ولو كانتْ بعض أحكامِه منسوخةً، لكونهِ كلام ا فيثاب الإنسان على هذه التلاوة؛ والثاني : إن النسخَ، غالباً، يكون للتخفيـفِ، فأُبقِيتِ التلاوةُ تذكيراً للنعمةِ ورفْع المشقّة » [١٤] .

---

(٨) السيوطي، الاتقان، ٢ / ٢٣، وقد نظمها في أبيات شعر.
(٩) الشيخ صبحي، مباحث ...، ص ٢٧٤.
(١٠) السيوطي، الاتقان، ٢ / ٢٢.
(١١) السيوطي، الاتقان، ٢ / ٢٢.
(١٢) السيوطي، الاتقان، ٢ / ٢٢ ـ ٢٥.
(١٣) الشيخ صبحي الصالح، مباحث ...، ص ٢٥٩.
(١٤) السيوطي، الاتقان، ٢ / ٢٣.

ان المهم بالنسبة إلينا الآن هو الاعتراف بأن ا ، نظرا لاختلاف الحال ووضع الناس وتبدل المجتمع من مكّي إلى مدني، ومن بدوي إلى حضري، ومن دعوة بالسلمِ إلـى دعـوة بالجهاد، ومن وعظٍ وتبليغٍ إلى سن شرائع وقوانين ...، إن ا أجاز لمحمد تبديلَ مواقِفه، كما أجاز له، تبريراً لهذا التبديل، أن يرفَع الأحكام ويبدلّها بغيرها. فيكون معنى ذلك :

إن « ا َ سبحانه وتعالى يعلّمنا أن تغير الزمن والظروف يقتضـي تغيـر الأحكـام. فليستِ المسألةُ متعلّقةً بعلمِ ا شيئاً الآن لم يكن يعلمه من قبل. حاشا ا . ولكـن المسـألةَ أن الحِكم يتّفقُ مع الظروفِ في فترة من الفترات فيقضي ا به، ثم تتغير الظروفُ أو يريـد ا التخفيفَ عن عبادِهِ فيتغير الحكم. فالمسألةُ لا علاقةَ لها بعلمِ ا ِ الواسع الشامل، ولكن علاقتُها بحاجةِ الناسِ من جهة، وبتعليمهم التطور حسب الظروفِ من جهة أخرى ... » [١٥] .

****

ولكنّنا نسأل : إذا كان ا أجاز لمحمد نسخَ بعضِ الأحكام في مدة ثلاث وعشرين سنة من البعثة النبوية، نظراً لتبدل الظروفِ وحال الناسِ وللتخفيفِ عن المؤمنين ... أفلا يجوز لنا الدكتوران أحمد الشلبي وصبحي الصالح وصاحبا الاتقان والبرهان وكل المسلمين نَسخًا آخر! وكل شيء يدعو إلى ذلك! إن تبدلَ ظروفِ البشر، وتطور العلمِ، وتغيير وجهِ الكون، وانقلاب نظرياتٍ كثيرة في العالم رأسا على عقب ... تستحقّ نسخاً آخر قد يكون أوسع وأشملَ مـن النسخ الأول!

---

(١٥) الدكتور أحمد شلبي، هل هناك قرآن منسوخ ؟ في كتاب « القرآن نظرة عصـرية جديـدة » ، لجماـة مؤلّفين، ص ١٥٠.

إذا كان أهل مكّة والمدينة استحقّوا خلالَ ثلاث وعشرين سنة أحكاما تَنسخَ أحكامـا، وآياتٍ تُبدلُ آيات، بسببِ أوضاعٍ جديدة وأحوالٍ مستجدة، ألا نستحق نحن، في مدةٍ تزيد على الثلاثِ وعشرين سنةٍ بأكثر من ألفٍ وأربع مائةِ سنة وسنتين، رحمةً من ا ـِ تَرفَع عنّا أحكاما وسنَنًا بليتْ كما بلي المجتمع الصحراوي!

إذا كانت أحكام القرآن وسننُه في متناول بدو الحجاز، وقد آمن بها من فهمها مـنهم، وأنكرها من فهمها منهم أيضاً، وقد نُسِخَتْ وتَغَيرتْ بالنسبةِ إلى تبدل أحـوالِهم، ألا يسـتحقُ متحضرو العصر الخامس عشر أن يكون لهم أحكام وسنن هي في متناول حضارتِهم!! أيعقلُ ألاّ يكون متحضرو هذا الجيل أكثر وعيا وعلما ومعرفةً من بدائيي الصحراء!! وكيف كـان لهؤلاءِ أحكام تُنْسخُ ولأولئك أحكام تبقَى مدى الدهر!!

أيحكم القرآن على الناس بأنّهم مهما علا كعبهم في العلمِ والمعرفة يظلّون بمستوى ما فهمه البدوي منه! إذا كان الفرقُ بين المدني والمكّي من القرآن واسعاً إلى هذا الحد الذي يقره المسلمون، ألا يكون هناك فرقٌ أوسع بين المدني اليثربي والحضري الرياضي أو النَجدي!!

لقد كان النبي أرحم بالنسبةِ إلى أهل زمانه منه بالنسبةِ إلينا اليوم! لقـد أنـزلَ إلـيهم أحكاما، ثم رفَعها، ثم أنزلَ أحكاما أخرى، ثم نَسخَها ... على أن استقرتِ الأحكـام وجمـدتْ ووصلتْ إلينا وستصِلُ مِن بعدنا إلى أبنائِنا في الجيل الألف للبشرية ... فلا نبي يأتي بعد خاتم النبيين، ولا حكم يصدر من جبريل يوقِفُ به حكما آخر ... وسنظل مع أهل مكّة والحجـاز بمستوى واحد من العلم والمعرفة، وهم أخواننا في كلّ حال!!

لقد أقر المسلمون النسخَ في القرآن، وأجازوا لمحمد أن يبدلَ في أحكامِ ا . وفي هـذا معجزةٌ لا مثيلَ لها : إن ا َ يساير نبيه المختار ليكون على مستوى الرسالةِ التي دعاه إليهـا. وبدلَ أن يقال ِإن هناك تناقضا في الأحكام والشرائع قيل : هناك آياتٌ تَنْسخُ آيات. وأقول مع الدكتور أحمد شلبي : « لا أفهم معنى لآيةٍ أنزلَها ا ُ تُفيد حكما، ثم يرفَعها مع بقاءِ حكمهـا، لأن القرآن يقصد افادةَ الحكمِ والاعجاز بنُظُمِه. فما هي المصحة في رفْعِ آيةٍ منه مـع بقـاءِ حكمها! إن ذاك غير مفهوم. وفي رأيي إنّه ليس هناك ما يلجئني إلى القول به » (١٦) .

ومن غير المفهوم أيضا رفع الحكمِ مع بقاءِ آياته! ولا رفع الحكم والآياتِ معاً. كمـا قالت عائشة وكما قال المكّي : « فيه المنسوخ غير متلو والناسخُ أيضا غير متلـو » (١٧) ... واختلط علينا بهذا المعتقد كل شيء. ولكن يبقى ـ الإيمان با الذي أراد الإنسـان حـراً، لا تقيده شريعة، ولا ينحصِر في عصمةِ الأنبياء.

****

---

(١٦) أحمد شلبي، هل هناك قرآن منسوخ ؟ ص ١٥٤.
(١٧) السيوطي، الاتقان ٢ / ٢٢.

ثالثاً ـ إجازة التبديل في القرآن

يتأرجح المسلمون في إيمانهم بين وجود تعديل في القرآن وعدم وجوده. فمـن جهـة يؤمن المسلم بأن « لا تبديل لكلمات ا » [١]، « ولن تجد لسنّة ا تبديلاً » [٢]. ومن جهـة ثانية يعترف القرآن بإمكانية تبديل آية مكان آية، ويقول : « إذا بدلنا آيةً مكان آيةٍ. وا أعلم بما ينزل ... » [٣].

والأرجح عند المسلمين عامة ألاّ يكون في القرآن شيء من التبديل أو التحريـف أو التناقض. ولذلك أجمع المفسرون على أن التبديلَ في الآية السابقة يفَاد منه النَسـخ، فيكـون معناها إذاً : « إذا بدلنا آية ناسِخَة بآيةٍ منسوخة » .

ولكن الآية بكاملها : « وإذا بدلنا آيةً مكان آية ـ وا أعلم بما ينزل ـ قالوا : انّمـا أنتَ مفْتَرٍ ـ بل أكثرهم لا يعلمون ـ. قل : نزلَه روح القدس من ربك بالحقّ، لِيثَبتَ الـذين آمنوا، وهدى وبشْرى للمسلمين » . إنّها تعني، بحسب أهل التفسير : « بأن المشـركين مِـن أهل مكّة قالوا إن محمداً يسخَر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمرٍ، وينهاهم عنه غدا، مـا هـو الاّ مفترٍ يتقولُه من تلقاءِ نفسه. فأنزلَ ا هذه الآية » [٤].

---

(١) سورة يونس ١٠ / ٦٤، انظر أيضا : ٦ / ٣٤ و ١١٥ ، ١٨ / ٢٧.
(٢) سورة الأحزاب ٣٣ / ٦٢، وأيضا : ٣٥ / ٤٣ ، ٤٨ / ٢٣ وغيرها.
(٣) سورة النحل ١٦ / ١٠١ ـ ١٠٢.

ولكن يبدو أن هذه التهمة في التبديل والتحريف قد لاحقت محمداً طيلةَ رسالته. ونحن مع القرآن حيارى بين تهمةٍ ورد تهمةٍ، وبين طعنٍ وطعنٍ مضاد. واننّا لنجد آياتٍ كثيرةً يجهد محمد بها في رفع التهمة والطعن عنه. منها قوله :

« قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائتِ بقرآنٍ غير هذا، أو بدلّه ... قل : ما يكون لي أن أبدلّه من تلقاءِ نفسي...» [5]. وقال أيضا: « لا تبديلَ لكلماتِ ا . ذلك هو الفوز العظيم » [6]. وقال : « سنّةُ ا في الذين خَلَوا من قبل. ولن تجد لسنّةِ ا تبديلاً » [7] . وقال : « فلن تجد لسنّةِ ا تبديلاً، ولن تجد لسنةِ ا تحويلاً » [8] ... الخ.

ومما يرجح صحةَ تهمةِ التبديل أيضا ما قرره القرآن نفسه في تخفيفِ سنّة ا ِ التـي أصبحتْ فيه مبدأً قرآنياً وعقيدةً اسلامية في يسر الشريعةِ وخفّتِها على الناس. واننّا نجد آيات كثيرة تشير إلى ذلك. قال :

« الآن خفّف ا ُ عنكم، وعلِم أن فيكم ضعفًا » [9] . وقال : « ويريـد ا ُ أن يخفّـفَ عنكم، وخَلَقَ الإنسان ضعيفاً » [10] . وقال أيضا : « ويريد ا بكم اليسـر، ولا يريـد بكـم العسر » [11] الخ ...

----
(٤) كتاب مجموعة من التفاسير، ٣ / ٦٤١.
(5) سورة يونس ١٠ / ١٥.
(٦) سورة يونس ١٠ / ٦٤، انظر : ٦ / ٣٤ و ١١٥ ، ١٨ / ٢٧.
(٧) سورة الأحزاب ٣٣ / ٦٢.
(٨) سورة فاطر ٣٥ / ٤٣، انظر أيضا : الفتح ٤٨ / ١٥ و ٢٣، البقرة ٢ / ٥٩ و ١٨١.
(٩) سورة الأنفال ٨ / ٦٦.
(١٠) سورة النساء ٤ / ٢٨.
(١١) سورة البقرة ٢ / ١٨٥.

وحجة ذلك ان محمداً هو رسول لأمة معينة، لها ظروفها وأوضاعها الخاصة : « لقد بعثنا في كل أمة رسولاً » [١٢] ، ورسول العرب الأميين يجب ألاّ يكون كرسول أهل الكتـاب الراسخين في العلم ... وليستْ قصةُ الإسراء والمعراج الاّ سعي محمد إلى ا ِ يطلـب منـه تخفيفَ الصلاة عن أمته، لتكون ثلاثَ مرات في النهار، لا خمسين مرة كما هي حـال أمـة موسى... سأل موسى محمداً، بعد رجوعه من عند ا : « ما فَرض ربك على أمتِك ؟ فقلتُ: خمسين صلاة في كل يوم وليلة. قال موسى : ارجِع إلى ربك، فاسألْه التخفيفَ. فان أمتَـك لا تطيق ذلك ... فرجعتُ إلى ربي فقلتُ : أي رب خفّفْ عن أمتي. فحط عنّي خمسا. فرجعـتُ إلى موسى. قال : ما فعلتَ ؟ فقلتُ : قد حط عني خمسا ... الخ » [١٣] . ولم يزل محمد يرجِع إلى ا ويلتقي بموسى حتى حط ا ُ عنه كلّ الصلاةِ ما عدا ثلاثاً ...

وهكذا جرى بين ا والأمةِ الإسلامية نوع من التعاطفِ والرحمـةِ بسـبب ضـعفِ الإنسان ... والمسلمون، اليوم، يفتخرون ويتباهون أمام شـعوبِ الأرض وأديـانهم، عنـدما يعلنون باستمرارٍ سهولةَ الشريعةِ الإسلاميةِ وخفتها ويسرها ومسـايرتها الطبيعـةَ البشـريةَ وأميالها، حتى غدا « الإسلام بنظرهم دين الفطرة، والفطرةُ دين الإسلام » [١٤] . وهـذا مـن قول ا : « فطرةُ ا التي فَطَر الناس عليها » [١٥].

*****

---

(١٢) سورة النحل ١٦ / ٣٦، انظر أيضا : يونس ١٠ / ٤٧.
(١٣) انظر قصة الاسراء والمعراج في تفسير الجلالين على سورة ١٧.
(١٤) محمد جواد مغنّية، الإسلام بنظرة عصرية، ص ٥١.
(١٥) سورة الروم ٣٠ / ٣٠.

ومن مسايرة أميال الطبيعة وأهوائها ما نجده في الإسلام من تحريمه للرهبانية، اذ هي بدعة نكراء[١٦] . وفي الحديث : « لا رهبانية في الإسلام » ، ومن حب شهي للطعام والشرب ولكن دون الاسراف[١٧] ، ومن حب الشهوات من النساء والبنين[١٨] ، إذ هي زينة الحياة الدنيا.

وفي الأحاديث ما روى عن النبي : « ليس خيركم من تَرك الدنيا للآخرة، ولا الآخرةَ للدنيا، ولكن خيركم من أخذَ من هذه وهذه » . وأيضاً « انّما حبب إلي مـن دنيـاكم النسـاء والطيب، وجعلتُ قرةَ عيني في الصلاة » . وقال لرجل ابتغى العزوبة : « فأنـتَ اذن مـن أخـوان الشياطين. إن كنتُ من رهبـان النصارى فألحقْ بهـم. وإن كنتَ منّا فمـن سـنّتِنَا النِكاح » ... الخ.

*****

مهما حاول المسلمون من إبعادِ شبهة التبديل والتحويل في القرآن، فان شريعةَ الإسلام بدلَتْ وحولتْ في شرائعِ الأنبياءِ السابقين. ولئِن كان محمد يفتخر بالانتماءِ إليهم فانّه أعجـزه الأخذُ بشريعتِهم التي حرفَ فيها وبدل. وأيضا : لم يبدلْ محمد في شرائع الأنبياءِ وحسب، بل بدلَ فيما أُنزلَ عليه بين مكّة والمدينة. ولذلك اتّهمه المتّهمون بالغش والافتراءِ على ا . وكان، بالطبعِ، يرد كلَ تهمة، وحجتُه إنّه رسولُ أمةٍ أميةٍ بدائيةٍ، يعجزهـا اللحـاقُ بأهـل الكتـاب وشرائِعهم.

****

----

(١٦) انظر سورة الحديد ٥٧ / ٢٧.
(١٧) سورة الأعراف ٧ / ٣١.
(١٨) سورة آل عمران ٣ / ١٤.

رابعاً ـ دس الشيطان في الوحي

هناك في القرآن ظاهرةٌ عجيبةٌ غريبةٌ مثيرةٌ فريدةٌ من نوعها من الكتـب السـماوية، وهي إمكانية تُدخّل الشيطان في إِلْقَاءِ التحريفِ والفسادِ على لسان النبي بغير علمهِ. يقول :

« وما أرسلنَا من قبلِك (يا محمد) من رسولٍ ولا نبي الاّ إذا تمنّى (قـرأ) ألقـى الشيطان في أمنيته (قراءته ما ليس من القرآن) ثم يحكِم ا ُ آياتِه. وا عليم حكيم. ليجعلَ ما يلقي الشيطان فِتنَةً (محنة) للذين في قلوبهم مرض (شقاق ونفاق) والقاسيةِ قلـوبهم. وإن الظالمين لَفي شِقَاق بعيد. وليعلمِ الذين أُوتُوا العلم أنّه (القرآن) الحق من ربك فيؤمنـوا بـه فَتُخْبِتَ له قلوبهم (تطمئن) » (١) .

في تفسير الجلالين لهذه الآيات ما يثبت دس الشيطان هذا : « قرأ النبي فـي سـورةِ النجمِ بمجلسٍ من قريش بعد « أفرأيتم اللاتَ والعزى ومنـاة الثالثـة الأخـرى » (٢) بالقـاء الشيطان على لسانِه من غير علمه به : تلك الغرانيق العلا، وان شفاعتَهن لَتُرتجى، ففرحـوا بذلك، ثم أخبره جبريلُ بما ألقاه الشيطان على لسانِه من ذلك، فَحزِن، فَسلي بهذه الآية (مـن سورة الحج) » (٣) .

----
(١) سورة الحج ٢٢ / ٥٢ ـ ٥٤.
(٢) سورة النجم ٥٣ / ٢٠.
(٣) انظر الزمخشري ٣ / ١٩، وكتاب مجموعة من التفاسير ٤ / ٣١٥ ـ ٣١٩.

وفي القرآن أيضا قوله : « ... واما ينسِينك الشيطان، فلا تَقْعد بعد الـذِكرى » [٤] . معنى ذلك : وان أنساك الشيطان بعض ما اُنزِلَ عليك، فلا تَقْعد حتى يذكّرك ا بهِ ... ويفسر الزمخشري بقوله : « إن شِغلَك يا محمد بوسوسةِ الشيطان حتى تَنْسى النهي عـن مجالسـةِ المستهزئين من قريش، فلا تَقْعد معهم بعد أن تذكر النهي » [٥] .

إلا أن بعض المسلمين المعاصرين لا يقبلون بحالٍ من الأحوال أن يكـون للشـيطان سلطان أو تدخّلٌ في حياةِ النبي وفي وحي ا ِ إليه. لهذا يعلقُ خالد الحمصي الجوجا على مثل هذه التفاسير لأئمةِ المفسرين بقوله : « وهذا الحديث، من ناحيةِ موضوعهِ، يصادِم أصلاً من أصول العقيدةِ الإسلامية، وهـو عصمةُ النبي من أن يدِس عليه الشيطان شـيئًا فـي تبليـغ رسالته » [٦] . وهو يحيلنا إلى تفسيرٍ معاصر لسيدِ قطب في « ظلالَ القرآن » حيث يعصـم النبي من دسائس الشيطان وحِيلهِ.

ولكن محمدا كان يعي تدخّلَ الشيطان في ضميرهِ ووجدانِه، فكان يلجأ مراراً وتكراراً إلى خديجة لتفسر له عما إذا كان ما يحدثُ له من ا أم من الشيطان[٧] . وقد تعجز خديجـةُ عن تفسيرِ كل شيء، أو قد لا تطمئِن كثيرا إلى تفاسيرها، فكانتْ تذهب بابن عمها إلى القـس ورقة[٨] ، وكان القس ورقة يتدبر بعلمهِ ومعرفتهِ النبي وما يحدثُ له. وكم مرةً رجع النبي إلى منزلهِ مطمئنّا » [٩] .

----

(٤) سورة الانعام ٦ / ٦٨.
(٥) الزمخشري، الكشاف ٢ / ٢٦ ـ ٢٨.
(٦) تعليق الجوجا على تفسير الجلالين، ص ٤٤٧.
(٧) انظر كتاب قس ونبي والمراجع على ذلك، ص ٥٢ ـ ٦١.
(٨) نفس المرجع، وانظر ص ٥٢ من هذا البحث.
(٩) سيرة ابن هشام ١ / ٢٢٢، تفسير الطبري ٢ / ٤٩ ...

تجاه هذا الواقع المحزن الذي كان يتعرض النبي له، أمر ا ُ رسوله بالاستعاذة، قبـل كل عملٍ وكل صلاة. ولقد يفْتُك الشيطان بالنبي فَتْكاً، ويطعنُه طعنًا، وينخَسه، ويفسِـد عليـه الوحي والتنزيل، ويستحثه على صنعِ الشر والمفاسد، ويحملُه على المعاصي ... وقـل مـع القرآن وبأسلوبه : ينزغنّه نزغاً، أي يلقى الفساد فيه ... قال : « واما (ان ما) ينْزغَنك مِن الشيطان نَزغٌ فاستعِذْ با ِ انه هو السميع العليم » (١٠) .

وعلى النبي، حيالَ أمر الشيطان معه، أن يصلّي إلى ا لينجيه من تجاربِ الشيطان : « قلْ : رب، أعوذُ بك من همزاتِ الشياطين » (١١) . وعند قراءة القرآن لا بد من الاسـتعاذة من الشيطان : « فإذا قرأتَ القرآن فاستعذْ با من الشيطان الرجيم » (١٢) . والأمر بالاستعاذة جـاء قبلَ الأمر بالاستفتاح باسمِ ا الرحمن الرحيم. وحتى اليـوم يستهل القارئ قـ ـراءته بـ « أعوذُ با ِ مِن الشيطان الرجيم » ، ثم يكملُ البسملة ...

وخشيةُ تدخّل الشيطان في الوحي لم تكن عند النبي وهما، فمحمد يرد التهمـةَ عنـه باستمرارٍ، ويدفَع عن القرآن تهمةَ دسائسِ الشيطان فيه. يقول : « وما تنزلّتْ به الشـياطين، وما ينبغي لهم، وما يستطيعون. إنّهم عن السمع لمعزولون » (١٣) . ويقول أيضا : « وما هو بقول شيطانٍ رجيم » (١٤) ، وأيضا : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنسِ والجـن، يوحي بعضهم إلى بعضٍ زخرفَ القول غروراً. ولو شاء ربك ما فَعلُوه » (١٥) .

---

(١٠) سورة فصلت ٤١ / ٣٦.
(١١) سورة المؤمنون ٢٣ / ٩٧.
(١٢) سورة النحل ١٦ / ٩٨.
(١٣) سورة الشعراء ٢٦ / ٢١٠ ـ ٢١٢.
(١٤) سورة التكوير ٨١ / ٢٥.
(١٥) سورة الانعام ٦ / ١١٢.

*****

لو أن للشيطان سلطانًا على النبي وحسب، لَهان الأمر، فالنبي إنسان كسائر الناس، له أمياله وشهواتُه ورغَباتُه وأهواؤُه الطبيعيةُ كلها كاملةٌ. إنّه أيضا كسـائر الأنبيـاء والرسـل، يتعرض لمفاسدِ الشيطان وحِيلِهِ، فالملائكة في الجنّةِ نَزغَ الشيطان بينهم، وآدم أسقطَه الشيطان في حبائِله، وداوود وسليمان وأيوب ومعظم النبيين حثهم الشيطان إلى المعاصي ... والمسيح، فيما هو بنظر المسيحيين إله كلّي الكمال، جربه الشيطان في البرية ... ومحمد لن يكون أحسن حالاً منهم ... إنّه أمر واقع لا محالة.

الاّ أن للشيطان تدخّلاً في القرآن! له كلام مدسوس في كلام ا ! أو أقلـه يخْشَـى أن يكون له ذلك، لأن النبي نفسه خشي ذلك ... وخشيتُنا اليوم أكبر. أهي محنةٌ لنا من ا لكـي نعملَ باستمرارٍ على تمييز الحق من الباطل! أهي رفعةٌ للإنسان لكي يكون متأهبا حذِرا! أهي فضيلةٌ للإنسان بأن يسعى إلى طردِ الشيطان كل مرة قام للصلاة!

ما رأي المسلمين اليوم إذا كان هذا الشيطان المسكين هو نفسه الإنسـان المتشـيطِن! أليس الإنسان بحِيلِهِ أمهر من أمهر شيطان! الحقيقةُ إن ذكاء الإنسان أوجد الشـيطان ليـريح صاحِبه. بهذا رفع عنه مسؤوليةَ كل شر وفساد. ولعل الشيطان الرجيم أسود وجهه لكثرةِ مـا حملّه الإنسان من شروره! من يدري إذا لم يكن الشيطان قابعا في نفس كلّ إنسـانٍ يدغدِغُـه ليتحملَ عنه مسؤوليةَ شرهِ! في ظنّي أن أجملَ ما خلقَ ا هو الإنسان، وأجمـلَ مـا خلـقَ الإنسان هو الشيطان. وقد يتحملُ محمد نفسه ما دسه الشيطان في كتابِ ا .

خاتمة الفصل

إن من يستعرض حياةَ النبي محمد في صخَبِها ونشاطِها وكثرةِ التحركِ فيها ليُعجـب تمام العجب من رجلٍ « أمي » يجهلُ الكتابة والقراءة ـ على ما يقوله المسـلمون ـ كيـفَ استطاع حِفْظَ ٦٦٣٦ آية مؤلّفة من ٧٧٩٣٤ كلمة ومن ٣٢٣٦٧١ حرفًا ... لو لم يكن هناك معجزةٌ من السماءِ لما استطعنَا فهم حدثٍ هو بهذه الأهمية في التاريخ البشري!

لقد تمتِ المعجزةُ رغم صعوباتٍ عديدة. ولكثرةِ الصعوبات كانت المعجزة. فبعد الذي رأيناه من ضعفٍ في ذاكرةِ النبي وعقلِه، ومِن نَسخِه بعض الآيات ليأتي بغيرها، ومن تـدخّل الشيطان ودسه في الوحي الإلهي، ومن إجازةِ محمد للتبديل في الوحي بحسبِ ضعفِ الإنسان العربي ووهن طبيعتِه وكثرةِ أهوائها وأميالها ... كلّ هذه جعلتِ المعجزةَ جائزةً بـل واجبـةً على ا ـِ، لكي يتمكّن محمد من حفظِ كل الوحي.

وبعد حياة كانت مليئةً بالحروبِ والغزوات والجهادِ والمغانم والأسـرى والسـبايا... وبعد حياة بيتية فقيرةٍ تعيسة، تتعـدد فيهـا الزوجـاتُ والنسـاء فتتعـدد طبعـا المشـاكلُ والخصومات... وبعد هجراتٍ إلى الحبشة مرتين وإلى الطائفِ ثم إلى المدينة، والهربِ لـيلاً بخدعة ماكرةٍ لكفّار قريش... بعد كلَ هذا الصخَب لا بد من معجزة لكي يتمكّن النبي من حفظ ما يوحي ا إليه...

إن مثل هذه المعجزة اقتضت من ا أن يفَرغ جبريلَ من كل عملٍ أو رسالةٍ أو مهمة ليتفرغَ لمحمد. وقد اقتضى لجبريل ثلاثٌ وعشرون سنة ينزلُ القرآن فيها منجماً، آيـةً آيـةً، ليتمكّن محمد من حفظها. وكم نَحسد صبر جبريل وتَصبره على رجلٍ أمي يلقـن كـلام ا ويتعلم كل ما عند ا من علوم وقوانين ...

ليس منا من ينكر قولَ ا تعالى : « إنّا نحن نزلنا الذكر وانّا له لحافظون » (١٥ / ٩)، ولكن هل هذا يعني أن محمدا حفظَ الذكر كله بقـوةِ عقلـهِ واتّقـادِ ذاكرتـه، أم إن ا َ استحفظَه اياه، فكان محمد وفياً لما استحفظَه من جبريل، ولم يبدلْ فيه، بمعجزةٍ لا مثيلَ لهـا، أمرا من أمور الوحي! إن المعجزةَ تمت ولكن لا نعرف كيف وأين!

هناك معجزة وهي ذاك « اللوح المحفوظ » . ولكن هذا اللوح يحفظ الوحي حفظاً تاماً كاملاً. وكل مرة كانتِ الذاكرة تخون محمداً كان محمد يرجع إلى ذلك اللوح، فيقرأ وينزل منه ما يناسب ... ومن السهل على المسلمين القول بأن هذا اللوح موجود في « الأفق الأعلى » ، ولكن ليس من السهل علينا الوصول إلى « الأفق الأعلى » قبل البحث في هذا الأفق التاريخي الأدنى لنرى حقيقةَ معجزةِ حفظ القرآن!

وبتعبير أوضح : إن المسلمين المؤمنين يستطيعون رؤيةَ المعجزة أينما أرادوا : أكان ا هو الذي حفظَ القرآن! أم جبريل! أم محمد! أم استحفظَ ا ُ وجبريلُ محمداً وسهرا عليـه! كلّ هذه معجزة. والمعجزة الكبرى أن يكون القرآن محفوظاً، لا في ذاكرةِ النبي وعقلِهِ، بل في كتابٍ سابقٍ وجِد في مكّة بين يدي القس ورقة بن نوفل وهو « الإنجيل العبراني » . فالثقـة بالكتاب في مجال حفظِ الوحي هي أفضل من الثقة بذاكرة إنسانٍ ضعيفٍ ...

الفصل الرابع

معجزة حفظ الصحابة للقرآن

أولاً ـ تخلّف الصحابة عن كل القرآن

ثانياً ـ حديث الأحرف السبعة

ثالثاً ـ حفّاظ القرآن

[Blank Page]

مقدمة الفصل

في اعتقاد المسلمين أن القرآن الذي أُنزلَ بمعجزة، وحفظ بمعجـزة، سيسـتمر فـي التاريخ بمعجزة : فالصحابةُ حفِظوا القرآن، كل القرآن، لم يضيعوا منه آية، ولم ينسوا منـه كلمة، ولم يبدلوا فيه حرفاً، ولم يتَدخّل الشيطان بحِيلهِ ليدس عليهم شره، كما تدخّلَ في النبي؛ لأن الشياطين أخذتْ نصيبها من النبي، واستطاع النبي عليها الغلَبة، وهو لها؛ فيما الصحابةُ قد نَجوا من مداخلةِ الشيطان خشيةَ سقوطِهم بتجاريه وحِيلهِ، وليستْ لهم عليـه قـدرة ... لهـذا استحق الصحابةُ والتلاميذُ مِن ا ـ عصمةً قد توازي عصمةَ النبي نفسِه. وبهذه العصمةِ حفظُوا القرآن من كل تبديلٍ وتصحيف ...

إن معجزةَ حفظِ الصحابة للقرآن توازي معجزةَ التنزيل وحفظِ النبي نفسه. ولا فضلَ للنبي إن كان على الوحي أمينًا وفياً صادِقاً، انّما كل الفضل يعود لناسٍ ضعفاء، لهم أميـالُهم وخلافاتُهم السياسية، ويحفظون كتاب ا من غيرِ تحريفٍ أو تزييف ... ومع هـذا فـان ا َ يضمن عصمةَ هؤلاء ويصطفيهم من خيرةِ العبادِ ويورثُهم كلمتَه ليؤدوها بأمانة. جـاء فـي الآية: « ثم أورثْنَا الكتاب الذي اصطفَينا من عبادِنا » [1] . هؤلاءِ الورثـة يحـافظون علـى القرآن حفاظَهم على أولادِهم ومقدساتِهم. وكلّما سمِعوا منه آيةً

----
(١) سورة غافر ٤٠ / ٢ ـ ٣.

انحنوا أمامها ساجدين : « انّما يؤمن بآياتِنا الذين إذا ذُكروا بها خَروا سجداً، وسبحوا بحمـدِ ربهم » [٢] .

هذه القدسية لن تبرح، في نفوسِ المسلمين، نشيطةً وقّادةً مدى الدهر، لأن « القـرآن سر السماء، فهو نور ا في أفقِ الدنيا حتى تَزول، ومعنَى الخلودِ في دولةِ الأرضِ إلـى أن تَدول » [٣] . ولئن كانتْ معجزةُ القرآن الأولى في بيانِه وسحرِه، فمعجزتُه الثانية هي بخلودِه واستمراريتهِ[٤] .

ولكنّنا، إذا تخطّينا هذا السحر الخالِد، وتوقّفنا على سر حفظِ القرآن وكيفيته، لا بد لنا أن نسأل : هل حفظَ الصحابةُ كلَ القرآن ؟ أم نَسوا منه شيئاً! هل أجمعوا على ما حفظوا، أم انّهم اختَلفوا فيما جمعوا! وبمعنى آخر : هل عصم ا ُ الصحابةَ من التحريفِ والتبديل والزيادةِ والنقصان، كما عصم الرسول، أم ان الأهواء البشريةَ والمصالح السياسيةَ والأميالَ الشخصيةَ استبدتْ بهم وساهمتْ في عمليةِ حفظِ القرآن ؟

إن جواب الإيمان والوحي والأتقياء من المسلمين لا مشكلَة فيه : ا ُ عملَ ويعملُ على حفظِ كتابهِ. ولكن جواب التاريخ يضعنَا أمام عصمةِ أكثر مِن أربعين رجلاً متعهم المسـلمون بالعصمة. هؤلاء، رغم خلافاتِهم المعروفة، وانتماءاتِهم القَبَلِيةِ المتنافِسة، واتّقادِ العصبياتِ فيما بينهم ... ينعمون بعصمةِ ا ، ويجري ا ُ على ألسنتهم وأيديهم معجزةً لا مثيلَ لها في تاريخ العالم ... كل شيء في الإسلام معد لأن يحفظَ ا ُ كتابه، مهما كلّفَه الـثمن مـن المعجـزات والعجائب ... فالأمر في غاية الأهمية. ولننظر :

---

(٢) السجدة ٣٢ / ١٥ ، انظر : ١٩ / ٥٨ ، ٢٥ / ٧٣ ، ١٧ / ١٠٧.
(٣) الدكتور مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن، ص ٣١.
(٤) ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٤٤.

أولاً ـ تخلّف الصحابة عن كل القرآن

في إيمان المسلمين أن الله حفظ القرآن من كل نقصٍ أو زيادة، ومن كل عِوج واختلاف ... ولكن في تاريخ المسلمين إشاراتٍ واضحةً صريحةً إلى ما في القرآن من نقصٍ وزيادة ونسيان وتصحيف وتغيير ... واحتكم المسلمون، لحل هذا الخلاف، إلى معجزةٍ أجراها الله في الصحابة فعصمهم من كل ما يتّهمهم به التاريخُ من نواقص في كتابِ الله العزيز ... وليس لنا، أمام مشكلةٍ عويصةٍ ودقيقةٍ كهذه، أي حل يرضي الإيمان والتاريخَ معاً. جلّ ما لدينا استعراض المسألة، من وجهتها التاريخية، التي يجهلُها معظم المسلمين، والتي يخفِيها علماء الشريعةِ ببراعةٍ لا مثيلَ لها، وقد يفسرون ما فيها بحنكةٍ ترى معها وفاقًا تاما بين ما في الإيمان ومعطياتِ التاريخ ... ولن يعجزنَا الرجوع إلى النصوص كما هي، فهي الحكَم، وإليها الاحتكام. ومن يقرأْ ويفهم يدرك بعد المعجزة.

*****

عن نافع عن ابن عمر قال : « لا يقولن أحدكم قد أخذتُ القرآن كُله. وما يدريه ما كُله! قد ذَهب منْه قُرآن كثِير. ولكن لِيقُلْ قد أَخَذْتُ منه ما ظَهر » [5] .

----

(5) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ٢ / ٢٥.

* قال عمر لعبد الرحمن بن عوف : « ألم تجد في ما أُنزِلَ علينا : أن جاهدوا كمـا جاهدتم أول مرة! فانّا لا نجدها! قال : أُسقِطَتْ فيما أُسقِطَ مِن القُرآن » [٦] .

* وعن ابن سفيـان الكلاعي أن مسلمة بن مخلد الانصاري قـال لهـم ذاتَ يـوم: « أخبروني بآيتَين في القرآن لم يكْتَبا في المصحف. فلم يخْبِروه » [٧] .

* وروي عن أُبي بن كعب، باخراج الحاكم، أن رسولَ ا ـِ قالَ لي : ان ا ـَ أمرني أن أقرأَ عليك القرآن، فَقَرأَ ... ومن جملةِ ما قرأَ ـ ما لا نجده في المصحفِ اليوم ـ : « لو أن ابن آدم سألَ وادِيا من مالٍ فأعطيه. سأله ثانياً. وإن سألَ ثانيا فأُعطيه. سأله ثالثاً. ولا يمـلأُ جوفَ ابن آدم الاّ التراب. ويتوب ا على من تاب ... » [٨] .

* وروي عن أبي موسى الأشعري، قال : « كنّا نقرأُ سورةً نشبهها بإحدى المسبحات مما نَسينَاها. غير أنّي حفظتُ منها : يا أيها الذين آمنوا! لا تقولوا ما لا تفعلون، فتكتب لكـم شهادةٌ في أعناقِكم، فتُسألون عنها يوم القيامة » [٩] .

* وجاء عن مسلم « إن أبا موسى الأشعري قال مرة لخمسمائة من القراء بالبصرة : انّا كنّا نقرأُ سورةً بطول السهم وحدها. أما الآن فَقَد نَسِيتُها ما عدا بعض آياتٍ منها... » [١٠].

----

(٦) الاتقان في علوم القرآن ٢ / ٢٥.
(٧) نفس المرجع.
(٨) نفس المرجع.
(٩) نفس المرجع.
(١٠) أوردها الأستاذ الحداد في القرآن والكتاب ٢ / ٢٠٥.

* عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : « كانتْ سورةُ الأحزابِ تُقْرأُ في زمن النبي مائتَي آية. فلما كتَب عثمان المصاحفَ لم نقدر منها الا ما هو الآن » (أي ٧٣ آية فقط)[١١] .

* وعن أُبي بن كعب أنّه سأل در بن حبيش : « كم تَعد سورةَ الأحزاب ؟ قال : اثنتين وسبعين آية، أو ثلاثة وسبعين آية. قال : ان كانتْ لَتَعدِلَ سورةَ البقرة (أي ٢٨٦ آية). وانّا كنّا لنقرأ فيها آيةَ الرجم. قال : وما آيةُ الرجم ؟ قال : « إذا زنى الشيخُ والشيخةُ فارجموهما البتة نكالاً من ا . وا عزيز حكيم ... » [١٢] .

* وعن حميدة بنت أبي يونس قالت : « قرأَ عليّ أَبِي وهو ابن ثمانين في مصحفِ عائشة : « إن ا وملائكتَه يصلّون على النبي : يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً وعلى الذين يصلّون في الصفوفِ الأولى » ... قالت: وذلك قَبل أَن يغِير عثمان المصاحِف » [١٣] .

* أما مجموع سور القرآن، فهي الآن ١١٤ سورة؛ ولكنّها كانت في مصحف ابن مسعود مائة واثنتي عشرة سورة، « لأنّه لم يكتبِ المعوذَتَين » ، وفي مصحف أُبي بن كعب مائة وستّ عشرة سورة، « لأنه كتب في آخره سورتَي الحفْدِ والخَلْع » [١٤] ، وفي مصحفِ علي بن أبي طالب زيادة سورة « النُورين » وتغيير في موضعِ السور والآياتِ ... الخ[١٥] .

---

(١١) الاتقان ٢ / ٢٥.
(١٢) انظر ما جمعه محمد دروزة عن نصوص آية الرجم المختلفة، في كتابه القرآن المجيد، ص ٥٨.
(١٣) الاتقان ٢ / ٢٥.
(١٤) الاتقان ١ / ٦٥ ، انظر فيها نصي سورتي الحفد والخلع.
(١٥) انظر نص سورة النورين في دروزة، القرآن المجيد، ص ٦٠ ـ ٦١. وانظر أيضا فصلي الاتقان ١ / ٦٤ ـ ٧٠ و ٢ / ٢٢ ـ ٢٦.

* وهكذا أيضا نجد اختلافًا واسعا في قراءة كثيرٍ من الآياتِ التي نعجز عن حصرها. ومن أراد اثباتًا وتبيانًا فليرجع إلى السيوطي في كتابه الاتقان في علوم القرآن. ومن أراد مثلاً بسيطًا عليها سهلَ المنال فليقرأ محمد عزة دروزة، القرآن المجيد، ص ٦١ ـ ٦٢ ... الخ.

*****

لم يعجز المسلمين وجود حجةٍ إلهيةٍ لتفسير هذا الخلاف الكبير فـي كتـاب ا ! لقـد فسروا ذلك بقولهم : بالنسخ، وقد أشرنا إليه، وبأن ا تدخّلَ في ذاكرةِ الصحابة فأنساهم مـا يجب أن ينسوا. ومن ذلك قول أبي بكر الرازي الذي أكّد بأن ا ينسِي الصحابةَ ما يريـد أن ينسِيهم إياه، ويرفَعه من أوهامِهم، ويأمرهم بالإعراضِ عن تلاوته، وكَتْبِهِ فـي المصـاحف، فيندرس على الأيامِ كسائرِ كتبِ ا ِ القديمةِ التي ذكرها في كتابه في قوله : « إن هـذا لَفِـي الصحفِ الأولى صحفِ ابراهيم وموسى » (١٦) ، ولا يعرفُ اليوم منها شيء » (١٧) .

لئن كان النسيان نقصا في ذاكرة البشر، فانّه، لدى الصحابةِ، نعمةٌ الهيةٌ ومعجزةٌ من السماء. يتدخّلُ ا ُ لينسيهم ما يجب أن ينسوه، ويرفَع من أوهامِهم ما يجب أن يرفَع! إن ذلـك أمر لا يدرك بعقلٍ بشري محدود الآفاق! وحده ا يجعلُ من النقصِ فضيلةً، ومـن النسـيان معجزةً، ومن التخلّفُ رقِيا، ومن النسخ والتحريفِ حِكْمةً، ومن الضعفِ قوةً ... وليس علينا، نحن المساكين العاجزين، الاّ التمسك بالإيمان والخضوع!!!

******

----
(١٦) سورة الأعلى ٨٧ / ١٨ ـ ١٩.
(١٧) الاتقان ٢ / ٢٦.

ثانياً ـ حديث الأحرف السبعة

بسبب نسيان صحابة النبي بعض آيات القرآن، وبسببٍ ضـعفِ ذاكـرتهم، وبسـببٍ تخلّفهم عن كثيرٍ مما نُسِخَ وبدلَ، وبسببٍ بعضِ التحريف والتصحيف ... أوجـد المفسـرون للقرآن والمحدثون بأحاديثِ النبي حديثًا طريفًا وخطيراً على لسان محمـد، وأجمعـوا علـى صحته. جاء فيه قوله : « أُنْزِلَ القرآن على سبعةِ أحرف » . وهو حديثٌ شائع متواتر، نقلته جميع كتبِ الحديثِ والتفسيرِ والتاريخ، وأجمع عليه أحد وعشرون صحابياً ثقة[١] .

وأُضيـفَ على هـذا الحديثِ توضيحـاتٍ متعددةً ومختلفة. فمنهـم من زاد علـيه: « ... فاقرأوا ما تيسر منها » . ومنهم : « ... كلها شافٍ كافٍ ... أيها قرأتَ أصبتَ. فمـن قرأ منها حرفًا فهو كما قرأ. فأيما حرفٍ قرأوا فقد أصابوا ... كلّها شافٍ كافٍ ما لم يختم آيةَ عذابٍ برحمةٍ، أو آيةَ رحمةٍ بعذاب ... » الخ[٢] .

---

(١) يعدد السيوطي أسماء من أجمعوا على صحة الحديث : أبي بن كعب، أنس، حذيفة بن اليمان، زيد بـن أرقم، سمرة بن جندب، سلمان بن صرد، ابن عباس، ابن مسعود، عبد الرحمن بن عوف، عثمـان بـن عفّـان، عمر بن الخطاب، عمرو بن أبي سلمة، عمرو بن العاص، معاذ بن جبل، هشام بن حكيم، أبـي بكرة، أبي جهم، أبي سعيد الخدرى، أبي طلحة الانصاري، أبي هريرة، أبي أيوب. (الاتقان ١ / ٤٥).

(٢) انظر الطبري في تفسير ١ / ٢٠ ـ ٤٥، والشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ١٠٢، والحواشي في الصفحات ... وغير كتب حديثة.

ويبدو أن جميع العلماءِ المسلمين يأخذون بحديثِ الأحرفِ السبعة، ويعتمدون عليه في شرحِ ما تعسر تفسيره، وفي تفسير ما اختُلِفَ فيه. وقال القاضي أبو بكر بن الطيب الباقلاني في ذلك : « الصحيح أن هذه الأحرفَ السبعةَ ظهرتْ واستفاضتْ عـن رسـول ا (ص) وضبطَها عنه الأئمة، وأثبتَها عثمان والصحابةُ في المصحف، وأخبروا بصحتِها، وانّما حذَفوا منها ما لم يثْبتْ متواتِراً » [٣] .

*****

لكن اتّفاق الصحابة على صحة حديثِ الأحرف السبعة لم يظْهر، من حيث معناه، الاّ خلافًا واسعا وتناقضا بينًا في تفسيرهِ وشرحه. وقد رفَع السيوطي نحوا من أربعين قولاً متبايناً في معنى الأحرفِ السبعة. فيقول مثلاً : إن الحرفَ هو « من المشكل الذي لا يدرى معنـاه، لأن الحرفَ يصدقُ، لغةً، على حرفِ الهجاء، وعلى الكلمةِ، وعلى المعنى، وعلى الجهة » . ثم انّه « ليس المراد بالسبعةِ حقيقةَ العدد، بل المراد التيسير والتسهيلُ والسعة. ولفظُ الســبعة يطلق على إرادةِ الكثرة ... ولا يراد العدد المعين » . وهكذا ...[٤] .

*****

ومع اختلاف الصحابةِ في معنى الأحرفِ السبعة نرى المسلمين مجِدين فـي البحـثِ عما جعلَهم يختلفون في فهمِ القرآن وقراءتهِ على أوجهٍ عديدة، وكلّها صحيحة. وبذلك فسروا تعدد القراءاتِ وأجازوها، رغم تصريحِ القرآن بأنّه نزلَ بلسانٍ عربي مبين، وباعجازٍ لا مثيل له. وعندنا،

----

(٣) الزركشي، البرهان ١ / ٢٢٤.
(٤) السيوطي، الاتقان ١ / ٤٥ ـ ٤٩.

في كتب التفاسير والأحاديث، أمثلةٌ واضحةٌ كثيرةٌ عن اختلافِ القراء بحضرة النبي نفسِه في مختلف طرقِ القراءة وقد أجازها النبي كلها.

* ويعطينا البخاري ومسلم صورةً عن هذا الخلاف، فيقول البخاري : « إن عمر بن الخطاب (ر) قال: « سمعتُ هشام بن حكيم يقرأُ سورةَ الفرقان في حياةِ رسول ا (ص)، فاستمعتَ لقراءته، فإذا هو يقرؤَها على حروفٍ كثيرةٍ لم يقْرِئْنِيها رسول ا (ص)، فكـدتُ أساوره في الصلاة، فانتظرتُه حتى سلّم، ثم لَببتُه بردائِه أو بردائي، فقلتُ : من أقْـرأك هـذِهِ السورةَ ؟ قال : أقرأنيها رسول ا (ص). قلتُ له : كَذِبتَ، فـوا ِ ان رسـولَ ا (ص) أقرأني هذه السورةَ التي سمعتُك تقرؤُها، فانطلقتُ أقوده إلى رسول ا (ص)، فقلـتُ : يـا رسولَ ا ، إنّي سمعتُ هذا يقرأُ بسورةِ الفرقان على حروفٍ لم تُقْرِئْنِيها، وأنت أقرأْتَني سورةَ الفرقان! فقالَ رسولُ ا (ص) : أرسِلْه يا عمر، إقرأْ يا هشام. فقرأَ هذِهِ القراءةَ التي سمعتُه يقرؤُها. قال رسولُ ا (ص) : هكذا أُنزِلَتْ. ثم قال رسول ا (ص) : إن هـذا القـرآن أُنزِلَ على سبعةِ أحرفٍ. فاقرؤوا ما تَيسر منه » [(٥)] .

يعلّقُ الأستاذُ الحداد على هذا الحديث بقولِهِ : « هذا الحديثُ يشعِر بأن الاختلافَ فـي النص بلغَ مبلغًا كاد منه عمر أن يقتلَ صاحبه، ويشهد بأن الاختلافَ في القراءة، ليس فقط من القراءِ، بل هو أيضا من النبي نفسِه الذي يثبت قراءتَين ونصين معا. وهذه القصةُ تجري مـع عمر نفسِه الذي سوفَ يشير بتوحيدِ النصِ عند استفحال الأمرِ في زمن أبي بكر. فـالاختلافُ في النص يعود إلى النبي وأركان صحابته » [(٦)] .

---

(٥) صحيح البخاري ٦ / ١٨٥، انظر تفسير الطبري ١ / ١٠، ومسند أحمد ١ / ٢٤، والبرهـان١ / ٢١١، والاتقان ١ / ٤٩ ...
(٦) الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب ٢ / ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

* وينقل إلينا الطبري عن زيد بن أرقم هذه الرواية : « جاء رجلَ إلـى رسـول ا (ص)، فقال : أقرأَني عبد ا بن مسعود سورةً، أَقرأَنيها زيد، وأقرأَنيهـا ُأبـي بـن كعـب، فاختلفتْ قراءتهم. فبقراءةِ أيهم آخذ ؟ قال : فسكتَ رسولُ ا (ص)، وعلِي إلى جنبِهِ، فقالَ علِي : لِيقْرأْ كلُّ انسانٍ كما علم. كل حسن جمِيل » [٧] .

* وروي عن ُأبي بن كعب قال : « دخلتُ المسجد فصلّيتُ فقرأتُ (سورةَ) النحـل. ثم جاء رجلان فقرآها خِلافَ قراءتِنا، فدخلَ نفسي مِن الشك والتكذيبِ أشد ممـا كنـتُ فـي الجاهلية. فأخذتُ بأيديهما، فأتيتُ بهما النبي (ص)، فقلتُ : يا رسولَ ا ، استقرِئ هـذين. فقرأَ أحدهما فقال : أَصبتَ. ثم استقرأَ الآخر، فقال : أَصبتَ. فدخلَ قلبي أشد مما كـان فـي الجاهلية من الشك والتكذيب. فضرب رسولُ ا (ص) صدري، وقال أعاذَك ا من الشـكِ وأَخْسأَ عنك الشيطان » [٨] .

*****

هذا قليل جداً مما رواه مسلم والبخاري والطبري والسـيوطي وأحمـد فـي مسـنده والزركشي وغيرهم في اختلاف الصحابة في قراءة القرآن. وقد كرس حـديثُ « الأحـرف السبعة » ، الذي أوجدوه على لسان النبي، هذا الخلافُ بينهم. كما اعتمدوا، على النبي نفسِه، لتكريس هذا الخلاف. فمحمد نفسه أجازه، وسمح لصحابتِهِ بتعددِ القراءات.

فجاء على لسان أَبي العالية حديثٌ قال فيه : « قرأَ على رسول ا (ص) من كـل خمسةٍ رجلٌ، فاختلفوا في اللغةِ، فرضي قراءتهم كلهم » [٩] .

----
(٧) تفسير الطبري ١ / ٢٥.
(٨) نفس المرجع ١ / ٢٥.

ويبدو أن بعض الصحابة قرروا هذا الخلافَ ورضوا به وحرضوا على البقاء عليه. روي عن ابن مسعود قوله : « من قرأ منكم على حرفٍ فلا يتحولن منه إلى غيره » [١٠] . ويبدو أيضا أن رسولَ ا توسع في تغيير بعض كلماتٍ وتبديلها عندما سأله سائل ماذا يكتب : « أعزيـز حكيم ؟ أو سميع عليم ؟ » ، فقال الرسول : « أي ذلك كتبتَ فهو كذلك » [١١] .

كل هذا « يفيد أن القرآن لم يكن في كتابتِهِ ومصاحِفِه وصحفِهِ المتداولةِ، وفي قراءتِه، محررا، بحيثُ يؤمن معه ذلك الخلاف » [١٢] . ويفيد أيضاً أن الاحتكام إلى النبـي لـم يجـدِ الصحابةَ المختلفين نفعا، لأن الرسولَ « أمر كلَ امرئٍ منهم أن يقرأَ كما علـم حتـى خـالَط بعضهم الشك في الإسلام لما رأى من تصويبِ الرسول قراءةَ كل قارئٍ علـى خِلافِهـا مـع غيرها » [١٣] .

وتفيد أيضاً، على ما علّقَ الطبري على الآية : « أفلا يتدبرون القرآن » [١٤] ، بـأن الخلافَ كان بين الصحابة لا على الألفاظِ والمباني بل على المعاني والأحكامِ. قال : إن هـذه الآية إنّما « تقصد اختلافَ المعاني والأحكام، لا اختلافَ الألفاظِ والتعابير، بـدليل اخـتلافِ الصحابة، كل في قراءتِه، وتصويبِ النبي لهم جميعا » [١٥] . ولو كان الاختلافُ في الألفـاظِ وحسب، لِمـَا « خالَط بعضهم الشك في الإسلام » [١٦] ، ولمـَا اقتتلوا فيما بينهم [١٧] ، ولما « اختُلِفَ في معنى هذا الحديثِ على نحو أربعين قولاً » [١٨] ...

---

(٩) تفسير الطبري ١ / ٥٤.
(١٠) نفس المرجع ١ / ٥١ و ٥٢.
(١١) نفس المرجع ١ / ٥٤.
(١٢) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٦٢.
(١٣) تفسير الطبري، ١ / ٤٨ ـ ٤٩.
(١٤) سورة النساء ٤ / ٨٢.
(١٥) تفسير الطبري ١ / ٤٨.

ومع هذا الاختلاف الواضح والخطير، لا بد من التنبيهِ إلى موقـف بعـضِ العلمـاء المسلمين الذين يصرون على أن الاختلافَ هو في الألفاظِ والتعابير، لا في المعاني والأحكام. وعبروا عن ذلك بقولهم : إن اختلافَ اللفظِ لا يحده سوى تناقض المعنـى، مثـل أن تجعـلَ المغفرةَ عذَابا، والعذاب مغفرةً. فيكون المقصود، عندهم، المحافظةَ على سلامةِ المعنى ولـو اختلفتِ الألفاظ ...

*****

ولكنّنا نسأل : كيف يتفق حديثُ الأحرف السبعة، بمعانيه المختلفة، مع معجزةِ إعجاز القرآن، ومعجزة حفظهِ ؟ ثم، لئن سلّمنا بصحةِ الأحرفِ السبعة ونسبتِها إلى النبـي، فلمـاذا، اذن، أسقَطَها عثمان بن عفّان، ومنع تلاوتَها ؟ ويؤكّد الطبري بقوله : « إن الأحرفَ السـتة الأُخُر أسقَطَها عثمان، ومنع تلاوتَها، ولا حاجةَ بنا إلى معرفِتها » ، « لأن الحكمة في جميع الناس على حرفٍ واحد، والصواب ما فَعلَ عثمان » (١٩) .

ولو كانتِ الأحرفُ السبعةُ رخْصةً نبوية، فلماذا اقتتلَ الناس بسببها ؟ ونحن نسمع عن أنس بن مالك هذه الرواية، قال : « اختلفوا في القرآن على عهدِ عثمان حتى اقتتـلَ الغلمـان والمعلّمون. فبلغ ذلك عثمان بن عفّان فقال : « عندي تَكذِبون به، وتَلحنون فيه ؟! فَمن نـأى عنّي كان أشد تكذيباً، وأكثر لَحنًا. يا أصحابِ محمد اجتمعوا، فاكتبوا للناسِ إماما. فاجتمعوا

----

(١٦) تفسير الطبري، ١ / ٤٧ و ٥٣.
(١٧) الاتقان ١ / ٥٩.
(١٨) الاتقان ١ / ٤٥.
(١٩) تفسير الطبري، ١ / ٦٦، و ٦٣.

فكتبوا. فكانوا إذا اختلفوا وتدارءوا في أي آية قالوا : هذه أقرأها رسـولُ ا (ص) فلانًـا، فيرسلُ إليه، وهو على رأسِ ثلاثٍ من المدينة، فيقال له : كيف أقرأك رسولُ ا (ص) آيةَ كذا وكذا، فيقولُ : كذا وكذا، فيكتبونها، وقد تركوا لذلك مكانًا » [٢٠] .

ثم أيضا لو كانتِ الأحرفُ السبعةُ مرخّصةً من النبي، فلماذا تخوفَ حذَيفَة و « قـال لعثمان أَدرِكِ الأمةَ قبلَ أن يختِلفوا اختلافَ اليهودِ والنصارى » [٢١] .

*****

وبالنتيجة، لا بد من التسليمِ بصحة هذا الحديث، لإجماعِ المسلمين عليه؛ ولا بد أيضا من إيجاد معنى له يتّفقُ فيه جميع المسلمين؛ لأن مثلَ هذا الحديث هو « بـلا ريـبٍ أخطـر نظريةٍ في الحياة الإسلامية، لأنها أسلمتِ النص القرآني إلى هوى كل شخصٍ يثبتُه على مـا يهواه » [٢٢] .

وفي رأي المسلمين اليوم، إن الرسول « وسع على المسلمين في أول الأمر، وراعى التخفيفَ على العجوزِ والشيخ الكبير، وأَذِن لكلٍ منهم أن يقرأَ على حرفِهِ، أي على طريقتهِ في اللغةِ، لِما يجده من المشقةِ في النطقِ بغير لغته ... فالمراد من هذه الأحرف السـبعة ـ وا ُ أعلم ـ الأوجه السبعة التي وسع بها على الأمة. فبأي وجهٍ قرأ القارئُ منها أصاب. ولقد كاد النبي يصرح بهذا كلَ التصريح حين قال : « أقرأَني جبريلُ على حرفٍ، فراجعتُه فلـم أَزلْ أستعيده حتى انتهى إلى سبعةِ

----

(٢٠) الاتقان ١ / ٥٩.

(٢١) نفس المرجع، ١ / ٥٩.

(٢٢) Régis Blachère, Introduction au Coran, p. 69.

أحرف » [٢٣] .

وهكذا يرى الشيخ صبحي الصالح أن هذا الحديث « يبرز الحكمةَ الكبـرى ... ففيـه تخفيفٌ وتيسير على هذه الأمة التي تعددتْ قبائِلُها، فاختلفتْ بذلك لهجاتُهـا، وتبـاين أداؤُهـا لبعضِ هذه الألفاظ، فكان لا بد أن تُراعى لهجاتُها وطريقة نطِقِها. أما لغاتُها نفسها فلا موجب لمراعاتِها، لأن القرآن اصطفَى ما شاء بعد أن صهره في لغة قريش التي تمثّلتْ فيها لغـاتُ العربِ قاطبةً لا لغاتُ قبائلَ معينة ... » [٢٤] .

وفي رأي ابن الخطيب أن ا « أراد بلطفهِ ورحمتهِ أن يجعلَ لهم متّسعا في اللغـاتِ ومتصرفًا في الحركاتِ كتيسيرهِ عليهم في الدين » ... وقال أيضا : « والقراءاتُ انّما جعِلَتْ على ألسنةِ القبائل ولهجاتِها تلطّفًا بالناسِ وتسهيلاً عليهم وتقريبا لأذهانهم » [٢٥] .

ولكنّنا نسألُ الشيخَ وابن الخطيب : كيف توحدتِ اللغاتُ في لغةِ قريش ؟ وكيف يكون اختلافُ اللهجات ؟ ولماذا وحد عثمان الأحرفَ على حرفٍ واحد ؟ وكيف يكون الاعجاز في رخصةِ تبديل الألفاظِ في النص ؟ وكيف نزلَ القرآن « بلسانٍ عربي مبين » ؟ وكيفَ نفهـم تحدي القرآن للإنسِ والجن بأن يأتوا بسورةٍ مثل سوره ؟ وبسؤالٍ واحدٍ بسيط : كيف يكـون الاعجاز في القرآن وهو على هذا الاقرارِ الصريح بالاختلافِ والتباين ؟!

ان جواب الشيخ الوحيد هو : إن لطفَ ا ـ ورحمتَه خففا على هـذه الأمـةِ الأميـةِ الضعيفةِ المفككةِ المختِلفةِ في لغتها ولهجاتها ... وهو جواب،

---

(٢٣) صحيح البخاري ٦ / ١٨٥، الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ١٠٨ ـ ١٠٩.
(٢٤) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ١١٣.
(٢٥) ابن الخطيب، الفرقان، ص ١٣١، ٩٨.

فيه من مداراةِ أحوال البشر أكثر مما فيه من فهمِ حقيقةِ الوحي والنبوة. والحقُ يقال : إن مثلَ هذا الحديثِ النبوي « يبعثُ إشكالاً ضخما على وحدةِ القرآن مع تعددِ نصوصِه إلى سبعة، وعلى صحةِ النص العثماني بعد إسقاطِ الحروفِ الستة، وعلى أفضليةِ إعجازِ الحرفِ العثماني دون سواه. وهذا الاشكالُ الضخم تنبه له أدباء العصر، فكان أهون ما عندهم انّهم نفوه أو كادوا » [٢٦] .

لذلك قال محمد صبيح : إن « التوفيقَ بين هذه الأحاديث الكثيرةِ التي تكاد تتفقُ في معناها، وما ذكرنا من تفسيرٍ للأحرفِ السبعة عسير. ولكن لِتُفْهمِ الأحاديثُ على أي وجهٍ شاء الناس؛ اما الذي نعتقد ان مِن الخير فهمه هو عدم جواز هذا التبديل والتعديل في القرآن : فاختلافُ الناسِ في شأن أحاديثٍ جمعها المتأخّرون من المسلمين أهون بكثيرٍ من اختلافِهم في شأن نصوصِ القرآن » [٢٧] .

*****

هذا الموقف الأخير هو أيضا خطير جدا : إن مثلَ اجماعِ المسلمين على حديثِ الأحرف السبعةِ لم يحدثْ في الإسلام. على مثل هذا الحديث بنيتْ في الإسلام نظرياتٌ مرتبطةٌ بعضها ببعض، إن ألغَيتَه أو شككتَ بصحتهِ، لم تعد تعرف كيفَ تفسر آياتٍ كثيرةً في القرآن، ولم تَعد تعرف كيف تفسر « العقيدةَ والتاريخَ واللغة ... وحقيقةَ القرآن العظيم » [٢٨] ...

---

(٢٦) الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب ١ / ٢١٥.
(٢٧) محمد صبيح، بحث جديد في القرآن، ١٢٦.
(٢٨) الدكتور بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ص ٧٧.

لئن « لم تُثِر مشكلةً من مشكلاتِ البحثِ في تاريخ القرآن ما أثارتْه الأحرفُ السبعة، ولم يختلفِ العلماء في موضوعٍ مثلما اختلفوا في تفسير هذه الأحرف السبعة » [٢٩] ، فان قبولَ هذا الحديثِ، مثلُ رفضِه، فيهما خطر جسيم على معجزةٍ الهيةٍ أقرها المسـلمون قاطبـة، ألا وهي معجزةُ حفظِ القرآن واعجازِه. ومهما تفادى العلماء المشكلةَ واسـتهانوا أمرهـا فـانّهم لواقعون في فخ التاريخ الذي لا يرحم لا النبي ولا جبريله ...

وأي موقفٍ نتّخذُه من هذا الحديث، في قَبولِه أم في رفضِه، فإن معجزةَ الصحابةِ فـي حفظِ القرآن لن تسلم. في قبولِه تسليم باختلافِ النص، وفي رفضِه رفض لمـا أجمـع عليـه المسلمون. ولن نبقى، بين هذين الموقفين، حيارى. والذي يقرر موقفَنا النظر في حفّاظِ القرآن وجماعِه، هؤلاء الذين استعان بهم عثمان بن عفّان، ليحل مشكلةَ الأحرفِ السبعة، من هم، وما هي كفاءاتهم، وما علاقته بهم ؟

فان كان الدافع عند عثمان حصر الخلاف فهو اقرار بالخلاف، وان كان الدافع استباقَ ما يمكن ان يحدثَ من خلاف، فعثمان نبي آخر يستحقّ منّا التقدير والاعجاب. وبهذا لا يزال جبريلُ مستمراً في عملِه ونشاطِه وسهرِه على كتابِ ا   العزيز.

******

----

(٢٩) نفس المرجع.

ثالثاً ـ حفّاظ القرآن

في معتقد المسلمين أن النبي « كان عليه السلام سيد الحفّاظ وأولَ الجماع، وتيسر ذلك لنخبةٍ من صحابتهِ على عهدِه »[١] . هؤلاء النخبة اختُلِفَ في أسمائِهم وعددِهم وأهليتِهم. وعند البخاري نفسِه « سيدِ المحدثين وطبيبِ الحديثِ في عالَمِه »[٢] ثلاثُ رواياتٍ مختلِفَة :

ففي روايةٍ أولى قال البخاري نقلاً عن عبد ا بن عمرو بن العاص : « سمعتُ النبي (ص) يقول : خذوا القرآن من أربعة : من عبدِ ا بن مسعود، وسالمٍ، ومعاذ، وأُبـي بـن كعب »[٣] .

وفي روايةٍ ثانية نَقل البخاري عن قتادة قال : « سألتُ أنس بن مالـك : مـن جمـع القرآن على عهدِ رسول ا (ص) ؟ فقالَ : أربعةٌ كلّهم من الانصارِ : أُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قلت : من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتي »[٤] .

وفي روايةٍ ثالثة روى البخاري من طريقِ ثابت عن أنسٍ قال : « مات النبي (ص) ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت, وأبو زيد »[٥] .

- -

(١) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٦٥.
(٢) مقدمة صحيح البخاري، جزء ١، القول لمسلم صاحب الصحيح.
(٣) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ١ / ٧٠.
(٤) نفس المرجع. انظر صحيح البخاري، الباب ١٧ من مناقب الانصار.

فالأسماء الواردة في هذه الروايات الثلاث سبعة، هم : عبد ا بن مسعود، وسالم بن معقل، ومعاذ بن جبل، وأَبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن، وأبـو الـدرداء. والظاهر أن هذا العدد يعود إلى حديث نبوي يقول : « لا يعرفُ القرآن الاّ سبعة » [٦] . ولكن بعض العلماء يرون لعددِ سبعة معانٍ غير محصورة. فالسيوطي، مثلاً، يذكر من المهاجرين. الخلفاء الأربعة وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفة وسالماً وأبا هريرة وعبد ا بـن السـائب والعبادلة[٧] وعائشة وحفصة وأم سلمة. ومن الأنصار : عبادة بن الصامت ومعاذ الذي يكنّـى أبا حليمة ومجمع بن جارية وفضالة بن عبيد ومسلمة بن مخلد ... » [٨] .

ويذكر القرطبي انّه « قد قُتِلَ منهم يوم بئر معونة سبعون، وقتل في عهدِ رسـول ا صلّى ا عليه وسلّم مثلُ هذا العدد » [٩] ... وفي كتب الحديثِ والسِير أسماء عديدة يختلـفُ عدها باختلافِ الراوين[١٠] .

*****

هذا الخلاف يدعو إلى التحفّظ والريبة أكثر مما يدعو إلى الارتياح بكثرتهم. وعلـى كثرتهم نسأل : إلى أي مدى يمكننا الثقة بهم ؟ وإذا كنّا نمحض ثقتَنا بعضهم فهل بالثقةِ نفسِها يمكننا أن نأخذَ بما حفِظَه عبد ا بن أبي سرح ؟ وهو الذي بدلَ وحرف! وابن داوود يخبرنا عن كاتبٍ

----

(٥) السيوطي، الاتقان ١ / ٧٠.
(٦) عن الماوردي المتوفّي سنة ٤٥٠ هـ.
(٧) هم عبد ا بن عباس وعبد ا بن عمرو بن العاص وعبد ا بن عمر وعبد ا بن الزبير.
(٨) السيوطي، الاتقان ١ / ٧٢ ـ ٧٣.
(٩) انظر في الاتقان ١ / ٧١.
(١٠) انظر تذكرة الحفاظ ٢ / ٥، وتهذيب التهذيب ٧ / ٣١٥ وغيرهما.

آخر، دون ذكر اسمه، وقد بدل في الوحي وحرف[١١] .

ورغم كل ضعف أو نقيصة فإن حفظَ القرآن كان فضيلةَ المسلمين منذ بدء الـ دعوة. وقام الحفظُ على أساسين : حفظ القلوب، والتدوين في الرقاع. ويؤكّـ د ابـ ن الجـ زري « إن الاعتماد في نقل القرآن كان على حفظِ القلوب والصدور، أكثر مما كان على خَط المصاحِف والكُتبِ. وحفظُ القلوب هو أشرفُ خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة » [١٢] .

ويبدو أنّه، في زمن النبي، كانتِ الذاكرةُ هي المعتمد الأساسي، لأن صاحبها لا يحتاج « إلى النظر في صحيفةٍ كُتبتْ بالمدادِ الذي ينطمس ويزول إذا غُسِلَ بالمـ اء » [١٣] ، وهـ ذا معنى الحديث المروي عن مسلم قال : « قال النبي إن ربي قال لي إنّي منزلٌ عليك كتابـ ا لا يغسلُه الماء، تَقْرؤُه نائما ويقظان » [١٤] ... ولكننّا نعلم ما للذاكرةِ من أوهان.

لهذا نسأل : هل الذين حفظوا القرآن قد حفظوه كله ؟ إن أمثلةً عديدةً في كتبِ الحديث تشير إلى وهن الاعتمادِ على الذاكرةِ. فالنبي نفسه، عندما كان ماراً بالقربِ من مجتمعٍ، سمع واحدا يتلو مقطعا من القرآن فذُهِلَ وعرفَ أنه كان قد نَسِيه، وعاد إلى ذهنـ هِ بفضـ ل تلـ ك المناسبة. وهناك خبر عن ابن مسعود يقول : في زمن النبي كنّا نتلو سـ ورةً تُشَـ ابِه سـ ورةَ التوبة، وإنني لا أعرفُ منها غَيبا الاّ آيةً واحدة. تأمل آيةً واحدة مما يقرب من ١٣٠ آيـ ة!! ونعرف أيضا قصةَ آيةِ الرجمِ التي كان عمر وحده يعرفُها ... وغير ذلك[١٥] .

----

(١١) سنن ابن أبي داوود ٣.
(١٢) هو صاحب كتاب « النشر في القراءات العشر » ، انظر الاعلام ٣ / ٩٧٨.
(١٣) الزرقاني، منافع العرفان ١ / ٢٣٥.
(١٤) خرجه أبو مسلم في صحيحه.
(١٥) انظر ما سبق في « النسيان النبوي » وفي « تخلّف الصحابة عن القرآن » .

ومما يقطع بسوء الاعتماد على الذاكرة الشعور بضرورةِ كتابةِ القرآن وتدوينهِ. فلولا مفاسد الحفّاظِ لِما ألح عمر بن الخطابِ على أَبي بكر الصديق في الإسراع على جمع القـرآن وتدوينهِ، ولما تجرأ عثمان على تأليفِ اللجان لوضع مصحفٍ واحدٍ واحراق سائر المصاحف رغم انتسابِها إلى خيرةٍ من الصحابة! فلولا اختلافُ الحفّاظِ، وموتُ الكثيـر مـنهم، وتعـدد المصاحفِ، وكثرةُ الأحرفِ والقراءات ... لما أقدم أبو بكر الصديق وعمـر بـن الخطـاب وعثمان بن عفّان على صنعٍ ما لم يصنعه رسولُ ا !!!

******

خاتمة الفصل

ما زالت معجزةُ ا وملائكه الأمين جبريل مستمرة : فمِن معجزةِ تنزيل القرآن، إلـى معجزةِ حفظِ النبي رغم نسيانهِ لبعض الآياتِ أحياناً وتدخّل الشيطان مراراً، إلى معجزةِ حفظِ الصحابةِ رغم كثرتهم واختلافِهم السياسي والطبقي والاجتماعي والثقافي ... نحـن مـع ا القدير الذي لن تُعجِزه الحِيلةُ في الحفاظِ على كتابه العزيز. ونحن مع جبريـل روح القـدس الأمين، صاحبِ البعثةِ النبوية وساعي البريد النبوي الطاهر، الذي لن يتخلّى عن النبي لحظةً واحدةً، ولن يترك كتاب ا عرضةً لأهواءِ صحابةٍ قد تتحكّم بهم فضائِلُ أعـرابٍ يحرقـون مدينةً بأمها وأبيها في سبيل كلمةِ حق صدفتْ على اللسان؛ فكيفَ بهم وهم في سبيل الدفاع عن كلامِ ا !!!

لو كانتْ مهمةُ جبريل محددةً في زمنٍ معينٍ لهان الأمر عليه، ولكنّه ملزم مـن قِبـل وجدانِه الملَكي ولقدسيةِ الكتابِ أن يبقى معنا حتى النهاية ...

الفَصل الخَامس

معجزة تَدوين القرآن وجمعه

أولاً ـ جمع الرسول للقرآن

ثانياً ـ جمع أبي بكر الصديق للقرآن

ثالثاً ـ مصحف عثمان بن عفّان

مقدمة الفصل

يجمع المسلمون على أن « القرآن كُتِب كله في عهدِ رسول ا ، ولكن غير مجمـوعٍ في موضعٍ واحد، ولا مرتّب السور » [١] . ويجمعون أيضا على القول بأن القرآن جمِع ثلاثَ مرات : إحداها بحضرةِ النبي، والثانية بحضرةِ أبي بكر الصديق، والثالثة في زمن عثمان بن عفّان[٢] .

ولكن، كم من الأسئلة تُطرح علينا في هذا المجال! وكم من علاماتِ استفهامٍ يرسِمها المتبصر بأمور الكتابِ العزيز ونشأتِه أمام وجهه! وكم من صعوباتٍ باتتْ مسلّماتُ الإيمـان عنها غبية!

هل كُتِب القرآن كله في عهدِ النبي، أم بعضه ؟ وما هو هذا البعض، ومـن كتبـه ؟ ومتى كُتِب ؟ وإذا كان النبي « أمياً » لا يعرفُ القراءةَ ولا الكتابةَ، فهل الذين سمِعوا القـرآن مِن فمِ الرسول كانوا يكتبونه حرفياً، أم إن خلافـًا بين كاتبٍ وآخر حدثَ بعلـمِ الرسـول أو بجهلِهِ ؟ ثم هلْ رتِّبتْ سور القرآن وآياتُه أيام محمد، أم أنّها من عمل الصحابةِ؛ والمسـلمون يقرون بترتيبٍ زمني للقرآن يختلفُ عن ترتيبه الحالي ؟

وهناك سؤال آخر يمكننا افتراضه، وقد يكون مناسباً أكثر من سواه، وهو : هل يعقَل أن يكون القرآن، أو بعضه، سابِقًا لمحمد ؟

---

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١ / ٥٧.
(٢) نفس المرجع، ١ / ٥٧ و ٥٩.

وإذا كان قسم من القرآن سابقاً على النبي فما هو هذا القِسم ؟ ومن كتبه ؟ وهل من دليلٍ عليه ومرجع ؟ وإذا ثبتَ ذلك، أيكون قرآن محمد نقلاً أو ترجمةً له ؟ وما هو مدى مطابقـةِ هـذه الترجمة للأصل ؟ وهل يتعين لدينا هذا الأصل ؟ وبأيةٍ لغةٍ كان ؟ ومن وضعه بلسانٍ عربـي مبين، في حال كان بلغةٍ أعجمية ؟

كلّها أسئلة خطيرة، لا يجاب عليها الاّ بمعجزةٍ أخرى يكملهـا لنـا جبريـل. وا َ لا يعجزه مثل هذه المعجزة، وهو الذي تولّى ويتولّى أمر كتابه. ولا نحن غير أهلٍ لمثـل هـذه المعجزة، لأن الدين يجب أن يقوم مهما كلّف الأمر، إن لم يكن بالإقنـاع والاـين فبالسـيفِ والجهاد المقدس.

يبقى عندنا سؤال أخير : ما هي نيات الذين استجمعوا قِواهم، وألفوا اللجان، واختاروا الرجال، وموّلوا المشروع، وتجرأوا على إحراقِ الكتب والمصاحف ... ما هي نياتهم الأخيرة في جمع القرآن في مصحفٍ واحد ؟ هل في البـال وضع حد للاختلاف، أم محاولـةٌ لصـد خلاف ؟ وما وراء ذلك ؟ هل توحيد العقيدةِ والشريعة، ومِن ثم توحيـد الشِـيع والأحـزاب والقبائل والعصبيات ؟؟؟

إن ثبتَ ذلك يكون المسلمون الأولون قاموا بمشروعٍ عظيم يسـتحقّون عليـه تهنئـةَ الأجيال ومجد التاريخ والنصر المظفّر ... ولكن، هل بهكذا جرأةٍ علـى تمزيـق مصـاحفِ الصحابةِ يقضى على التشيع والتحزب والعصبية ؟ وهل، فعلاً، قُضِي على الشر ؟ يقول لنـا المخبرون : ما إن توفّي رسولُ ا حتى اختلفَ المسلمون فيما بينهم : « وأول خلافٍ وقـع منهم اختلافُهم في موتِ النبي (ص)، فزعم قوم منهم انّه لم يمتْ ... ثم اختلفوا بعد ذلك في موضعِ دفنِه، فأراد أهلُ مكةَ رده إلى مكّة، وأراد أهلُ المدينة دفنَه

بها ... ثم اختلفوا بعد ذلك في الإمامة ... ثم في من يرثُ الأنبياء ... ثم وجوب مقاتَلَةِ مانِعي الزكاة ... الخ[٣] ثم بعد ذلك افترقَ المسلمون ثلاثاً وسبعين فرقة، وبعـد ذلـك تقسـموا دولاً ودويلاتٍ وأحزابا وأشتاتاً ... ولم يزل الخلافُ قائماً إلى اليوم. لكأن الجهاد الذي وصى بـه النبي على المشركين والكفار أصبح جهادا فيما بين المسلمين، وقتالَ بعضهم لبعض!

فلئن كان مشروع تمزيق المصاحفِ و « توحيدِ الكتاب » قد تم، فان مشروع وحـدةِ الأمة ما يزالُ في البال. فما هو سبب الفشل إذن ؟ ونحن نعلم أن السعي نحو الوحـدةِ، بـأي شكلٍ كان، هو مطلوب المسلمين إلى دهر الدهور!!! إن شر عثمان في تمزيق المصاحف باتَ عبئاً على ضمير هذه الأمة. فلا المصاحفُ التي كانتْ تشير إلى صورةِ المعلّمِ المحبوب تعود، ولا الوحدةُ المشتهاةُ يمكنها أن تتحقّق! لقد حدث في التاريخ تزوير وشر لن تتخطّاهما الأمـةُ لتعود إلى حقيقتِها المرجوة كما كانتْ أيام النبي العظيم ...

هذه أسئلةٌ وأمور يجب أن تعالَج في الأساس، أي منـذُ أن شـرع النبـي والخلفـاء الراشدون في القيامِ بجمع القرآن وتوحيدِ الكتاب وتدوين المصحف. فلننظر :

******

(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٤، « في بيان كيفية اختلاف الأمة وتحصيل عـدد فرقهـا الـثلاث والسبعين » ، وأيضا : مقالات الإسلاميين للأشعري، ص ٣٤ وما بعدها، ثم التبصـير لأبـي المظفـر الاسفرائيني، ص ١٢وما بعدها، والبدء والتاريخ للمطهر المقدسي ٥ / ١٢١ وما بعدها، والملل والنحـل للشهرستاني ١ / ٢١ وما بعدها ... الخ.

أولاً ـ جمع الرسول للقرآن

في إيمان المسلمين إن « القرآن كان يدون، وتُرتب آياتُه وسوره في حياةِ محمد وبأمرِه » [١] . وذلك عندما « اتّخذَ النبي (ص) كتابا للوحي ... وكان يأمرهم بكتابةِ كل ما ينزلُ في القرآن، حتى تُظاهِر الكتابةُ جمع القرآن في الصدور » [٢] . وكان يأمرهم بترتيب السور بعضِها أثر بعض، وبوضع الآياتِ في مكانِها من السور. وبذلك يكون ترتيب القرآن « تَوقِيفياً » ، أي وفْقًا على النبي، لا « تَوفِيقياً » ، أي بتوفيق الصحابة.

وعلى هذا المعتقد الإسلامي رواياتٌ ورواياتٌ في كتبِ الأخبار والحديث : لقد أخرج الحاكِم بسنَدِ شرط الشيخين عن زيد بن ثابت قال : « كنّا عند رسول ا (ص) نُؤلّفُ القرآن من الرقّاع » . وقد علّقَ البيهقي على ذلك بقوله : « يشْبِه أن يكون المراد به تأليفَ ما نَزلَ من الآياتِ المفرقَةِ في سورها، وجمعها فيها، بإشارةِ النبي وبحضرتهِ » [٣] .

وروى البخاري حديثاً عن فاطمة أن النبي أسر إليها بأن جبريلَ يعارضه بالقرآن كلَّ سنة، وأنّه عارضه في العامِ الذي تُوفي فيه مرتين. وقال لها : ولا أراه إلاّ حضر أَجلِي[٤] .

---

(١) محمد عزة دروزة، القرآن المجيد، ص ٦٤.
(٢) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٦٩.
(٣) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١ / ٥٧.
(٤) نفس المرجع ١ / ٥٠، وقد أخرجه أيضاً ابن اشتة عن ابن سيرين.

وقال البغوى في شرح السنّة : « يقال إن زيد بن ثابت شهد العرضةَ الأخيرة التي بين فيها ما نُسِخَ وما بقي، وكتبها لرسول ا ، وقرأَها عليه، وكان يقرئُ الناس بها حتـى مـات. ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعِه، وولاّه عثمان كتْب المصاحف » [5] .

*****

« وهذا يفيد ان النبي كان يستعرض القرآن جميعه في رمضـان، وانّـه استعرضـه مرتين في رمضان الأخير، وان المصحفَ الذي كتَبه زيد في عهد أبي بكر انّما كـان وفاقًـا لذلك نصا وترتيباً » [٦] .

*****

وهناك روايات لا حصر لها في ترتيب السور والآياتِ كما هي اليوم في القرآن، على انّها توقيفٌ من النبي. وكل المسلمين يجمِـع. على أن ترتيب الآيـاتِ توقيفي لا شبهةَ فـي ذلك » [٧] . وقد روى الزركشي : « أما الآياتُ في كل سـورةٍ، ووضـع البسـملة أوائِلَهـا، فترتيبها توقيفي بلا شك ولا خلاف فيه » [٨] .

وعن الإمامِ أحمد وابن أبي داوود والترمذي والنسائي وابن حيان والحاكِم عـن ابـن عباس عن عثمان قال : « فكان (الرسول) إذا نزلَ عليه شيء دعا بعض من كان يكتب له، فيقول : ضعوا هذه الآياتِ في السورةِ التي يذْكَر فيها كذا ... » [٩] .

----
(٥) السيوطي، الاتقان ١ / ٥٠.
(٦) محمد دروزة، القرآن المجيد، ٦٩ ـ ٧٠.
(٧) السيوطي، الاتقان ١ / ٦٠.
(٨) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٥٦.
(٩) السيوطي، الاتقان ١ / ٦٠.

وكذاك أخرج أحمد عن عثمان بن أبي العاص، قال : « كنت جالسا عند رسـول ا (ص) إذ شَخَص ببصره، ثم صوبه، ثم قال : أتاني جبريلُ، فأمرني أن أضع هذه الآيةَ هـذا الموضع من هذهِ السورة ... » (١٠) وعن القاضي أبي بكر في الانتصار : « لقد كان جبريـلُ يقول : ضعوا آيةَ كذا في موضع كذا » (١١) . وأخرج البخاري عن ابن الزبير عـن عثمـان قال: « لا أُغيّر شيئًا من مكانِه » (١٢) .

وقال القاضي أبو بكر : « الذي نذهب إليه إن جميع القرآن الـذي أنزلـه ا ُ وأمـر بإثباتِ رسمِهِ ولم ينسخْه ولا رفع تِلاوتَه بعد نزولِه، هو هذا الذي بين الـدفتين الـذي حـواه مصحفُ عثمان، وإنه لم ينقُص منه شيء، ولا زيد فيه. وإن ترتيبه ونَظْمه ثابتٌ على ما نَظمه ا ُ تعالى ورتبه عليه رسولُه من آي السور، لم يقدم من ذلك مؤخر، ولا أُخر منه مقدم. وإن الأمةَ ضبطتْ عن النبي (ص) ترتيب آي كل سورةٍ ومواضِعِها وعرفتّ مواقعها » . وبهذا المعنى أيضا نَقَل البغَوي في شرح السنة، وابن حصار، وغيرهم(١٣) .

*****

ولكن، إذا كنّا نجد اختلافًا في ترتيبِ الصحابةِ لمصاحِفهم الخاصـة، فهـذا، بحسـبِ الشيخ صبحي الصالح « كان اختيارا شخصِيا لم يحاولوا أن يلزموا به أحدا ... إذ لم يكتبـوا تلك المصاحفَ للناس، وانّما كتبوها لأنفسِهم » (١٤) . والرأي الراجح عند المسلمين كافّة هو أن النبي « اهتم

----
(١٠) السيوطي، الاتقان ١ / ٦٠.
(١١) نفس المرجع، ١ / ٦١.
(١٢) نفس المرجع، ١ / ٦٠، صحيح البخاري ٦ / ٢٩.
(١٣) انظر السيوطي، الاتقان، ١ / ٦١ ـ ٦٢.
(١٤) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ٧١.

بكتابة القرآن، وإن القرآن كُتِب في عهدِه وحضرته بكل إتقانٍ وضـبط » (١٥) . و « ترتيـب السور، ووضع الآياتِ مواضِعها انّما كان بالوحي. كان رسولُ ا يقول : ضعوا آيةَ كذا في موضعِ كذا. وقد حصلَ اليقين من النقل المتواترِ بهذا الترتيب » (١٦) . وإذا كان للصحابةِ من سعيٍ فهو يعود إلى جمعِ القرآن من المصاحفِ وصدورِ الرجال، لا في كتابتهِ وترتيبهِ.

ويبدو، بحسبِ المسلمين، إن جمع القرآن لم يتم في عهدِ النبي بسببِ انتظـار محمـد آياتٍ جديدةً تنزلُ عليه. لهذا « لم يكْتَب في عهد النبي مصحفٌ لئلا يفضي إلى تغييرِهِ في كل وقت. فلهذا تأخرتْ كتابتُه إلى أن كمُلَ نزولُه بموتِه » (١٧) . وهذا معنى قـول زيد بن ثابت : « قُبِض النبي (ص) ولم يكن القرآن جمِـع في شيء » (١٨) . وبهذا المعنى قـال الخطابي: « انّما لم يجمع النبي القرآن في المصحفِ لِما كان يترقّبه من ورودِ ناسخٍ لبعضِ أحكامه، أو تلاوته. فلما انقضى نزولُه بوفاتِه أَلْهم ا ُ الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعدِه الصادقِ بضـمان حِفْظِهِ على هذه الأمة. فكان ابتداء ذلك على يدِ الصديق بمشورةِ عمر » (١٩) . وفي ذلك أيضا قال السيوطي : « إن القرآن كُتِب كلّه في عهدِ رسول ا (ص) لكن غيـر مجمـوعٍ فـي موضعٍ واحدٍ ولا مرتبِ السور » (٢٠) .

*****

----

(١٥) الزنجاني، تأريخ القرآن، ص ٤٣.
(١٦) السيوطي، الاتقان ١ / ٦٢.
(١٧) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٦٢.
(١٨) السيوطي، الاتقان ١ / ٥٧.
(١٩) نفس المرجع ١ / ٥٧.
(٢٠) نفس المرجع ١ / ٥٧.

إن المشكلة مع القرآن ليست هي في جمعِه أو حفظِه أو كتابته وتدوينه، بل هي فـي امكانيةِ وجودِه قَبلَ محمد، وجودِه، لا في « اللوح المحفوظ » ، بل في مصادر تاريخيةٍ نُقِـلَ القرآن عنها. والحقيقة، إنّنا لن نعتمد لا على القرآن نفسه لنحـدد مصـادره، فهـو يعتـرفُ بوضوحٍ ان له مصادر ومراجِع أَخَذَ عنها واستَنَد إليها واستقى منها :

١ً ـ إن القرآن يقول عن نفسِه أنّه موجود في الصحفِ الأُولى وزبر الأولِـين، فـي صحفِ موسى وابراهيم؛ وعلماء بني إسرائيلَ يعلمونَه تماما. قال : « إن هذا (القرآن) لَفِي الصحفِ الأولى، صحفِ ابراهيم وموسى » [٢١] ، وقال : « أَولَم ينَبأ بما في صحفِ موسـى وابراهيم الذي وفى، ألا تَزِر وازرةٌ وِزرَ أُخْرى وأن ليس للإنسان الا ما سعى ... نَذِير مـن النُذُر الأُولى » [٢٢] . وقال : « إنّه لتنزيلُ رب العالمين، على قلبِك لتكون من المنذِرين، بلسانٍ عربي مبين، وإنه لَفِي زبر الأولين، ألم يكن لهم آيةٌ أن يعلَمه علماء بني إسرائيل » [٢٣] ، أي « إن ذكر القرآن المنَزل على محمد لفي كتبِ الأولين كالتوراةِ والإنجيل » [٢٤] ...

٢ً ـ يعترفُ القرآن بأن له « إِماما » سابِقا عليه، هو كتاب موسى، وقرآنُه يصـدقُ كتاب موسى. قال : « ... وشهد شاهِد من بني إسرائيل على مِثْلِه، فآمن واستكبرتُم ... وإذ لم يهتَدوا به فسيقولون : هذا أَفْك قديم. ومِن قَبلِهِ كتاب موسى إِماما ورحمةً. وهذا كتاب

---

(٢١) سورة الأعلى ٨٧ / ١٨ ـ ١٩، انظر سورة طه ٢٠ / ١٣٣.
(٢٢) سورة النجم ٥٣ / ٣٧ ـ ٤٠ و ٥٦.
(٢٣) سورة الشعراء ٢٦ / ١٩٦، انظر ٥٤ / ١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠ و٥١ ـ ٥٣.
(٢٤) تفسير الجلالين على ٢٦ / ١٩٦.

مصدقٌ : لسانًا عربياً، لِينْذِر الذين ظَلموا، وبشرى للمحسنين » (٢٥) . وقال أيضا : « أفمـن كان على بينةٍ من ربه، ويتلوه شاهِد منه، ومن قَبِلهِ كتاب موسى إماما ورحمة، أولئك يؤمنون به ... فلا تك في مريةٍ منه، إنه الحقُ من ربك » (٢٦) .

٣ ـ ويعترفُ القرآن بأنّه ذكر من ا محدثٌ : فيه ذكر الأولين وقَصصهم وتعاليمهم. وما هو إلاّ للتذكير بما أَتَوا به. قال : « لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكْركم، أفـلا تعقلـون ؟ ... وما يأتيهم من ذكرٍ من ربهم محدث ... فاسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون ... هذا ذكر من معي وذكر من قَبلي ... » (٢٧) .

٤ ـ ويستشهد القرآن بأهل الكتابِ وبعلمهم ومعرفتِهم بالكتب، وهو يسألُهم عن صحةِ ما فيه، ويدعو أصحابه لأن يسألوهم بدورهم ليكون في نفوسِهم اطمئنان : قال « فاسأَلوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون » (٢٨) . وقال أيضا : « فاسألوا أهلَ الـذكر إن كنـتم لا تعلمـون بالبيناتِ والزبر. وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزلَ إليهم. ولعلّهم يتفكّرون » (٢٩) ، وقال : « فإن كنتَ في شكٍ مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب مِن قَبلك » (٣٠) .

----

(٢٥) سورة الأحقاف ٤٦ / ٩ ـ ١٢.
(٢٦) سورة هود ١١ / ١٧، انظر السجدة ٣٢ / ٢٣ ـ ٢٤.
(٢٧) سورة الأنبياء ٢١ / ٢ و١٠ و٢٤ و٢٥.
(٢٨) سورة الأنبياء ٢١ / ٧ وما بعد.
(٢٩) سورة النحل ١٦ / ٤٣ ـ ٤٤.
(٣٠) سورة يونس ١٠ / ٩٤.

٥ ـ ويبدو أن أهلَ الكتاب هم على مستوى اطمئنان المسلمين في الرد على سؤالهم. فهم يعرفون القرآن تمام المعرفة، يعرفونه كما يعرفون كتابهم الذي بين أيديهم، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم. قال : « الـذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » [٣١] . وقال: « والذي أوحينا إليك مِن الكِتابِ هو الحق مصدقًا لما بين يديه ... ثم أورثنا الكتـاب الـذي اصطفينا من عبادِنا » [٣٢] ، ويوضح : « أورثنا بني إسرائيلَ الكتاب » [٣٣] . « والذين آتيناهم الكتاب (بني إسرائيل) يعلمون أنّه (القرآن) منْزلٌ من ربك بالحقّ » [٣٤] .

٦ ـ ويبدو أيضا أن القرآن هو « تصديقَ » للتوراة والإنجيل. ومراراً ذكّر محمـد بذلك : « إني رسولُ ا إليكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة » [٣٥] . والكتابيون يعرفون ذلك تمام المعرفة « لما جاءهم كتاب من عندِ ا ِ مصدقٌ لما معهم » [٣٦] ، ويدعوهم القرآن بقوله: « يا أيها الذين أوتُوا الكتاب آمِنوا بما نزلْنا مصدقًا لما معكم » [٣٧] . وهكذا يظهر القرآن بكل وضوحٍ بأنّه تصديقٌ للتوراةِ والإنجيل، فيكون الإنجيلُ كما التوراةُ مصدرا من مصادره التي لا يتنكّر لها أحد من المسلمين الطيبين.

٧ ـ ومن جملةِ الإشارات إلى مصادر القرآن كونه مترجما عن « كتابٍ (أعجمي) فُصلَتْ آياتُه قرآنًا عربياً » [٣٨] ، و « كتاب أحكِمتْ آياتُه

----

(٣١) سورة الانعام ٦ / ٢٠.
(٣٢) سورة فاطر ٣٥ / ٣١.
(٣٣) سورة غافر ٤٠ / ٢ ـ ٣.
(٣٤) سورة الانعام ٦ / ١١٤.
(٣٥) سورة الأحقاف ٤٦ / ٣٠، انظر ٣ / ٥٠، ٥ / ٤٦ الخ ...
(٣٦) سورة البقرة ٢ / ٨٩ و ٩١ ...
(٣٧) سورة النساء ٤ / ٤٧.
(٣٨) انظر كتاب قس ونبي، ص ٧٦ ـ ٧٧.

ثم فُصلَتْ من لدن حكيمٍ خبير » [٣٩] . ومما يشير إلى وجودِ مصدرٍ أعجمي للقرآن هو تمنّي العرب أن يكون لهم كتاب بلغتِهم، وتلبيةُ محمد (؟) لهذا التمنّي، من قوله : « ولو جعلنـاه قرآنًا أعجمياً، لقالوا : لولا فُصلَتْ آياتُه! » [٤٠] ... فيكون القرآن العربي « تفصيلَ الكتـابِ (الأعجمي)، لا ريب فيه » [٤١] .

٨ ـ وفي تسميةِ الكتاب بالقرآن دلالةٌ على أنّه قراءةٌ عربيةٌ لكتابٍ هو فـي الأصـل بغير لغة العرب. وقـد وضِع بلسانٍ عربي ليعقلَه العرب : « وأنزلناه قرآنًـا عربيـا لعلّكـم تعقلون » [٤٢] ، و « انّا جعلناه قرآنًا عربياً لعلّكم تعقلون. وإنّه في أم الكتـاب لـدينا » [٤٣] ، وليتبينوا تفاصيلَه : « كتاب فُصلتْ آياتُه قرآنًا عربياً لقومٍ يعلمون » [٤٤] ، ويتعرفـوا علـى أخباره وقَصصِه : « نحن نقص عليك أحسن القَصص بما أوحينَا إليك هـذا القـرآن » [٤٥] ، ويهتدوا بهِ من كل عِوجٍ وضلال : « وقرآنًا عربيا غير ذي عِوجٍ لعلّهم يتّقون » [٤٦] .

٩ ـ هذه الإشارات السريعة تفيدنا أن للقرآن العربي مصدرا في غير لغة العرب. بل إن هذا المصدر هو القرآن الأعجمي الذي نرى له في كتبِ السِير اسما لامعا، وفـي تـاريخ الكتابِ المقدس وتاريخ الكنيسة

----

(٣٩) سورة هود ١١ / ١.
(٤٠) سورة فصلت ٤١ / ٤٤. انظر « قس ونبي » ، ص ٧٥ ـ ٧٦.
(٤١) سورة يونس ١٠ / ٣٧.
(٤٢) سورة يوسف ١٢ / ٢.
(٤٣) سورة الزخرف ٤٣ / ٣ ـ ٤.
(٤٤) سورة فصلت ٤١ / ٣.
(٤٥) سورة يوسف ١٢ / ٣.
(٤٦) سورة الزمر ٣٩ / ٢٨. انظر : « قس ونبي » ، ص ٧٤ ـ ٧٥.

اسم « الإنجيل العبراني » الذي كان القس ورقة بن نوفل، ابن عم خديجة ينْقُله إلى العربيـةِ بحضرةِ النبي محمد. ولقد عالجنا صلةَ القرآن العربي بالإنجيل العبراني في كتابِ قس ونبـي مطولاً؛ فلْيعد إليه[٤٧] .

١٠ً ـ ولكن في القرآن العربي إشاراتٍ إلى مقتَبساتٍ أخرى، لا نجدها في « الإنجيل العبراني » ؛ ولكن العارفَ بالتاريخ الكنسي وبعلومِ الكتابِ المقدس، في عهديهِ الجديدِ والقديمِ، يعلم تمام العلم أن القرآن اعتمد عليها، وأَخَذَ منها، واقتَبس عنها. كما نجد تقاليد منتشرةً على ألسنةِ المرسلين والوعاظِ في جزيرةِ العرب، استلهمها القرآن وسجلها بين صفحاته. وعلى ذلك مراجع سهلة المنال؛ فلْيعد إليها[٤٨] .

*****

بعد هذا العرض كلهِ لمصادر القرآن، ماذا يبقى من قول أهل الأخبار والمحدِثين بأن القرآن جمِع كله في عهدِ محمد! أليس في ذلك دلالةٌ على أنّه مجموعا قَبلَ محمد!؟ ولكن لـ ذّةَ خَلْطِ تاريخ ا بتاريخ البشر جعلاتِ الناس مطمئنّين لمعجزاتٍ يحدِثُها ا ُ في كل شيء. وفيما الناس تُعوزهم معجزةٌ، جعلوا ا َ لا تُعجِزه معجزة. بهذا يطمئن كلْ حيرانٍ، ويستريح كلُ ذي بالٍ قَلِقٍ، وينام الكل في راحةِ المعجزة.

---

(٤٧) انظر كتاب قس ونبي حيث يعالج موضوع الإنجيل العبراني وصلته بالقرآن العربي. وفيه كـل قصـة مصادر القرآن المباشرة ...

(٤٨) انظر : د. فلهلم رودلف، صلة القرآن باليهودية والمسيحية، ترجمة عصام الدين حفنـي ناصـف، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٤.

D. Masson, Monothéisme coranique et monothéisme biblique. Doctrines comparées. DDB. 1976.

Tor Andrae, Les origines l'Islam et le christianisme, Adrien-Maisonneuve, 1955…

ثانياً ـ جمع أبي بكر الصديق للقرآن

في السنة الأولى من خلافةِ أبي بكر الصديق، ظَهر مسيلَمة النبي الكـذّاب باليمامـة، فجهز أبو بكر لِقتالِه جيشًا من المسلمين، وفيهم كثير من القراء والحفّاظ، فَقُتِلَ مسيلَمة، واشتد القتلُ على قراءِ القرآن، حتى قُتِلَ منهم أكثر من سبعين قارئًا، فأحس عمـر بـن الخطـاب بضرورةِ جمع القرآن، ودعا أبا بكر الصديق ليفعل[1] .

وجاء في سنَن ابن أبي داود « أن عمر سألَ عن آيةٍ من كتاب ا ، فقيل : كانتْ مـع فلان قُتِلَ يوم اليمامة. فقال : إنا . فأمر بجمع القرآن. فكان أولَ من جمعه في المصحف ... أي أشار بجمعِه » [2] .

وروى البخاري عن زيد بن ثابت قال : « أرسلَ إلي أبو بكر، بعد مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطّابِ عنده؛ فقالَ أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القَتْلَ استَحر يوم اليمامةِ بقراءِ القرآن، وإني أخشَى أن يستَحِر القتلُ بالقراءِ في المواطِن (بسائر البلاد)، فَيذْهب كثِير من القرآن. وإنّي أرى أن تأمر بجمعِ القرآن. فقلتُ لعمر : كيفَ تفعلُ شيئًا لم يفعلْه رسولُ ا (ص). قال عمر : هو وا ـ خير. فلم يزلْ يراجِعني حتى شرَح ا ُ صدري لذلك. ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمر.

---

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١ / ٥٩.
(٢) نفس المرجع، ص ١ / ٥٨.

قال زيد : قال أبو بكر : إنّك شاب عاقل، لا نَتهمك، وقد كنتَ تكتب الوحي لرسول ا (ص)، فَتَتَبع القرآن وأجمعه. فوا ِ، لو كلّفوني نَقْلَ جبلٍ من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني بـه من جمعِ القرآن. فقلتُ : كيفَ تفعلان شيئًا لم يفعلْه رسولُ ا (ص). قالَ : هو وا ِ خير. فلم يزلْ أبو بكر يراجعني حتى شرح ا ُ صدري للذي شرح ا ُ له صدر أبي بكـر وعمـر. فتتبعتُ القرآن أجمعه من العسبِ (جريدة من النخل) واللخَافِ (حجـارة بـيض رقـاق) وصدورِ الرجال، حتى وجدتُ آخِر سورةِ التوبةِ مع أبي خُزيمةِ الأنصاري لـم أجِـدها مـع غيرِه... فكانتِ الصحفُ عند أبي بكر حتى توفّاه ا ، ثم عند عمر حياتَه، ثم عند حفصة بنتَ عمر » [٣] .

*****

لقد استعجلَ أبو بكر وعمر في جمع المصاحف، لأن هناك خطرا مداهما يتأتّى مـن مصاحفِ أخرى مختلفةٍ بعضها ببعض. وقد كان أصحابها من صحابةِ النبي المشهورين بالعلمِ والفضيلة ومن أمهاتِ المؤمنين اللواتي عايشْن النبي وعرفنَه في حالاتِهِ الخاصـةِ والعامـة. وكان عدد المصاحفِ كبيرا، وخطرها أكبر، والخلافُ بينها واسعا، والثقةُ بها أوسع :

أً ـ فهناك مصحفُ سالِم بني معقل مولى أبي حذَيفَة الذي حرره النبي. ولكن سالِما ماتَ بعد النبي بسنة[٤] . وقد أخرج ابن أشتة في كتابِ المصاحفِ عن ابن بريدة قال : « أولُ من جمع القرآن في مصحفٍ سالِم مولى أَبي حذَيفة، أقسم : لا يرتدي برداءِ حتـى يجمعـه. فَجمعه » [٥] .

----

(٣) الاتقان ١ / ٥٧، انظر : البرهان ١ / ٢٣٤، تهذيب التهذيب ٣ / ١٤٠.
(٤) تفسير الطبري ١ / ٦٣.
(٥) الاتقان ١ / ٥٨ عن كتاب المصاحف لابن أشتة.

٢ ـ وهناك مصحفُ عبد ا بن عباس، توفّي سنة ٦٨ هجرية. ولابن عباس مكـان في الإسلام مرموق. تخصص في تفسير القرآن، وكان تلميذًا لعلي بن أبـي طالـب. ذكـر الشهرستاني له مصحفًا يختلف بترتيبهِ عن مصاحف الصحابة[٦] .

٣ ـ وهناك مصحف عقبة بن عامر (+ ٦٠ هـ) من صحابة النبي، وقـد حكـم مصر فيما بعد. له مصحفٌ وجِد سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م. ولكنّه لم يعد يوجد اليوم[٧] .

٤ ـ وهناك مصحف المقداد بن عمر (+ ٣٣ هـ) من صحابة النبـي المشـهور بتقواه وشجاعته. لقد كان مصحفُه منتشِرا في حمص بسوريا[٨] .

٥ ـ ومصحف أبي موسى الأشعري (+ ٥٢ هـ) من شيعةِ علي. انتشر مصـحفه في بصرى. وكان شبيها إلى حد بعيد بمصحفَي ابن مسعود وأُبي ابن كعب. عرِفَ بمخالفتـه لمصحفِ عثمان الإمام[٩] .

٦ ـ ومصحف أُبي بن كعب (+ ٢٣ هـ) من المدينة. استخدم النبي أُبيـا لتـدوين الوحي، ولكتابةِ الرسائل إلى القبائل. اشتهر باتّقادِ ذاكرته، وهو بين القلائل الذين حفظُوا كـلَ القرآن. يختلفُ بمصحفهِ عن مصحفِ عثمان، بعددِ سورِهِ وبترتيبهِ. ففيه ١١٦ سـورة بـدل ١١٤. والسورتان الزائدتان هما : سورة الخَلْع وسورة الحفْد[١٠] .

----

(٦) انظر الاصابة ١ / ٩٤، وانظر ترتيب مصحفه في كتاب « تاريخ القرآن » للزنجاني، ص ٧٦.
(٧) نولدكه، تاريخ القرآن، ٣ / ٩٧، حاشية ١.
(٨) نولدكه، تاريخ القرآن، ٢ / ٢٩ ـ ٣٠.
(٩) تاريخ القرآن لنولدكه، ٢ / ٢٨ و ٣٠، الانسكلوبيديا الإسلامية ٤٨٨.
(١٠) انظر : الإصابة ١ / ١٦، الفهرست ٤٠، الزنجاني ٧٢ حيث ترتيبه.

٧ً ـ مصحف عبد ا بن مسعود (+ ٣٠ هـ). نشأ راعِياً، وأسلم بـاكِراً، وخـدم النبي بورعٍ. نَقَلَ عنه البخاري قوله : « با ـ، ليس من سورةٍ في الكتابِ أُوحِيتْ إلاّ وعرفـتُ أين أوحِيتْ وبمناسبةِ من أوحِيتْ » (١١) . ينقص من مصحفهِ سـورةٌ الفاتحـة والمعوذتَـان. ويختلف ترتيبه عن سائر المصاحف(١٢) .

٨ً ـ مصحف عائشة، جمعه لها مولاها أبو يونس. وروى عنها عروةُ ابن الزبير أنها قالتْ : « إن سورةَ الأحزابِ كانت تُقرأ في زمن النبي مئتي آية. فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن » (١٣) .

٩ً ـ مصحف حفصة، جمعه لها مولاها عمر بن رافع. ولكن لا نستطيع أن نعـرفَ عما إذا كان هو نفسه مصحف زيد بن ثابت الذي أودعه عندها أم غيره.

١٠ً ـ مصحف علي بن أبي طالب (+ ٤٠ هـ). كلمنا عنه اليعقوبي وابن النـديم والسيوطي وغيرهم. عرفَ الامام محمد الباقِر هـذا المصحفَ ونَسبه إليه(١٤) . سمى علي بـ « الناسِخ والمنسوخ » (١٥) وقسمه إلى سبعةِ أجزاء، وكلُّ جزء مـن ١٥ أو ١٦ سـورة. ولا يستبعد أن يكون مصحفُ علي فاقَ سائر المصاحفِ لمكانةِ علي في الإسلام. ولا يستبعد أيضا أن يكون مصحفُه مغايِرا لسائر المصاحفِ ومختِلفًا عنها، لاختلافِ موقِفه من مواقـفِ أهـل السنة وجماعةِ الخلفاءِ الذين اغتصبوا منه الخلافة. ومن الطبيعي أن نجد لعلي مصاحِفَ كثيرة تَنتَسِب إليه لِكثرةِ الشِيعِ التي تفرعتْ عن شيعته.

---

(١١) عن نولدكه، تاريخ القرآن ٣ / ٥٢٧، رابعاً.
(١٢) انظر ترتيبه في « تاريخ القرآن » للزنجاني ٧٤ ـ ٧٥.
(١٣) السيوطي، الاتقان ٢ / ٢٥.
(١٤) تفسير القمي، ٤١٩ ـ ٤٢٠.
(١٥) الاتقان ١ / ٥٨.

والغريب في الأمر أن يشرع علي، بعد موت النبي مباشرة، وعند بيعة أبـي بكـر، بجمع القرآن! والغريب أيضا أن يرى علي، منذ تلك اللحظة، أن القرآن يحرفُ فيـه ويـزاد عليه. قال عكرمة : « لما كان بعد بيعةِ أبي بكر، قعد علي بن أبي طالب في بيته. فقيل لأبي بكر : قـد كره بيعتَك، فأرسلَ إليه. فقالَ : أكرهتَ بيعتي ؟ قالَ : لا وا ِ. قال : ما أقعـدك عنّي ؟ قال : رأيتُ كتاب ا يزاد فيه. فحدثتُ نفسي أن لا ألبس ردائـي إلاّ لصـلاةٍ حتـى أجمعه. قالَ له أبو بكر : فإنّك نِعم ما رأيت » [١٦] .

وعن ابن أبي داود قال : « سمعتُ علياً يقول : أعظم الناس في المصاحفِ أجرا أبو بكر، رحمةُ ا على أبي بكر، هـو أولُ من جمع كتاب ا » [١٧] . وعن ابن سيرين قـال: « قالَ علي لما ماتَ رسولُ ا ، آليتُ أن لا آخذَ علي ردائي الاّ لصلاةِ جمعةٍ حتـى َأجمـع القرآن فَجمعتُه » [١٨] .

*****

لنا حولَ هذه المعطياتِ أكثر من تساؤل : لماذا يشيد المحدثون برضى علـي علـى صنيع أبي بكر وعمر ؟ هل يعقَل أن يباشِر علي بوضع القرآن ولم يمض على موتِ النبـي ساعات ؟ وهل منذ هذه اللحظةِ ابتدأتِ الزياداتُ تَظهر في القرآن حتى يقولَ علـي « رأيـتُ كتاب ا ِ يزاد فيه » ؟ وإذا كانتْ غَيرةُ علي كبيرةً إلى هذا الحد فلماذا لم يأخذْ أبو بكر وعمر بمصحفِه ؟ ولماذا فضلَ أبو بكر وعمر مصحفَ زيد بن ثابت على مصحفِ علي ؟ وعلي هو المسلم

----
(١٦) السيوطي، الاتقان ١ / ٥٧ ـ ٥٨.
(١٧) نفس المرجع، ١ / ٥٧.
(١٨) نفس المرجع، ١ / ٥٧.

الأول والمجاهِد الأكبر، ابن عم النبي وصهره وربيبه وحامِلُ لواء الإسلام!!

ثم ما الذي دفَع أبا بكر الصديق وعمر بن الخطّاب إلى جمع القرآن ؟ ولماذا اختـارا زيدا بن ثابت لهذه المهمة ؟ والمعروفُ أن زيدا لم يزلْ في بطن أمـهِ عنـدما ابتـدأ النبـي بالرسالة والنبوة ؟ بل إن عمر زيدٍ لم يكن أكثر من عشْر سنين عندما هاجر النبي إلى المدينة. فهناك اذن اكثر مِن ثِلْثَي القرآن نزل على النبي ولم يكن زيد يعِيها لِصِغَر سِنهِ! ومـا معنـى قـول أبي بكر لزيد : « انّك شاب عاقِلٌ لا نتّهمك » ؟ فهل من اتّهامٍ لغير زيـد مـن كَتَبـةِ الوحي ؟ ولماذا ؟ ولماذا فُضلَ زيد على عبدِ ا بن عباس، وقد مدحه النبي بأنّه خيـر مـن عرفَ القرآن وفَسره، وعلى ُأبي بن كعب صاحبِ الذاكرةِ الوقادة، وعلى عبدِ ا بن مسـعود المسلِمِ الورع ؟ ولماذا وضع زيد المصحف الذي جمعه عند حفصة بنتِ عمر وزوجةِ النبـي وليس عند أم سلمة مثلا، أو غيرهما ؟

إنّها أسئلة كثيرة تخطر على البال، وليس عليها من التاريخ جواب. الإيمـان وحـده يستطيع نَقْلَ الجبال. ونحن بنقل الجبال، ولو بأظافِرنا، ملْزمون. فهل رواياتِ أهـل الأخبـار غير صحيحة، وتاريخَهم تتحولُ أحداثُه بإيمانِهم. ولم يعبر أهلُ الاخبار عن هذا الإيمان الاّ بعد ما يزيد على المائةِ سنة من موتِ النبي. وليس من يفصلُ بين التاريخ والإيمان سوى التنقيبِ في رمال مكة وآثار الكعبة وبيتِ ا الحرام. ولكن حرمةَ البيتِ تمنع عـن القلقـين البحـث المتعِب المضني. ولم يبقَ أمامنا الاّ الإيمان بمعجزةٍ إلهيةٍ أخرى تُقَدم لنا المصـحفَ الجليـلَ على راحتَي جبريلَ المباركَتَين!

****

ثالثاً ـ مصحف عثمان بن عفّان

في إيمان المسلمين إن القرآن المتداولَ اليوم قد جمعه عثمان بن عفّان مـن الرقـاع وصدورِ الرجال، وقد ألّفَ من أجل ذلك لجنةً من عدة قراءٍ فوضعوا ما وضعوا متفِقِين. ولما انتهتِ اللجنةُ من أعمالِها، أمر الخليفةُ بنسخ المصحفِ عدةَ نسـخ، أربعـةً أو سـبعةً، ووزع النسخَ على الأمصارِ الاسلامية، ثم أتلفَ كلَ المصاحفِ الخاصة.

لقد باتَ كل شيء معداً، إلى الآن، ليتدخّلَ الخليفةُ الثالث عثمان بن عفّان (٢٣ ـ ٣٥ هـ / ٦٤٤ ـ ٦٥٥ م) ليحسم موضوع جمع القرآن ببطشٍ وسلطان. زيد بن ثابت لا يزالُ حيا يرزق. والفتوحاتُ الإسلامية تتوالى. والقتلُ بين الصحابة يزداد. والاختلافاتُ بين القراء تزداد هي أيضاً. والاقتتالُ بين الناس يشتد بسبب هـذا الاخـتلاف. لقـد « اقتتـلَ الغلمـان والمعلمون » [(١)]، وتوزع الحفّاظُ والقراء في الشامِ والعراقِ واليمن وأرمينيـا وأذربيجـان، ولَحن العرب في لغتهم لمجاورتِهم أمما غير عربية، أو عربيةً غير مضرية، وفسـدتِ اللغـةُ فدخلَ فيها ألفاظٌ أعجمية، وفُقِدتْ منها ألفاظٌ أخرى ... كلُ هذا دعـا الخليفـةَ إلـى التـدخّل المباشَر، لأن القرآن أصبح في خَطَرِ التحريفِ والتصحيفِ والزيادةِ والنقصان ...

----

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١ / ٥٩.

يخبرنا البخاري في صحيحه عن ابن شهاب عن أنس بن مالك حدثه « أن حذَيفةَ بـن اليمان قَدِم على عثمان، قَبلَ الذهابِ إلى فَتْح أرمينيا وأذربيجان (سنة ٣٠ هـ ـ / ٦٥٠ م) وقال له : « يا أمير المؤمنين، أَدرِك » هذه الأمةَ قبلَ أن يختلِفوا اختلافَ اليهودِ والنصارى. « فأرسلَ عثمان إلى حفصة أَنْ أَرسِلي إلينا الصحفَ ننسخُها في المصاحفِ ثم نردها إليـكِ. فأرسلتْ بها حفصةٌ إلى عثمان. فأمر زيد بن ثابت وعبد ا بن الزبير وسعِيد بـن العـاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للـرهطِ القرشـيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنّـه إنمـا نَزلَ بلسانِهم. ففعلوا، حتى إذا نَسخُوا الصحفَ في المصاحفِ رد عثمان الصحفَ إلى حفصة. وأرسلَ إلى كل أفقٍ بمصحفٍ مما نَسخُوا. وأمر بما سواه من القرآن فـي كـل صـحيفةٍ أو مصحفٍ أن يحرق » [٢] .

وعن أنسٍ بن مالك أيضا قال : « اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتـى اقتتـلَ الغلمان والمعلمون، فبلغَ ذلك عثمان بن عفّان، فقال : عندي تكذِبون به وتلحنون فيه! فمن نأى عنّي كان أشد تكذيبا وأكثر لحنًا. يا أصحاب محمد اجتمِعوا فاكتُبوا للناسِ إمامـا. فـاجتمعوا فكتبوا فكانوا إذا اختلفوا وتدارءوا في أي آيةٍ قالوا : هذه أقرأَها رسولُ ا ِ فلانًا فيرسلُ إليـه وهو على رأسِ ثلاثٍ من المدينةِ، فيقال له : كيفَ أقرأك رسولُ ا آيةَ كذا وكذا، فيقولُ : كذا وكذا، فيكتبونها، وقد تركوا لذلك مكاناً » [٣] .

---

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، الباب الثاني والباب الثالث، السيوطي، الاتقان ١ / ٥٩، ابن أبـي داود ١٨، الطبري ١ / ٢٠ ـ ٢١.
(٣) نفس المرجع ١ / ٥٩.

لنا حول رواية البخاري الذي « ما عرفَ التاريخُ من يضارعه في الثقـةِ والضـبطِ والأمانة » [٤] عدةُ تساؤلات :

لماذا زيد بن ثابت ؟ ومن المعروف أن بين الصحابة وكَتَبةِ الوحي من هو أكثر ثقـةً وعلما وبلاغةً منه ؟ وانّه لم يسمع من النبي سوى آياتٍ قليلةٍ من القرآن، وانّه، بالنسبةِ إلـى أُبي وابن عباس وعلي بن أبي طالب، لا يعتد بورعِهِ أو بعلمهِ أو بوعيهِ أو بجهـادِه، ورفـع لواء الإسلام! ولماذا فضلَ عثمان أيضا، كأبي بكر وعمر، أن يكون زيد رئيسا على جمـاعِ القرآن وحفّاظه! ثم على أي دين كان زيد ؟ هل حقّا كان يعرفُ العبريةَ والسـريانية[٥] ، وإن كان ذلك فعلاً، فأين تعلّمهما ؟ وعلى يدِ من أخذهما ؟

ثم لماذا أحرقَ عثمان المصاحف ؟ وكيفَ أحرقها ؟ هل أحرِقَتْ، أم مزقتْ، أم طُرِحتْ في الماء ؟ التقليد يختلف في ذلك. وكيف تجرأَ المؤمنون على إتلافِ هذه المصاحف، وهـي تحملُ في طياتِها صورةَ المعلم المحبوب، وهي من أيدي صحابةٍ أجلاّء محترمين موفـوري الوقار والكرامة!

وكيف تألّفتِ اللجنةُ ؟ وممن ؟ التقليد على خلافٍ ظاهر. فمنه ما يشير إلى اثنين فقط: زيد وسعيد بن العاص؛ ومنه ما يشير إلى ثلاثة : زيد وسعيد وعبد الرحمن بن هشام؛ ومنه ما يشير إلى أربعة[٦] ، ومنه ما يشير إلى لجنة اثني عشرية[٧] ... ومن المعروف أيضا أن سعيدا بن العاص كان إبان تأليفِ اللجان والياً على الكوفة، فكيف يكون من أعضائها ؟

---

(٤) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٧٩.
(٥) طبقات ابن سعد ١١، ٢ / ١١٥.
(٦) يضاف إلى الثلاثة المذكورين ابن الزبير، انظر البخاري وابن أبي داود.
(٧) ابن أبي داود، كتاب المصاحف، ص ٢٢، ٢٤ و ٢٥.

وثالثة من اللجنة الرباعية كانوا مكيين من قريش ومن الطبقة الارستقراطية ومن أقرباء عثمان بن عفّان، وبين بعضهم بعضاً صلاتُ مصاهرةٍ ومصالح مشتركة. وزيد وحده كان مدنيا من الأنصار. ومع هذا كان رئيسا على اللجنة وفي نصيحة عثمان للجنة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسانٍ قريش » [٨] ما يشير إلى إمكانية الخلاف، وإلى مداخلة الخليفة وإشرافه وسلطانه.

هل لعثمان نيات وخفايا فيما صنع ؟ الحقيقةُ إنه كان يعرفُ مدى خطورةِ مصحفِ علي بن أبي طالب خصمهِ وعدوهِ السياسي، وكان يعرفُ ان هناك مصاحفَ دونتْ أيام النبي ولها قدسيتُها وأهميتها، وكان يعرفُ أن مصاحفَ الصحابةِ المعروفة آنذاك كانتْ تنتمي إلى المدينةِ وسائر المواطن الإسلامية، وهو يريد لمكةَ السبقَ في هذا المجال ... لعلّها العصبية القبلية تحكّمتْ بعثمان ؟ وليستْ هذه العصبية مختفيةً في غير هذا الموضع في كل حال. فالعصبيةُ الأموية والعصبيةُ العباسية والعصبيةُ العلوية كانتْ باقيةً وقد أخذتْ مجراها في الخِصام والاقتتال والثوراتِ حتى الدم الغزير ...

ثم ما هو موقفُ علي ؟ وقد وضع المحدثون على لسانهِ كلَ الرضى، تماما كما أظهروا رضاه على ما صنع أبو بكر وعمر. لقد « أخرج ابن أبي داود بسنَدٍ صحيح عن سويد بن غَفلة قال : قال علي : لا تقولوا في عثمان الاّ خيرا، فوا ـ ما فعلَ الذي فعلَ في المصاحفِ إلا عن ملأ منّا » [٩] . هل رضِى علي هو حقيقة ؟ إن لعلي مصحفًا دونَه بيدهِ ومباشرةً عن النبي، وهو كما يجب أن يكون أكثر أَصالة من مصحفِ زيد أو سواه، وقد أتلفَه عثمان، فهل هذا يوجِب من علي سخطًا أم رضى ؟

---

(٨) السيوطي، الاتقان ١ / ٥٩.
(٩) نفس المرجع ١ / ٥٩ ـ ٦٠.

لماذا رد عثمان المصاحفَ لحفصة ؟ إن الخليفةَ مروان بن الحكم سنة ٦٤ حـاولَ أن يأخذَها منها ليحرقَها فأبتْ. فلما توفّيتْ أخذَها وأتلَفها، وقال مدافِعا عن صنيعه : « انّما فعلتُ هذا لأن ما فيها قد كُتِب وحفِظَ بالمصحفِ الإمام، فخشيتُ ان طالَ بالناسِ زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحفِ مرتاب » [١٠] . السؤال : أكانت مصاحف حفصة تختلف عـن مصـحف عثمان، حتى يتصرف مروان هكذا ؟ إذا كان كذلك، فما صحة علاقة مصحف عثمـان بمـا جمعه أبو بكر اذن ؟!

الحقيقة إن اعتماد عثمان على جمع أبي بكر هو عملٌ ذكي، بل عملٌ سياسي مـاهِر. لقد كان يعرفُ إنه إذا اعتمد مصحفَ ابن مسعود مثلاً لكان أثار عليه حنَقَ السوريين وأهـل بصرى الذين كانوا يقرأون بمصحفِ أُبي بن كعب وبمصحفِ الأشعري، ولكان شَـتَم عمـلَ سابِقَيهِ في الخلافة أبي بكر وعمر، وقد كان يعرفُ بذكائه إن المسلمين لن يختلفوا كثيرا إذا ما رفَع من شأن الخليفتَين اللذَين سددا خطواتِ الإسلامِ وفتحا البلاد وأعليا العمران.

ثم أيضا ما هو موقفُ ابن مسعود من مصحفِ عثمان ؟ إن دلائلَ كثيرةً تشـير إلـى عدم رضاه؛ لقد رفض رفضا قاطِعا ما جمعه عثمان، وقال : « كيفَ تأمرني أن أتّبع قـراءةَ زيد في الوقتِ الذي كنتُ أقرأ القرآن سبعين مرة، وأسمعه من فمِ النبي، وزيد كان لا يزالُ في صلبِ أبيه يحملُ لُعب الأولاد ويلعب بالمكانس! » [١١] . ومـرة أخـرى قـال : « سـأترك مصحفَ عثمان لأنّه من عمل إنسانٍ. فعندمـا كنتُ قد أصبحتُ مسلِماً، كان زيد في أحشـاءِ أمه » [١٢] .

---

(١٠) ابن أبي داود، كتاب المصاحف، ص ٢٤.
(١١) نفس المرجع، ١٧، ابن سعد ٢ / قسم ٢ ص ١٠٥.
(١٢) نفس المرجع، ص ١٧ سطر ١٥.

قد تكون هذه الأقوال المنسوبة إلى ابن مسعود صحيحة أو غير صحيحة، ولكن عـدم رضاه فيها واضح. ومبرر عدمِ الرضى واضح أيضاً. وقد يكون هذا موقفُ أبي بـن كعـب أيضاً، ولكن لا علم لنا به على طريقِ الوضوح، فيما الذين يتّبعون مصـحفه أظهـروا عـدم رضاهم برفضِهم مصحفَ عثمان الذي حكَم على إتلافِ كل المصاحف. ولا شيء يمنع مـن القول بعدم رضى علي بن أبي طالب، بدليل ما وضِع على لسانه من رضى، ظنّا أن في قلبِه غير هذا الرضى.

*****

ومع هذا كلّه، ورغم حسن نيات عثمان في توحيدِ الكلمة بني المسلمين وفـي توحيـدِ كتاب ا ، لم تُحل المشكلة من أساسها، بل قد يكون عثمان عقدها أكثر، لأن المصاحفَ القديمةَ كان يقرؤُها الناس بِيسرٍ وسهولة، ولأن بعضهم كان يحفُظها عن ظهر القلب. وأما مصـحفُ عثمان فليس هناك من يحفظْه، أو من يقرؤُه. وليس فيه نقَطٌ لتمييز الحـروف. ولـيس فيـه حركاتٌ لتعيين مواقع الكلمات وإعرابها. وليس فيه حروفُ علّةٍ لتعيين طبيعةِ الكلمة وتمييـز الكلمات المتشابهةِ بعضها عن بعض ...

بهذا دخل في مصحف عثمان قراءاتٌ من مصاحفَ سابقة، وتصحيفٌ من قراءِ غيـر قرشيين أو مضريين أو حتى غير عرب. فكل شيء فيه يدعو إلى القلق اذن. وما يزيد القلـقَ في صحةِ قرآن عثمان هو انتساب مصاحفَ قديمةٍ وخاصةٍ إليه، وذلك بعد مقتلهِ الذي أضفى عليه المسلمون معنَى الاستشهاد والملكوتي. فبعد أن عرف الناس عثمان ظالِما محتالاً، عرفوه الآن بعد استشهادِه، شهيدا وليا طاهِراً. وبفضل هذا أصبح لمصحفهِ

مكان فريد. وأصبح كلُّ قرآن مجبولٍ بنقطةِ دم من عثمان قرآنًا لا يقَدر بثمن. وكلُّ صـاحبِ قرآن، لكي ينفذَ بكتابِه إلى قلوبِ الناس، نَسبه إلى عثمان. وهكذا أصبح مصحفُ عثمان سحرا أفاضه عليه الخليفةُ الأموي عبد الملك بن مروان ووزيره الحجاج بن يوسف، كما سترى.

ومما يزيد الأمور تعقيدا اختلافُ أهل الأخبار والمحدثين في عددِ النسخ التي أرسـلَها عثمان إلى الأمصار، فمنهم من يجعلُها أربعةً، ومنهم سبعةً، أرسلَ كلّ واحدة منها إلى قطر : « إلى مكّة، والشام، واليمن، والبحرين، والبصرة، والكوفة، وحبس بالمدينة واحدة » (١٣) .

ثم لماذا لم يعد عثمان راضِيا بمصحفِ زيد بن ثابت الذي جمع لأبي بكر وعمر ؟ هل من خلافٍ بين مصحفِ زيدٍ الأول، وما يجمعه لعثمان الآن ؟ ثم لماذا فضل عثمـان حرفًـا واحِدا من الأحرفِ السبعة ؟ ومِن المسلم به أن ا « أنزلَ القرآن على سبعةِ أحرف. فـرأى عثمان أن يزيلَ منها ستّةً، وأن يجمع الناس على حرفٍ واحد، فلم يخالِفْه أكثر الصحابة، حتى قال علي : لو كنتُ موضِعه لفعلتُ كما فعل ... كانوا يقرأون القرآن على سبعةِ أحرف، فوقَع بينَهم الشر والخلافُ، وأراد عثمان أن يختار من السبعةِ حرفًا واحِدا هو أفْصـحها، ويزيـلَ الستّةَ. وهذا من أصح ما قيل فيه لأنّه مروي عن زيد بن ثابت » (١٤) .

لكنّنا نسأل : ما هو الحرفُ الصحيح، بل ما هو « أفصح الحروفِ

----
(١٣) السيوطي، الاتقان ١ / ٦٠.
(١٤) أبو جعفر النحاس، الناسخ والمنسوخ، ص ٣٧ ، انظر ١٥٩.

الستة » ؟ وأيضا : « ألا يعني اختيار « الأفصح » منها انّه كان في النصوص السبعةِ فصيح وأفصح ؟ » [١٥]، والمسلمون يعتقدون بأن حروفَ القرآن جميعها هي في منتهـى البلاغـةِ والفصاحة!

خاتمة الفصل

ليست المعجزة احتيالاً من ا على نِظام الكون وقوانينه، ولا احتيالاً من الإنسان على التاريخ ومعطياته. يستطيع ا ُ القادر القدير على تبديل كل نظامٍ دون أي مكرٍ منـه عليـه، ويستطيع الإنسان الإيمان دون أن ينالَ هذا الإيمان من حقائق التاريخ. يعرفُ ا ُ لأيةِ غايـةٍ يتدخّلُ في العالم، ويعرفُ الإنسان معنَى المعجزةِ التي تحدثُ مرةً بعد مرة.

أما الذي لا أعرفه هو ما حدث في تاريخ النبوةِ والقرآن من معجزات. فلا أسـتطيع اتّهام ا بمكْرٍ أو بحيلة، رغم أنّه، بحسبِ القرآن، « خير الماكرين » [١٦]، ولا اتّهام الإنسان بالإيمان الأعمى على حسابِ وضوحِ معطياتِ التاريخ. فالقرآن يعترف بكتابٍ سـابقٍ عليـه، ومحمد بلّغَ من هذا الكتابِ ما يوافِقُ عقليةَ العربي ومجتمعه؛ ولكن المسلمين استحبوا الدخولَ في عالمِ المعجزات : معجزةِ الوحي والتنزيل، ومعجزةِ جمع القرآن من صـدور المـؤمنين، ومعجزةِ تبرير كل معجزة آمنوا بها.

فلا ا يعجبه ذلك، ولا الإيمان يسلّم بكل ذلك. فيما المذهولون بـربطِ الأرض بعمـدِ السماء يريدون لنفوسِهم الاطمئنان، فكان لهم كلُّ الاطمئنان.

----
(١٥) الاستاذ الحداد : القرآن والكتاب ١ / ٢٤٣.
(١٦) سورة ٣ / ٥٤ ، ٨ / ٣٠، انظر ٢٧ / ٥٠، ١٠ / ٢١، ١٣ / ٤٢ ...

الفصل السادس

معجزة ضبط القرآن وائتلاف المصاحف

أولاً ـ الوضع السياسي

ثانياً ـ وضع المصاحف العثمانية

ثالثاً ـ ضبط المصاحف العثمانية

رابعاً ـ رخصة القراءات

[Blank Page]

مقدمة الفصل

قام من المسلمين من قال : إن « أهلَ العصر الأول ... كانـت كتـابتُهم للمصـحفِ الشريفِ سقيمةَ الوضعِ، غير محكمةِ الصنع. فجاءتِ الكَتْبةُ الأولى مزيجا من أخطاء فاحشـةٍ ومتناقضاتٍ متباينةٍ في الرسمِ والهجاء ... (لذلك) وقع في كتابةِ المصاحفِ اختلافٌ كبير في وضع الكلماتِ من حيثُ صناعة الكتابة ورسمها » [١] .

هذا كلام الواقعِ والحقيقةِ، ولكن النتيجةَ هي إن ا َ لا يعجزه حفظ كتابهِ العزيزِ سالِما وسليماً من المتناقضاتِ والأخطاءِ والاختلافاتِ والعِوج، وهـو القائل : « إِنّا له لحافظون » ، « لا اختلافَ فيه » و « لا عِوج » . وظل ا ُ يقاوم الانحرافاتِ والتبايناتِ التـي أصـابتْ مصحفَ عثمان حتى جاء بالحجاجِ بن يوسف أشهر « دهاةِ التاريخ العتاةِ الـذين يسـتبيحون جميع المحرماتِ في سبيل مآربهم » [٢] .

لقد قاوم ا ُ حتى الآن ضعفَ النبي ووهن ذاكرتِه، ومنَـع عنـه حبائـلَ الشـيطان ودسائِسه، وحفظَ الصحابةَ من كل ميلٍ وهوى، وعصمهم بقدرتهِ العاصـمة، ودفَـع الخلفـاء الراشدين لجمعِ شتاتِ المصاحفِ دفعاً، وأنار عقلَ عثمان بن عفّان ليختار من الحروفِ السبعةِ « أصحها » ، وألهم

----
(١) ابن الخطيب، الفرقان، ص ٥٧ ـ ٥٩.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٢ / ٢١٦.

زيداً بن ثابت اختيار مصحفِ حفصة من جملةِ مصاحفَ مختلفة، وجعلَ في قلوبِ أصـحابِ المصاحفِ فضيلةَ القَبول والرضى، ووقفَ بوجهِ كل محاولةِ انشقاقٍ في الدين ... وظـل ا ُ يسير بالقرآن بنجاحٍ حتى جاء بالحجاج.

جاء الحجاج بن يوسف فارتاح ا إليه. وارتاح المسلمون. وضبِطَ القرآن. وأُعجِمتِ الحروف. وشُكِلَتِ الكلمات. وأُثْبِتَتِ القواعِد. واستَوتِ الكتابة. وركز الخط والرسـم ... كـلُ شيء مع الحجاجِ أصبح مستَويا مستَقِيما. وكلُ ما يمت إلى القرآن بصلةٍ ضـبِطَتْ رسـومه وقوانينُه. فلن يعود بعد الآن مجالٌ لأي اختلافٍ في كتابِ ا ِ العزيز. إن بعض الأمور، على ما يبدو، لن تستقيم بدون قوةٍ وبطشٍ وسلطان. فكان الحجاج لها.

أما كيفَ وصلتْ حالُ القرآن إلى الحجاجِ فهذا من أمورِ البحث. وكيف تدخّلَ الحجاج ليضبطَ المخالفين ؟ فهذا أيضا من عمل رجالٍ عصامِيين. وا ُ هو مسير التاريخ في كل حال. وهو لن تستعصي عليه حال، ولن يتْرك كتابه لعبةً بأيدي العابثين.

إن معجزةَ ا ِ التي تمتْ على يدِ الحجاج لن تكون الأخيرةَ في عالَمِ المعجزات. ولـن يسلم ما صححه الحجاج ببطشِه وسلطانِه من صعوباتٍ جديدةٍ وتصـحيفاتٍ كثيـرة. ولهـذا تعددتْ، بعد عصرِ الحجاج، قراءاتُ القرآن، كما تعددتْ، من قبلُ، أحرفُه، ومصاحِفُه. وأكثر هذه المفاسد حصلتْ في العراق، وذلك بسببِ وضعٍ سياسي خطير. فلننظر :

*****

أولاً ـ الوضع السياسي

إن وصولَ عبدِ الملك بن مروان على خلافةِ الأمويين سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ لهو حاسم في العالم الإسلامي. ففكرةُ العصر الرئيسيةُ كانتْ آنذاك دعم السلطةِ المركزيةِ للحكم الأموي، وتوحيد قِوى الإمبراطوريةِ الإسلاميةِ الواسعة، وتحطيم كل مخالفٍ معاندٍ في الداخل. عندئـذٍ تكون ساعةُ الإصلاحِ مؤاتيةً حيثُ تُصبِح اللغةَ الرسميةَ للدولةِ الإسلامية، ويصـبح القـرآن موحدا مضبوطًا بحرفِهِ ورسمِه وترتيبِه في جميعِ الأمصار.

وكان لعبدِ الملك شخصيتان بارزتان : عبيد ا ِ بن زياد (+ ٦٧ هـ) والحجاج بن يوسفَ الثقفي (+ ٩٥). كان الأولُ حاكِمـًا على خُرسان وسجِستَان وبلادِ مـا بين النهرين، و « ينْسب إليه أنّه أمر رجلاً فارسي الأصل بإضافةِ الألِف إلى أَلْفَي كلمة حذفتْ منها، فكـان هذا الكاتِب ينسخُ : (قَالَتْ) بدلاً من (قلَتْ)، و (كَانَتْ) بدلاً من (كنَتْ) » [١] .

وكان الثاني، الحجاج بن يوسف، والِيا على الحجاز بعد قضائِه على ثورةِ مصعب بن الزبير وأخيهِ عبد ا ، ثم حاكِما على العراقِ المضطربِ بفتَن الخَوارجِ والشيعةِ والساخطين، فأخمدها وأرسلَ الجيوشَ التي فتحتْ بخَارى وبلْخَ والسِـنْد وعمـان وسـائِر المقاطعـاتِ الإيرانية. [٢] و « كان يرى طاعةَ الخليفةِ فرضا دينيا، فأدى به ذلك مع كثرةِ الفِتَن إلى القَسوةِ

---

(١) ابن أبي داوود، كتاب المصاحف، ص ١١٧، ونوادكه، ص ٢٥٥.
(٢) لامنس، الانسكلوبيديا الإسلامية، ٢ / ٢١٥.

في سياستهِ، فَكَرِهه الكثيرون وَألصقُوا باسمهِ القَصص الكريهة. وكان متعصبا للعروبةِ، قَقَسا على الموالي، وأحل اللغةَ العربيةَ محل غيرها في الدواوين. ولما كثر الخطأُ في قِراءةِ القرآن عهد إلى نصر بن عاصم بضبطِهِ » [٣] .

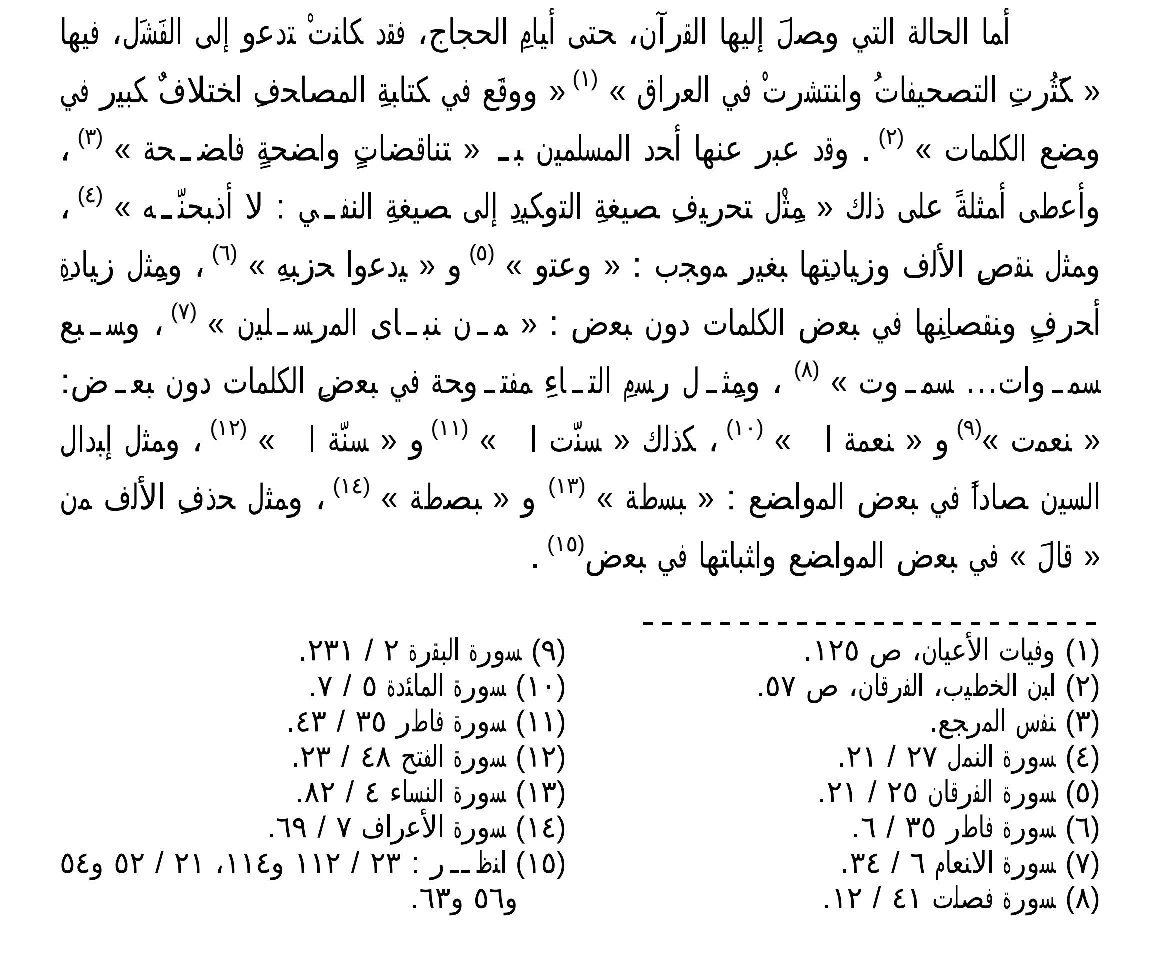
وخلالَ هذه الفِتَن، في الداخل والخارجِ، نشطَ كثير من القراءِ وانقسموا فيما بينهم، بين مناصِرٍ للثورة، ومناصرٍ للحجاج، واختلفوا في نصوصِ القرآن وقراءاتِه وحروفهِ وإعرابهِ ... ومثالُ ذلك مالك بن أنس الذي انتصر لقرآن ابن مسعود وقـرآن أُبـي بـن كعـب، وكـان الاضطهاد عليه مِن قِبل الحجاج عنيفًا، وكذلك على الذين أحبوا قرآنَي علي بن أبـي طالـب وأبي موسى الأشعري.

ومن هم الحجاجِ في اخمادِ الفِتَن ووحدةِ المسلمين انتقلَ الحجاج إلـى هـم اصـلاحِ مِصحفِ عثمان وتوحيدِ الكتابِ؛ لأن توحيد الكتابِ يجر حتما إلى توحيدِ صفوفِ المسـلمين، وهو الأمر الذي قام به القس ورقّة بن نَوفَل والنبي محمد من قبل، ومن بعدِهما عثمـان بـن عفّان، ثم الحجاج بن يوسف، وهو على هذا المستوى، لوفرةِ ذكائِه وبطشِه وتعصبه.

ولئن كانتِ المهمةُ صعبةً، وصعبةً جدا، في تتبع المصاحفِ العثمانيةِ المنتشرةِ في كل مكانٍ بانتشارِ المنشقّين وأصحابِ البِدعِ والفِرقِ المتعددة، فان أهون الأمور كان، عند الحجاج، ضبطَ مصحفِ عثمان واصلاحه، فتزولُ، بذلك، سائر المصاحفِ، وتتوحد الأمةُ على قـراءةً واحدة. وليس من وسيلةٍ أخرى[٤] .

---

(٣) الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق الغربال، مادة الحجاج بن يوسف، ١ / ٦٩٠.
(٤) انظر الحيوان للجاحظ ٥ / ٦٥، نزهة ٢٠، القالي للأمالي ١ / ٨٦ .



ثانياً ـ وضع المصاحف العثمانية

أما الحالة التي وصلَ إليها القرآن، حتى أيامِ الحجاج، فقد كانتْ تدعو إلى الفَشَل، فيها « كثُرتِ التصحيفاتُ وانتشرتْ في العراق » [(١)] « ووقَع في كتابةِ المصاحفِ اختلافٌ كبير في وضع الكلمات » [(٢)] . وقد عبر عنها أحد المسلمين بـ « تناقضاتٍ واضحةٍ فاضـحة » [(٣)] ، وأعطى أمثلةً على ذلك « مِثْل تحريفِ صيغةِ التوكيدِ إلى صيغةِ النفـي : لا أذبحنّـه » [(٤)] ، ومثل نقصِ الألف وزيادتِها بغيرِ موجب : « وعتو » [(٥)] و « يدعوا حزبهِ » [(٦)] ، ومِثل زيادةِ أحرفٍ ونقصانِها في بعض الكلمات دون بعض : « مـن نبـاى المرسـلين » [(٧)] ، وسـبع سمـوات... سمـوت » [(٨)] ، ومِثـل رسمِ التـاءِ مفتـوحة في بعضِ الكلمات دون بعـض: « نعمت »[(٩)] و « نعمة ا » [(١٠)] ، كذلك « سنّت ا » [(١١)] و « سنّة ا » [(١٢)] ، ومثل إبدال السين صاداً في بعض المواضع : « بسطة » [(١٣)] و « بصطة » [(١٤)] ، ومثل حذفِ الألف من « قالَ » في بعض المواضع واثباتها في بعض[(١٥)] .

---

(١) وفيات الأعيان، ص ١٢٥.
(٢) ابن الخطيب، الفرقان، ص ٥٧.
(٣) نفس المرجع.
(٤) سورة النمل ٢٧ / ٢١.
(٥) سورة الفرقان ٢٥ / ٢١.
(٦) سورة فاطر ٣٥ / ٦.
(٧) سورة الانعام ٦ / ٣٤.
(٨) سورة فصلت ٤١ / ١٢.
(٩) سورة البقرة ٢ / ٢٣١.
(١٠) سورة المائدة ٥ / ٧.
(١١) سورة فاطر ٣٥ / ٤٣.
(١٢) سورة الفتح ٤٨ / ٢٣.
(١٣) سورة النساء ٤ / ٨٢.
(١٤) سورة الأعراف ٧ / ٦٩.
(١٥) انظــر : ٢٣ / ١١٢ و١١٤، ٢١ / ٥٢ و٥٤ و٥٦ و٦٣.

« والناظر لهذا الاختلاف، الذي أوردنا بعضه، يرى أن الرسم القديم يقلـب معـاني الألفاظ، ويشوهها تشويها شنيعاً، ويعكس معناها بدرجةٍ تُكفر قارئيه وتحرفُ معانيه. وفضـلاً عن هذا فان فيه تناقضا غريبا، وتنافرا معيباً، لا يمكن تعليلُه، ولا يستطاع تأويله » [١٦] .

« ولَحن الكتّابِ في المصحفِ العثماني أدى إلى تحريفٍ في الكَلِمِ المنزل : ذلك رأي عائشة في قولِهِ : « إن هذان لساحران » [١٧] ، « والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكوة » [١٨] ، « إن الذين آمِنوا والذين هادوا والصابئون » [١٩] قالت : « هذا مِن عمل الكُتابِ أخطأوا فـي الكتاب » .

« ورأي سعيد بن جبير قال : « في القرآن أربعةُ أحرفِ لَحنٍ ... وقد قرأَها مستقيمةً بعض القراء، مثل أبي عمرو ويعقوب. وسئِلَ أبان بن عثمان عن « المقيمين » وما بين يديها وما خلفها رفْع وهي نصب ؟ قال : « مِن قِبل الكاتِب » .

« وكان ابن عباس يبدلُ القراءةَ المشهورةَ بقراءتِه : « حتّى تستأنسوا وتسلموا » [٢٠] و « أفلم يتبين الذين آمنوا » [٢١] و « وصى ربك » [٢٢] بدلاً من « حتى تستأذنوا، أفلم ييأس، وقضى ربك » ، ويقول : « انّمـا هي مِن خَطَأِ الكاتبِ قد كَتَبهـا وهو نَاعِس » . وكان يقرأ « مثلُ نور المؤمن كمشكاةٍ » بدلاً من « مثل نوره » ، ويقولُ هي خطأٌ مِن الكاتِـب، وهـو تَعالى

---

(١٦) ابن الخطيب، الفرقان ٧١ ـ ٨٢ الفصل كله، عن الحداد ١ / ٢٤٦.
(١٧) سورة طه ٢٠ / ٦٣.
(١٨) سورة النساء ٤ / ١٦٢.
(١٩) سورة المائدة ٥ / ٦٩.
(٢٠) سورة النور ٢٤ / ٢٧.
(٢١) سورة الرعد ١٣ / ٣١.
(٢٢) سورة الإسراء ١٧ / ٢٣.

أعظم من أن يكون نوره مثلَ نور المشكاة » . ختَم بقوله : « ومما لا شـك فيـهِ أن كتـاب المصاحفِ من البشر يجوز عليهم ما يجوز على سائِرهم مـن السـهو والغَفْلَـةِ والنِسـيان، والعصمةُ ـِ وحده. وقد اختلفوا في عصمةِ الأنبياء. والقولُ الراجح إنهم معصـومون فيمـا يتعلّقُ برسالاتهم فقط، أما ما عداها فشأنُهم كشأن بقيةِ البشر » [٢٣] .

هذه صورةٌ عما يمكِن تصوره. ومن أراد المزيد من هذه الصورة فليرجِع، مثلاً، إلى كتاب « حجةِ القراءاتْ » للإمامِ أبي زرعة بن زنجلة، وفيه أكثر من ٧٠٠ صفحة في تعـدد القراءات والاختلافات فيها[٢٤] .

أما السيوطي فيحصر أخطاء مصحفِ عثمان في « ستةِ قواعد : الحذف، والزيـادة، والهمز، والبدل، والفصل، والوصلُ، ويعطينا أمثلةً ضافيةً عن كل قاعدة، يبين فيها مـا فـي المصحفِ العثماني من كلماتٍ كُتِبتْ بأشكالٍ متعددة، خلافًا لما هو في اللغة العربية[٢٥] .

وكذلك الحجاج بن يوسف رفَع، في اثني عشَر موضِعا، كلماتٍ قرأَها الصحابةُ بـدلَ كلمات، مثل : « إيمانِهما » بدل « أيديهما » [٢٦] ، و « لا تُجزى نسمةٌ عن نسمة » بدل « لا تُجزى نفس عن نفس » [٢٧] ، و « صفراء لذّة للشاربين » بدل « بيضاء لذة للشاربين » [٢٨] ، و « ادراس وادراسين » بدل « الياس والياسين » [٢٩] ، و « جاءت سكرةُ الحق بـالموتِ » بدل « وجاءتْ

---

(٢٣) ابن الخطيب، الفرقان ٤١ ـ ٤٥ الفصل كلّه، عن الحداد ١ / ٢٤٦.
(٢٤) حجة القراءات، للإمام أبي زرعة بن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيـروت، ط ٣ ، سنة ١٩٧٩.
(٢٥) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ٢ / ١٦٦ ـ ١٧٣.
(٢٦) سورة المائدة ٥ / ٣٨.
(٢٧) سورة البقرة ٢ / ٤٨.
(٢٨) سورة الصافات ٣٧ / ٤٦.

سكرةُ الموتِ بالحقّ » [٣٠] ، و « صراط من أنعمتَ عليهم » بدل « صراط الـذين أنعمـتَ عليهم » [٣١] ، و « الحي القيام » بـدل « الحي القيوم » [٣٢] ، و « للـذين يقسمون » بـدل « للذين يؤلون » [٣٣] ، و « اركعي واسجدي مع الساجدين » بدل « واسجدي واركعـي مـع الراكعين » [٣٤] ، و « مثقالُ نملة » بدل « مثقال ذرة » [٣٥] ، و « تـزودوا وخيـر الـزادِ التقوى » بدل « وتزودوا فإن خير الـزاد التقوى » [٣٦] ، وأخيرا « وشاورهم فـي بعـض الأمر » بدل « وشاورهم في الأمر » [٣٧] .

*****

وهكذا ترى، بعد جمع عثمان للمصاحف وتوحيدها في مصحفٍ واحدٍ، كيفَ وقعـتِ الأخطاء والمتناقِضاتُ أحيانًا، رغم حرصِ المسلمين على سلامةِ النص والحرف. وأنتَ ترى أيضا كيفَ كانتِ الحالُ قبلَ عثمان ولماذا قرر عثمان توحيد المصاحف، ولماذا قال : « أجِـد فيهِ (في القرآن) ملاحِن وستُصلِحها العرب » [٣٨] ، ولماذا تدخّلَ الحجاج بسـلطانهِ فتجـرأ على إتلافِ المصاحفِ العثمانية، حتى لم يبقَ منها إلى اليوم مصحف ...

----

(٢٩) سورة الصافات ٣٧ / ١٢٣.
(٣٠) سورة ق ٥٠ / ١٩.
(٣١) الفاتحة ١ / ٧.
(٣٢) سورة آل عمران ٣ / ٢.
(٣٣) سورة البقرة ٢ / ٢٢٦.
(٣٤) سورة آل عمران ٣ / ٤٣.
(٣٥) سورة النساء ٤ / ٤٠.
(٣٦) سورة البقرة ٢ / ١٩٧.
(٣٧) سورة آل عمران ٣ / ١٥٩.
(٣٨) ابن أبي داوود، كتاب المصاحف، ص ٣٢.

ثالثاً ـ ضبط المصاحف العثمانية

بسبب هذا الوضع السيئ للمصاحفِ العثمانية وسوءِ تلاوتِها، تَدخلَ الحجاج فأصلح ما أمكنه اصلاحه، وأتلفَ ما أمكنه اتلافه، ولمس الجميع مع الحجاجِ فساد القراءات، فطلب زياد بن سمية والي البصرة من أبي الأسود الدؤَلي النحوي الشهير أن يضـع طريقـةً لإصـلاحِ الألْسنة، وقالَ له : « إن هذه الحمراء قد كَثُرتْ وأَفْسدتْ من أَلسنةِ العرب، فلو وضعتَ شـيئًا يصلِح به الناس كلامهم ويعربون بهِ كتاب ا » .

« فأَبى أبو الأسود أولاً لبعضِ أسبابٍ كان يراها. فأمر زياد رجلاً أن يقْعد في طريقِ أبي الأسود، فلما قاربه رفع صوتَه بالقراءةِ كأنّه يقصد إِسماع أبي الأسود، وقـرأَ : « إن ا َ بريء مِن المشركين ورسولِهِ » ، بِكسر اللام. فأعظم ذلك أبو الأسود وقال : « عز وجه ا ِ أَن يبرأَ مِن رسولِهِ » . ثم رجع من حينهِ إلى زياد، وقالَ له : « قد أَجبتُك إلى مـا سـأَلْتَ، ورأيتُ أن أَبدأَ بإعرابِ القرآن » . فكان ذلك[1] .

ولكن، رغم هذه الرواية، يختلفُ الناس فيمن بدأَ بضبطِ المصحف،أهو أبـو الأسـود الدؤلي أم الحسن البصرى أم يحيى بن يعمر، أم نصر بن عاصم الليثي[2] ؟ ا ُ أعلم. وفي كل حال، جرى الإصلاح، وقام على

---

(١) الزركشي، البرهان ١ / ٢٥٠ ـ ٢٥١، الزنجاني، تاريخ القرآن ٨٧ ..

(٢) السيوطي ٢ / ١٧١. انظر في سيرة هؤلاء الرجال : وفيات الأعيان ٢ / ٢٢٦، وغاية النهايـة ٣٨١، وسير النبلاء ٤ / ٢٥١ وغيرها ...

وضع النقَطِ فوقَ الحروفِ المتشابهة، والشكل فوقَ الحروفِ لتعيين مواقِع الكلمات، ووضـع الهمز والتشديدِ والروم والاشمامِ، ورسمِ الخطِ وحروفِ العلّة ... وغير ذلك.

ومع هذا بقي في القرآن كلماتٌ لم يجر عليها الإصلاح، في حين أن كلماتٍ أُصـلِحتْ في مكانٍ وبقيتْ كما هي في مكانٍ آخر. فتجد مثلا كافرون وكفرون، وأنهار وأنهر، وأطيعون وأطيعوني، وسموات وسموت؛ ويعد هذا الشذوذُ بالآلاف. لعلّ التصحيح توقّفَ في منتصـفِ الطريق ؟ أو لعلّ في القرآن لغَتَين : حجازية ونجدية ؟ أو لعلّ قدسيةَ الحرف أوقفتْ حماسـةَ المصلحين! والمعروفُ عن ابن مسعود قولُه : « جردوا القرآن ولا تَخلِطوه بشيء » . [٣] .

وخشية المسلمين زيادة شيءٍ على القرآن، اعتمد المصلحون على استعمال الألـوان : فكان « الحركاتُ والتنوين والتشديد والسكون والمد بالحمرةِ، والهمزاتُ بالصفرة » [٤] . وأما الشكلُ فكان نقَطـًا : فالفتحةُ نقطة على أول الحرف، والضمةُ على آخِـرِهِ، والكسرةُ تحـت أوله » [٥] . وعندما جاء الخليل (+ ٧٨٦) جعلَ « الفتح شكلةً مسـتطيلةً فـوق الحـرف، والكسر كذلك تحتَه، والضم واو صغرى فوقَه، والتنوين زيادة مثلها » [٦] .

ومن ناحيةِ السور، لم يكن يفصِل بين سورةٍ وسـورةٍ إلا فسـحةُ بيضـاء أو دائـرةٌ مزركشة، دون عنوانٍ لها[٧] . ولكن، في المخطوطاتِ الكوفية،

----

(٣) انظر السيوطي، ٢ / ١٧١.
(٤) نفس المرجع.
(٥) نفس المرجع.
(٦) نفس المرجع.
(٧) ابن أبي داوود، كتاب المصاحف، ص ١٥٨.

أصبح عنوان السورةِ في الدائرة. وهو، كما يبدو، مضافٌ إليها فيما بعد. وقد أخرج ابن أبـي داوود عن النخعي إنّه كان يكره أن يكتب في المصحفِ سورة كذا وكذا. وكذلك الحليمي يكره كتابة أسماءِ السور وعددِ الآياتِ وكتابةَ الأعشار والأخماسِ والفَواتِح والخواتِم[٨] ...

ويبدو أيضا أن المصاحفَ الحجازية لا تتضمن أرقام الآيات، مثل مخطوطِ المكتبـةِ الوطنية بباريس رقم ٣٢٨، في حين تتضمنها أرقام ٣٢٦ و ٣٢٤. وفي البدءِ كان يفصلُ بين الآيةِ والآيةِ خط منحرف، وفيما بعد فصلتْ بزخرفةٍ على شكل زهرة، وكانتْ غالب الأحيـان مذهبةً. كما كان يوضع بين أوراق المصحفِ أوراقٌ من زهر الورد، اذ « يسـتَحب تطييـب المصحف » [٩] .

*****

هذا التجديد في المصحفِ، بإضافةِ عناوين السور وعددِ الآياتِ ووضـعِ الحركـاتِ والنقطِ وتقسيمِ القرآن إلى أجزاء وأعشار وأخماس وأحزاب وغير ذلك، كان مدار جدالٍ طويلٍ في الإسلام حتى أواخر الجيل الثالث للهجرة / بدايةِ الجيل العاشر للميلاد. وكان الجدالُ يدور حولَ شرعيتِها، وكانتِ السلطاتُ السياسية تحزم بالأمر وتجـزم. واختلـفَ المحـدثون فـي شرعيتها. وصوابيتِها، كما هم مختلفون حتى اليوم بشرعيةِ طباعةِ المصاحفِ بخط المطـابع دون الرسم العثماني.

ففي نَظَر بعضِهم، كالزرقاني وابن المبارك وعبدِ العزيز الدباغ وغيرهم، أن الرسـم العثماني أمر الهي وسِر رباني. « وما للصحابةِ، ولا

(٨) السيوطي، الاتقان ٢ / ١٧١، الأعشار والأخماس تقسيم الآيات ١٠ و ٥.
(٩) نفس المرجع ٢ / ١٧٢، انظر المحكم، ص ١٥.

لغيرهم في رسمِ القرآن ولا شعرةٌ واحدة، وانما هو توقيفٌ من النبي، وهو الـذي أمـرهم أن يكتبوه على الهيئةِ المعروفة ... لأسرارٍ لا تهتدي إليها العقول؛ وهو سر من الأسرار خَـص الُ بهِ كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية. فكمـا أن نَظْم القرآن معجز فرسـمه أيضـا معجز » [١٠] .

وللرسمِ العثمـاني في نفسِ الإمام أحمد بن حنبل قدسية لا مجـالَ للشك فيهـا، وهو « يحرم مخالفةَ خط مصحفِ عثمان في واو أو ألف أو ياء أو غير ذلك » [١١] . وعندما سئِل الإمام تغيير الرسمِ العثماني أجاب « لا أرى ذلك. ولكن يكتَب على الكَتْبـةِ الأولـى » [١٢] ، وقال البيهقي : « من يكتب مصحفًا فينبغي أن يحافِظَ على الهجـاءِ الـذي كتبـوا بـه تلـك المصاحف، ولا يخالِفُهم فيه، ولا يغير مما كتبوه شيئًا، فانّهم كانوا أكثر عِلما وأصـدقَ قلبـا ولسانًا وأعظم أمانةً منّا » [١٣] .

أما القاضي أبي بكر الباقلاني فهو يجيز تغيير الرسمِ العثمـاني دون خـوفٍ علـى قدسيته. ولكن الزرقاني رد عليه واستشهد في دحضِ آرائه بجمهرة من العلماء[١٤] .

وفي رأي المسلمين اليوم بعض الشَفَقَةِ على العامةِ من الناسِ الذين « لا يستطيعون أن يقرؤوا القرآن في رسمِهِ القديم، فيحسن، بل يجب، أن يكتب لهم بالاصطلاحاتِ الشائعةِ فـي عصرهم » . ولكنّهم، مع هذه الشفقة ألا يستطيعون التخلّص من قدسيةِ الرسم العثماني، لهـذا فَهم لا يبيحون إلغاءه بهذِهِ السهولة، لأن في إلغائِه تشويها لرمزٍ ديني عظيم، اجتمعتْ عليـه الكلمة، واعتصمتْ به الأمة من الشقاق » [١٥] .

---

(١٠) الزرقاني، مناهل العرفان ١ / ٣٧٠.
(١١) السيوطي، الاتقان ٢ / ١٦٧.
(١٢) نفس المرجع، المقنع ١٠ .
(١٣) السيوطي، ٢ / ١٦٧.
(١٤) الزرقاني ١ / ٣٧٣ ـ ٨ ...
(١٥) الصالح، ص ٢٨٠.

رابعاً ـ رخصة القراءات

قضى الحجاج، وفي ظنه أن كل خلافٍ حولَ المصحف قد حل من جـذوره. ولكـن الناس، بعد موتِهِ، عادوا إلى ما كانوا عليه من خلافات. والخلافُ، الآن، يقوم علـى قـراءةِ مصحفِ الحجاجِ نفسه، أي على كيفيةِ قراءته. وكان كلُّ قارئ يقرأُ القرآن بحسبِ مـا نشـأ عليه، لا بحسب ما جرى الاصطلاح فيه أو الإصلاح عليه.

« وتدور هذه الخلافيات على الأغلب في النطاق التالي :

١ً ـ مخارج الحروف، كالترقيق والتفخيم والميل إلى الخـارج المجـاورةِ، كنطـق الصراطِ بإمالةِ الصاد إلى الزاي.

٢ً ـ والاداء، كالمد والقصرِ والوقفِ والوصل والتسكين والإمالة والأشْمام.

٣ً ـ والرسم، كالتشديدِ والتخفيفِ، مثل « يغشَى يغَشّى » ، و « فُتِحت وفُتحـت » ، والإدغام والإظهار، مثل « تَذَكرون وتتذكرون » . والهمز ومد الألف، مثل « مٰلكِ ومالك » ، و « مسٰجد ومساجد » ، لتحمل الرسم النطقين.

٤ً ـ والتنقيط والحركـات النحوية، مثـل « يفعلـون وتفعلـون » ، و« أرجلكـم وأرجِلكم » ، مثلا » [1] .

---

(١) محمد عزة دروزة، القرآن المجيد، ص ١٣٦.

أما الشروط التي حدد بها المسلمون صحة القراءة، منعا لتفاقم الخـلاف، فأربعـةٌ : التواتر، وموافقةُ قواعدِ اللغةِ العربية، ورسم المصحفَ العثماني، وصحةُ سنَدِ القراءةِ إلى أحدِ قراءِ الصحابة.

ورأى المسلمون تبريرا من النبي نفسِه لهذه الاختلافـات، فقـال الإمـام الطحـاوي والقاضي الباقلاني وأبو عمر بن البر وغيرهم من أئمة الكلام : « إن القراءاتِ جميعها كانتْ رخْصةً في أول الأمر، لتعسر القراءةِ بلغةِ قريش على كثيرٍ من الناس ... » [٢] .

وقال ابن قتيبة : « إن مِن تيسيرِ ا أن أمر نبيه أن يقرئَ كلّ قـومٍ بلغـتهم » [٣] . وكذلك هو رأي الطبري الذي جوز لعثمان بن عفّان جمع الناسِ على حرفٍ واحد من الأحرف السبعة، كما رأينا.

ورأى المسلمون أيضا للنبي تبريرا من عندهم فقال ابن قتيبة : « ولو أن كلّ فريـقٍ من هؤلاء أمر أن يزولَ عن لغتهِ وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئًا وكهلاً لأشتد ذلك عليه، وعظمـتِ المحنةُ فيه، ولم يمكنْه، إلاّ بعد ريـاضةٍ النفسِ طويلة، وتذليـل للسـان، وقطـعِ العادة » [٤] .

*****

أما القراءات فهي تختلف من حيثُ انتماء أصحابِها إلى العواصمِ الإسلامية الكبـرى، كما تختلفُ من حيثُ عددها، فمنهم من قال بسبعِ قراءات، ومنهم بعشرٍ، ومنهم بأربع عشرة.

(٢) دروزة، ص ١٣٩، عن ابن الخطيب، الفرقان، ص ١٦٧.
(٣) نفس المرجع.
(٤) تأويل مشكل القرآن، ص ٢٧، النشر في القراءات العشر ١ / ٢١، ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ١٢٣.

وشيخ القراء في المدينة كان « نافع المدني » (+ ١٦٩ هـ)، وفي مكّة « ابن كثير » (+ ١٢٠ هـ)، وفي البصرة « زبان بن العلاء المازني » (+ ١٥٤ هـ)، وفي الشام « ابـن عامر الدمشقي » (+ ١١٨ هـ)، وفي الكوفة « عاصم بن أبي النجـود » (+ ١٢٧ هـ)، وهكذا إلى آخرهم، كما هو معروف في الكتب. ومن أراد معرفتهم بالتفصيل فليقرأ مثلاً كتاب « حجة القراءات » للإمام أبي زرعة بن زنجلة(٥) ... ومن المعروف أيضا أنّه كان لكل قارئ تلاميذ، أخذوا عنه طريقتَه في التلاوةِ والأداءِ والتجويد.

« هذا غير قراءات أخرى لا عداد لها سميت « شاذّة » ، لشذوذها عن اللغة، وعمـا أجمع عليه المسلمون، ولتغييرها للألفاظِ والمعاني في كثيرٍ من المواضع. وقد بلغَ مـن هـذه القراءاتِ والاختلافاتِ ان الآيةَ الواحدةَ، التي لا يختِلفُ في النطق بها ولا في معناها اثنان، قد يبلغُ الاختلافُ في روايتِها إلى عشرين أو ثلاثين أو أكثر من ذلك. وقد بلغتْ هـذه الطـرق تسعماية وثمانين طريقًا للقراءاتِ العشر فقط » (٦) .

******

ولم يقتصر الخلافُ في القراءاتِ وحسب، بل تعداها إلى معنى الآياتِ وكيفيةِ فهمِها. ومن هذا القبيل قالوا بـ « المحكَم والمتَشَابهِ » في القرآن. وهذا يعتمد على مـا جـاء فـي الكتاب: « هـو الذي أنزلَ عليك الكتـاب، منه آياتٌ محكمـات هـن أم الكتـاب، وأُخَـر متَشَابِهات » (٧) . وقام

---

(٥) انظر : صفحة ٥١ ـ ٧٣ حيث تجد سيرة كل قارئ مع تلاميذه.
(٦) انظر : الحداد، القرآن والكتاب ١ / ٢٥١، عن الفرقان لابن الخطيب.
(٧) سورة آل عمران ٣ / ٧.

مِن بين المسلمين من قال : « إن القرآن كله محكم، لقولِهِ تعالى : كتاب أحكمـت آياتـه » . ومن قال : « كله متشابه، لقولِهِ تعالى : كتاب متَشَابهاً مثاني » [٨] .

وتحديد « المحكَمِ » هو « ما عرفَ المراد منه » ، أو « هو الذي يدل علـى معنـاه بوضوحٍ لا خفاء فيه » ، أو أيضـًا « ما لا يحتَمِل من التأويل الاّ وجهـا واحداً » . وتحديد « المتشابِه » هو « ما استأثر ا ُ بعلمِهِ، كقيامِ الساعة وخروجِ الدجال والحروفِ المقطعة في أوائل السور » ، أو « هو الذي يخلو من الدلالةِ الراجحةِ على معناه » ، أو أيضـا « مـا لا يدرك الاّ بالتأويل » [٩] .

واختلافَ المسلمون فيمن يعرفُ المتشابِه : أهو ا ُ وحده، من قولِهِ تعالى : « لا يعلـم تأويلَه الاّ ا » ؛ أم يعلمه أيضا « الراسخون في العلم ؟ » والواقع إن أمورا متشابِهةً يعرفُها ا ُ وحده، وأموراً يعرفُها العلماء الذين يعتمدون على الاجتهادِ والتأويل. وما لا يعلمه العلماء مثلاً، علم الساعةِ واليومِ الأخير وذاتِ ا وخروجِ الدابة وعلم مـا فـي الأرحـامِ ومعرفـةِ المستقبل وساعةِ الموت[١٠] ... كلّها منوطٌ با ِ وحده.

أما ما يمكن للعلماءِ معرفتُه فقد اختلفوا فيه : اختلفوا في صفاتِ ا التي تشبه ذاتَ ا ِ بالبشر، كقوله : « الرحمٰن على العرش استوى » [١١] ، و « يبقى وجه ربك » [١٢] ، و « يد ا ِ فوقَ أيديهم » [١٣] ، وغيرها. فمنهم

---

(٨) انظر السيوطي، ٢ / ٢.
(٩) نفس المرجع.
(١٠) انظر سورة لقمان ٣١ / ٣٤.
(١١) سورة طه ٢٠ / ٥.
(١٢) سورة الرحمن ٥٥ / ٢٧.

من آمن بها كمـا هي وفوّض معرفتَهـا إلى ا ِ، كقول الإمـام مالك عن الاسـتواء في آية « الرحمن على العرش استوى » ، فقال : « الاستواء معلوم، والكيفُ مجهول، والسؤالُ عنه بدعة، وأظنك رجلَ سواءٍ. أخرجوه عنّي » [١٤] .

ومنهم من ذهب في تأويلها حتى يليقَ معناها بذاتِ ا ، ففسروا مـثلا « الاسـتواء » بالعلو المعنوي بالتدبير من غير معاناة » [١٥] ، و « الوجه » هـو ذات ا [١٦] ، و « اليـد » قدرتَه[١٧] . واختلافَ هؤلاءِ في التأويل بعضهم ببعض، ونشأ عن خلافِهم الفِرقُ في الإسـلام، فكانتِ الجهمِيةُ والجبريةُ والقدريةُ والمعتزلةُ والصفاتِية وعلماء الكلام وغيرهم ...

إلاّ أن مسلمي اليوم يرون في وجودِ المتشابهِ حكمةً ما بعدها حكمة، فيقـولُ الشـيخ صبحي الصالح مثلا : « لعل اشتمالَ القرآن على المتشابهِ وعدمِ اقتصارِهِ على المحكمِ وحده، أن يكون حافِزا للمؤمنين على الاشتغال بالعلومِ الكثيرةِ التـي تُقَـدرهم علـى فَهـمِ الآيـاتِ المتشابِهات، فيتَخلصون من ظلمةِ التقليدِ، ويقرؤون القرآن متدبرين خَاشِعين » [١٨] .

******

وقام أيضاً من بين المسلمين من يتعرض للقرآن، بعد إصـلاحه وجمعـهِ وضـبطهِ، ويعبرون عن مواقِفهم بتعابير مثل : التحريفِ والتصـحيفِ والتبـديل والإقحـامِ والزيـادة والنقصان ... وغيرها. فكان منهم من قِبلَ

----

(١٣) سورة الفتح ٤٨ / ١٠.
(١٤) السيوطي، الاتقان ٢ / ٦.
(١٥) نفس المرجع ٢ / ٧، البرهان ٢ / ٨٠ ـ ٨٢.
(١٦) نفس المرجع ٢ / ٧، البرهان ٢ / ٨٢.
(١٧) الاتقان ٢ / ٧ و ٨.
(١٨) الشيخ صبحي الصالح، مباحث ... ص ٢٨٦، عن البرهان ٢ / ٧٥.

بالقرآن على وجوهه، ومنهم من رفض منه كثيرا من السور والآياتِ.

فالمعتزلة، التي ترى في ا ِ الصلاح المطلق، ترفض أن يكون فـي القـرآن شـتائم ولعنات، كما هو الحال في عداوة النبي محمد وأبي لهب وامرأته حمالةِ الحطب، والوليدِ، وأبي جهل، وغيرهم[١٩] . فهذه الشتائم لا تليقُ بالوحي بحالٍ من الأحوال، فرفضها المعتزلة، وقالوا بأن إضافاتٍ بشريةً حدثتْ في القرآن[٢٠] .

والعجاردةُ أنكرتْ أن تكون سورةُ يوسف من القرآن، وتقولُ بأنّها في حقيقتها قصـةٌ غراميةٌ لا تليقُ بالوحي، ولا يعقَلُ أن تكون من صلبِ القرآن[٢١] . فهي بالتالي إضافةٌ بشريةٌ على كلامِ ا .

والعبادِية يشتكون من عثمان ويتّهمونَه بتصحيفِ القرآن وتحريفِه من أجـل غايـاتٍ سياسيةٍ معروفة[٢٢] . وكذلك بعض شيعةِ علي وقد كانوا أكثر تهجماً على القـرآن، واتّهمـوا عثمان بحذفِ كل ما يمتّ إلى علي بن أبي طالبٍ بصلة، وأوجدوا لذلك لفظةَ « تبـديلٍ فـي القرآن » [٢٣] .

ربما يكون انتقاد الفِرق لمصحفِ عثمان وإصلاح الحجاج مغرضا، لمآرب سياسـيةٍ ومصالح شخصيةٍ، ولكن النَقْد الصحيح لا بد له أن ينظر في الأسس التاريخية التي، بالكشفِ عنها، قد تكون جارحةً في حق كلامِ ا ، ولكن لا بد منها لأجل حق ا :

----

(١٩) Goldziher, Dogme, p. 163.

(٢٠) Nöldeke, Geschichte des Qorans, II, 94.

(٢١) انظر الشهرستاني، الملل والنحل ٩٥، Goldz., Dogme, 162

(٢٢) Massignon, Hallaj, 242 et n° 7.

(٢٣) Nöldeke, G. d. Q. II, 94 …

من حق ا ـ أن يسألَ عن تبديل الآياتِ الذي جرى في السور : فلماذا وضعتْ آية ٦١ في سورة ٢٤ في الموضِع الذي هي فيه، فيما هي في السورة ٤٨ آية ١٧ في مكان آخـ ر ؟ ويبدو أن هذه الأخيرة هي الأصح! ولماذا آية ٤ في سورة ٧٠، وهي بدون نظم ولا قافية، بل لكأنّها تفسير للآية السابقة! وكذلك آية ٣٨ في سورة ٤٢ فهي اقحام على النص زادها عثمان لتبرير خلافته على حسابِ علي(٢٤) . وكذلك ٣ / ١٤٤ فهي أيضا مقحمة، لا محرفة فقط كما يدعي « دى ساسي » و « ويل » .

ثم لئن كانتْ سورةُ « النـ ورين » شيعيةً لا يعتَد بأَصالَتِهـ ا، فإن سورتَي « الحفْدِ » و « الخَلْعِ » ، الواردتين في مصحفَي أُبي بن كعـ ب وابـ ن مسـ عود لا يظَـ ن بزيادتِهمـ ا، وأصحابهما من خِيرةِ القراءِ من الصحابة! ثم إن آيةَ الرجمِ، وقد أكدها عمر وحده، هل يؤخَذُ بها، والشاهد عليها رجلٌ واحد، فيما اتّفق المسلمون على إثباتِ الآيةِ من جملةِ شهود! الخ ...

******

الحقيقة إن مصحفَ الحجاج لم يسلَم من التِهمِ والرفض. فاختلافُ المسلمين فيه خيـ ر دليل. وما إيجاد نظرياتٍ، مثل « تعددِ القراءات » ، والتمييز بين « المحكَـ مِ والمتشَـ ابِه » ، وبين « الناسِخ والمنسوخ » ، ورفضِ بعض السور والآيات ... إلاّ تبرير لِما لم يفْلِـ ح فيـ ه الحجاج. ولئن بقي القرآن كتاب إيمانٍ لا يمسه الاّ المطهرون، فانّه سيظلّ عنـ د المـ ؤرخين موضوع بحثٍ يحق لأي باحثٍ قَلِقٍ التثبتَ من أساساتِه.

----

(٢٤) Casanova, Mohammed et la fin du monde, p. 151.

خاتمة الفصل

لنا على إصلاحات الحجاج بعض الملاحظات : لماذا أتلفَ مروان بـن عبـد الملـك مصحفَ حفصة ؟ ألـ « خشيةِ أن يكون فيها ما ليس في المصحف العثماني ؟ » [٢٥] . ولماذا لم يبقَ بين أيدينا اليوم أيةُ نُسخةٍ من مصحف عثمان ؟ وهذا ما يقوله المسلمون أنفسهم : « إن الباحثَ ليتساءل : أين أَصبحتِ المصاحفُ العثمانية الآن ؟ ولن يظفِر بجوابٍ شافٍ على هـذا السؤال » [٢٦] .

وهناك روايةٌ تقول « بأن المصحفَ المتداول انّما هو مصـحفُ الحجـاج وجمعـه وترتيبه ... وأن الحجاج قد جمع المصاحفَ المتداولةَ ومصاحفَ عثمان وأبادها » [٢٧] ، وهي نظريةُ كازانوفا الذي « جعلَ الحجاج بن يوسف الثقفي أولَ جامعٍ للقرآن » [٢٨] . ورد الشيخُ صبحي بقوله : « إن كازانوفا لا يتورع عن المجازفةِ بإلقاءِ حكمٍ صبياني لا يوافقُه عليه عاقِل بين الناس » [٢٩] .

لا يعنينا هـذا الخلاف كثيرا بقدر ما يعنينا التساؤل: لماذا أتلـفَ الحجـاج النسـخَ العثمانية ؟ لو كان مصحفُ الحجاج موافِقًا لمصحفِ عثمان لَما تجرأ الحجاج على ذلك. وفي الاتلافِ صعوباتٌ جمة، إن لجهةِ قدسيةِ المصاحف، وإن لجهةِ ندرةِ الورق و « الرقـاع » ، وإن لجهةِ انتشار المصاحف في البلادِ الإسلامية ... فلو لم يكن تَعادلٌ بين صعوباتِ الإتلافِ من جهة، وأهميةِ الأسباب الداعيةِ إلى ذلك من جهةٍ ثانية، لَما أقدم الحجاج على مِثـل هـذا العمل بحالٍ من الأحوال.

---

(٢٥) انظر بلاشير، مقدمة القرآن (بالفرنسية)، ص ٧٠.
(٢٦) الشيخ صبحي، مباحث ... ، ص ٨٧، دروزة القرآن المجيد، ٨٣.
(٢٧) محمد عزة دروزة، القرآن المجيد، ص ٨٣.
(٢٨) كازانوفا، المرجع المذكور (بالفرنسية)، ص ١٢٧.
(٢٩) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٨٨.

هل إتلافُ الحجاجِ كان بسببِ ضبطِ مصحفِ عثمان وحسب ؟ أي هل كانتْ عمليـةُ الإعرابِ والإعجامِ هي الداعيةُ لهذا الإصلاح فقط ؟ ليس الأمر كما يبدو! بل هنـاك سـبب جوهري، هـو اختلافُ المصاحفِ بعضها على بعض. والخلافُ كان واضِحا جدا، بل هـو « تَناقضاتٌ واضِحةٌ فاضِحة » [٣٠] .

وهناك أكثر من خلاف وتناقضات : هناك « آياتُ المائِدة ويوسف والزخرف والحديد لم يقرأْ بها أحد من القراء، بل القراءةُ المشهورة هي كما غيرها الحجاج » [٣١] . ليس الخلافُ اذن وقْفَاً على بعضِ كلمات بل هو أبعد من ذلك، هو الآن في مجال صـحةِ وجـودِ بعـضِ الآيات وبعضِ السور.

وأخيرا، كيف صحح الحجاج مصحفَ عثمان، واقتضى لتصحيحِه اتلافُه ؟ ثم استبقى فيه غوامض لا حصر لها ؟ هذه الغوامض رأى لها المسلمون حلا في القـراءاتِ السـبع أو العشر أو الأربع عشَرة. وهكذا فالأمر عود على بدء : لقد خَلُّص عثمـان مـن « الأحـرفِ السبعة » إلى حرفٍ واحد، وخَلَّص الحجاج من « الحرفِ الواحد » إلى إصلاحهِ وتنقيحه، ثم هذا التنقيح والإصلاح أفضيا إلى غموضٍ كثير. وهذا الغموض الكثير أوجـد « القـراءاتِ » القرآنيةَ المتعددةَ، وأوجبها.

******

----
(٣٠) ابن الخطيب، الفرقان، ص ٧١.
(٣١) نفس المرجع، ص ٥٠ ـ ٥٢ في الحواشي.

يبدو، بعد كل هذا الغموض، أن معجزةَ القرآن تكمن، لا في المصحفِ واعجازه، بل في تقبل هذا الغموض. إن التسليم بما فعلَه الحجاج، ومن قَبِلِهِ الخليفةُ مروان بن عبد المـلك، ومن قَبِلِهِ عثمان وعمر وأبو بكر، هو أمر يدخلُ في عالَم المعجزات من بابِهِ الواسع.

قد لا يحتاج ا ، لإعلان رسالتهِ وانزال وحيهِ، إلى مثل هذه المعجزة الكلامية، بقـدر ما يحتاج إلى نفوسٍ تتقبلُ هذه المعجزةَ الطريفة. وإذا ما كان الإنسان بحاجةٍ إلى تجسـدِ ا ـ وظهورهِ ليتمكّن من إيمانِه، فهو لا يقرر الشكلَ الذي به يتجسد ا . في الإسلام اقرار بتجسـدِ ا ـ في كتاب، فكان على كثيرٍ من المسلمين أن لا يقبلوا بهذا النوع من التجسد. لقد عظُم على الموحدين الدروز أن يظهر ا ُ في كتابٍ ويتجسد في حروفه، وعظُم على العلويين النُصيريين أن يروا ا َ ينْساب ظله بين حروفِ القرآن وكلماته، لهذا أجمع الدروز على إظهار ا ـ فـي إنسانٍ هو « الحاكم بأمر ا »، كما أجمع النُصيريون على إظهار المعنويةِ الإلهيةِ في « علي بن أبي طالب » .

ويخشى على المسلمين السنّيين السلَفيين أنفسهم أن لا يكتفوا بمثل تجسدِ ا ـ في كتابٍ من كلماتٍ وحروف، فَعوضوا عن هذا النقصِ الإلهي في تجسدِهِ القرآني برد الاعتبـار إلـى حامل الرسالةِ والوحي، فرفعوا محمدا إلى مقَامٍ يكاد يكون إلهيا، فاعتبروه فوقَ البشَر، وأقاموا له الذكرى والاحتفالاتِ والأعيادِ، في الوقتِ الذي قالَ النبي عن نفسِه بأنّه بشر كسائر الناس، وبأن الأعياد والاحتفالاتِ الطقسيةَ إحياء لمراسِم الوثنيين وعبادِ الأصنامِ والمشركين.

******

الفَصل السابع

معجزة الإعجاز البياني في القرآن

أولاً ـ إعجاز لغة القرآن العربية

ثانياً ـ إعجاز أسلوب القرآن

ثالثاً ـ الحكم للّغة أم للقرآن ؟

[Blank Page]

مقدمة الفصل

في إيمان المسلمين أن « المعجزةَ أمر خارقٌ للعادة، مقْرون بالتحـدي، سـالِم عـن المعارضة. وهي إما حِسية، وأما عقلية. وأكثر معجزاتِ بني إسرائيل كانتْ حسيةً، لِبلادتِهم، وقِلّةِ بصيرتِهم. وأكثر معجزاتِ هذه الأمةِ عقليةً، لِفَرطِ ذَكائِهم، وكمال َأفهـامِهم؛ ولأن هـذه الشريعةَ، لما كانتْ باقيةً على صفحاتِ الدهر إلى يومِ القيامة، خُصتْ بالمعجزةِ العقليةِ الباقيةِ، ليراها ذُووا البصائر ..

« إن معجزاتِ الأنبياءِ انقرضتْ بانقراضِ َأعصارِهم، فلم يشاهِدها الاّ من حضـرها. ومعجزةُ القرآن مستمرةٌ إلى يومِ القيامة، وخَرقُه العادةَ في أسلوبِه وبلاغتِه وأخبارِه بالمغيباتِ؛ فلا يمر عصر من الأعصار الاّ ويظهر فيه شيء مما أخبر بِهِ أنّه سيكون يدلّ علـى صـحةِ دعواه » [1] .

لقد جاء القرآن معجزةً في كل شيء : في تحديه الإنس والجن على أن يأتوا بمثلِه، أو بمثل سورةٍ منه، وفي أسلوبِه البليغ، وفي أخبارِه عن المستقبل، وعن قَصصِ الأولين وسـائر المتقدمين، وعن الضمائر من غير أن يظْهر ذلك منهم بقولٍ أو فعل، وفي ما يحتويهِ من النَظْمِ والتأليفِ والترصيفِ، وفي التأليفِ الخاص بكل علمٍ بحيث نجد فيه كلّ فن في مرتبتهِ العليا في اللفظِ والمعنى، وفي نَظْمِهِ وصحةِ معانيه وتوالِي فصاحةِ ألفاظهِ،

---

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ٢ / ١١٦ ـ ١١٧.

وفي عالم البيان الذي يحتَرز به عن الخطأ في تأديةِ المعنى وعن تعقيـدِه، وفـي فصـاحتهِ وبلاغتهِ، وفي صرفِ الناس عن معارضتِه، وفي حسن تأليفه والتئامِ كَلِمِه ووجـوهِ إيجـازه وبلاغتِه الخارقةِ عادةَ العرب، وصورةِ نَظمهِ العجيب، والأسلوبِ الغريبِ المخالِفِ لأسـاليبِ كلامِ العرب، ولم يوجده قبلَه ولا بعده نضير له، والإخبار بالمغيباتِ، وما أنبأ به من أخبـار القرون السالفةِ والأممِ البائدةِ والشرائع الدائرة[٢] .

نشأ علم الاعجاز منذ القدم، ووضع فيه المسلِمون الكتب، منها ما وصل إلينا، ومنهـا ما لم يصل. وقـد يكون الجاحِظُ (+ ٢٥٥ هـ) أولَ من وضع بحثًا فيه، في كتـابٍ أسماه « نَظْم القرآن » ، أشار إليه في كتابِه « الحيوان » ؛ ثم محمد بن يزيد الواسـطي (+ ٣٠٦ هـ) وضع كتـابا في « إعجاز القرآن » ، لم يصلْ إلينـا؛ ثم الرماني (+ ٣٨٤ هـ) في « الإعجاز » ؛ والقاضي أبو بكر الباقلاني (+ ٤٠٣ هـ) في « إعجاز القرآن » ، وعبـد القاهر الجرجاني (+ ٤٧١ هـ) في « دلائل الإعجاز » .

وللمسلمين المعاصرين أيضا أبحاثٌ لا عد لها في هذا العلم، وأخصهم السيد رضـى، والإمام الشيخ محمد عبده، وسيد قُطب في كتابه « التصوير الفني في القرآن » ، والـدكتور مصطفى صادق الرافعي في « إعجاز القرآن » ... وغيرهم. وقد ركَّز هؤلاء، بالإضافةِ إلى ما عني به الأقدمون، على سحرِ أسلوبِ القرآن وجرسِه وإيقاعِه وموسيقاه وفنه التصـويري النبيل. كما ركَّز غيرهم على إعجاز القرآن في العلومِ الحديثة، كالطب والفلكِ، الخ. وسنتوقَّفُ على معجزةِ الإعجاز القرآني في جميع نواحيها القديمةِ والحديثة.

---

(٢) السيوطي، الاتقان، ٢ / ١١٨ ـ ١٢٢، حيث يسرد آراء المحدثين ، أمثال : ابن عطيـة، والمراكشـي، والاصبهاني، والامام الرازي، وابي بكر الباقلاني، والزملكاني، والنظام، وغيرهم ...

أولاً ـ إعجاز لغة القرآن العربية

في معتقد المسلمين أن القرآن نزلَ بلفظِهِ وحرفِهِ ومعناه، أي بلغتِه وأساليبه وعلومِه. ولو كنّا نجد عندهم بعض الخلافِ في ذاك، فهو من قبيل فَذْلَكَةٍ جدلية : فمنهم من يقولُ بـأن ا َ أنزلَ المعنى على جبريل، وجبريل لقّنه محمدا بلغتِهِ وأساليبِهِ الملكِيين؛ ومنهم من يقولُ بأن النبي صاغَ معانيه بلغتِهِ وأساليبِهِ المضريين؛ ومنهم، أخيراً، من يقولُ بأن ا َ صـاغَه بلغتـهِ وأساليبه الربانِيين.

وهذا الخلاف، على قِدمِه، لا يعتَد به، لأن جميع ما في القرآن كلّه من عندِ ا ، « كلٌّ من عند ربنا » [١]، لا اختلافَ فيه[٢]، ولا عِوج[٣]؛ وليس لأحدٍ يستطيع أن يغير فيه حرفًـا واحدا، إذ « لا تبديل لكلماتِ ا » [٤] و « لا مبدل لكلماته » [٥] ... ولئن اسـتمر الخـلافُ والجدلُ في ذاك، فليس هذا الاّ من قبيل زرعِ الشكوكِ لدحضِها.

والحقيقةُ هي، كما جاء في القرآن نفسه، إن ا َ أنزلَه بلسانٍ عربي مبـين[٦]، أنزلَـه على العربِ قرآنًا عربيا لعلّهم يتّقون[٧]، وأنزلَه

---

(١) سورة آل عمران ٣ / ٧، انظر : القصص ٢٨ / ٥٣.
(٢) سورة النساء ٤ / ٨٢.
(٣) سورة طه ٢٠ / ١٠٧، انظر : ٢٠ / ١٠٨، ١٨ / ١.
(٤) سورة يونس ١٠ / ٦٤، انظر : ٢٣ / ٦٢، ٣٥ / ٤٣، ٤٨ / ٢٣ ...
(٥) سورة الانعام ٦ / ١١٥، الكهف ١٨ / ٢٧، انظر : ٦ / ٣٤ ...
(٦) انظر : ١٦ / ١٠٣، ٢٦ / ١٩٥.
(٧) ١٢ / ٢، ٣٩ / ٢٨، ٤٢ / ٧، ٤٣ / ٣، ٢٠ / ١١٣ ...

حِكَما عربيا[٨] ، ولسانًا عربيا[٩] . لقد أنزله ا ُ على محمد بلسانِ قومه، لِينْذِر أمّ القِرى (مكّة) وما حولها[١٠] ، وييسره بلسانهِ ليبشّر به المتّقين[١١] .

بسبب ذلك، أثبتَ الإمام الشافعي وابن جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر البـاقلاني وأبو فارس عدم وقوعِ شيءٍ في القرآن من غير لغةِ العرب. وقد شدد الشافعي النكير علـى القائل بذلك. وقال أبو عبيدة إنّما أنزلَ القرآن بلسانٍ عربي مبين، فمن زعـم أن فيـهِ غيـر العربيةِ فقد أعظَم القول. وقال ابن أوس : لو كان فيه من لغةٍ غير العربِ شيء لتوهم متوهم أن العرب انّما عجزتْ عن الاتيان بمثلهِ، لأنّه أتى بلغاتٍ لا يعرفونها[١٢] .

ولئن وقع في القرآن ألفاظٌ من الفارسيةِ والحبشيةِ والنَبطيةِ وغيرها، فان ذلك، بحسبِ ابن جرير، من « تواردِ اللغاتِ، فتكلّمتْ بها العرب والفرس والحبشة بلفظٍ واحد » [١٣] ؛ وقالَ غيره : « كلُ هذه الألفاظ عربيةٌ صرفَة، ولكن لغةُ العربِ متّسعةٌ جـداً » [١٤] ؛ وقـالَ أبـو المعالي عزيزي بن عبدِ الملك : « انّما وجدتْ هذه الألفاظُ في لغةِ العربِ لأنّها أوسع اللغاتِ وأكثرها ألفاظاً، ويجوز أن يكونوا (العرب) سبقوا إلى هـذه الألفاظ » [١٥] ، وقال آخرون: « بأن الكلماتِ اليسيرةَ غير العربية لا تُخرجه عن كونهِ عربياً » [١٦] .

----

(٨) سورة الرعد ١٣ / ٣٧.
(٩) سورة الأحقاف ٤٦ / ١٢.
(١٠) سورة الانعام ٦ / ٩٢، ابراهيم ١٤ / ٤، انظر : ٤٢ / ٧.
(١١) سورة مريم ١٩ / ٩٧، انظر : الدخان ٤٤ / ٥٨.
(١٢) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ١ / ١٣٥ ـ ١٣٦.
(١٣) نفس المرجع ١ / ١٣٦.
(١٤) نفس المرجع.
(١٥) نفس المرجع.
(١٦) نفس المرجع.

إلاّ أن بعض المسلمين رأى في القرآن مئاتِ الكلماتِ من غيرِ لغةِ العرب. وقد أخرج ابن جرير عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال : « في القرآن من كل لسان » [١٧] ، ومثله سعيد بن جبير، ووهب بن منّبه وغيرهم ... وفي رأيهم أن الحكمةَ من وقوع هذه الألفاظِ فيه، « إنّه حوى علوم الأولين والآخرين، ونبأَ كل شيء. فلا بد أن تقع فيه الإشارةُ إلى أنـواعِ اللغـاتِ والألسن ِليتم إحاطتَه بكل شيء؛ فاختير لـه من كل لغةٍ أعذبها وأخفّها وأكثرهـا اسـتعمالاً للعرب » [١٨] .

وقد صرح ابن النقيب بجوازِ وجودِ ألفاظٍ أعجميةٍ في القرآن، فقال : « من خصائصِ القرآن على سائر كتبٍ ا ِ المنزلةِ التي نزلتْ بلغةِ القومِ الذين ُأنزلتْ عليهم، لم ينـزل فيهـا شيء بلغةِ غيرهم، والقرآن احتوى على جميع لغاتِ العرب، وُأنزل فيه بلغاتِ غيـرهم مـن الرومِ والفرسِ والحبشة شيء كثير » [١٩] ... فالنبي العربي مرسلٌ إلى العربِ وإلى كل أمةٍ، وعقيدتُه يجب أن تُبلغ لجميع الناس، فلا بد أن يكون في كتابِهِ المبعوثِ به من لسان كل أمةٍ، وإن كان أصلُه بلغةِ قومِهِ هو.

******

أما السيوطي فلا مانع عنده من أن تكون بعض الألفاظِ أعجميةً، وقعتْ للعربِ فعربتها بألسنتِها وحولتْها عن ألفاظِ العجمِ إلى ألفاظِها، فصارتْ عربيةً، ثم نزلَ القرآن وقد اختلطـتْ هذه الحروفُ بكلامِ العرب. فمن قالَ إنها عربيةً فهو صادق، ومـن قـالَ عجميـةً فصـادقٌ أيضا[٢٠] . ثم

----
(١٧) السيوطي، الاتقان ١ / ١٣٦.
(١٨) نفس المرجع.
(١٩) نفس المرجع.

يسرد السيوطي حوالي مائة لفظة واردةً في القرآن هي من لغاتٍ متعددة، فارسية، وهندية، وحبشية، وقبطية، ونبطية، وسريانية، وعبرانية، وبربرية، ويونانية، ورومية ...[٢١]

أما ما جاء في القرآن من غير لغة الحجاز المضرية فكثير. وقد جاء في كلامِ أبي بكر الواسطي، في كتابِه « الارشادِ في القراءاتِ العشر » ما يلي : « في القرآن من اللغاتِ خمسون لغة : لغة قريش وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج وأشعر ونمير وقيس عيلان وجرهم واليمن وأزد شنوءة وكندة وتميم وحمير ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضرموت وسدوس والعمالقة وأنمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان وبنو حنيفة وثعلب وطي وعامر بن صعصعة وأوس ومزينة وثقيف وجذام وبلى وعذرة وهوازن والنمر واليمامة » [٢٢] .

وفي السيوطي سيلٌ من الألفاظِ العربيةِ غير الحجازية[٢٣] ، وكذلك عند ابن الجوزى في كتابه « فنون الأفنان في القرآن بلغة همدان » . وقال ابن عبد البر في « التمهيد » : « قول من قال نزلَ بلغةِ قريش معناه عندي الأغلب، لأن غير لغةِ قريش موجودةٌ في جميع القراءات » [٢٤] . وقال الشيخ جمالُ الدين بن مالك : « أنزلَ ا ُ القرآن بلغةِ الحجازيين إلاّ قليلاً » [٢٥] .

وإذا ابتغينا المقارنةَ بين لغةِ قريش وسائر لغاتِ العرب لطالَ بنا الكلام، ولكن، اثباتًا لهذا الموضوع الخطير، لا بد من الإشارة إلى بعض

---

(٢٠) السيوطي، الاتقان، ١ / ١٣٧.
(٢١) انظر السيوطي، الاتقان، ١ / ١٣٧ ـ ١٤١.
(٢٢) السيوطي نقلا عن الواسطي، الاتقان، ١ / ١٣٥.
(٢٣) انظر السيوطي، الاتقان ١ / ١٣٣ ـ ١٣٥ حيث ينقل بعض الألفاظ.
(٢٤) عن السيوطي، الاتقان، ١ / ١٣٥.
(٢٥) نفس المرجع.

الفروقات، إن من جهة الادغام والفك، وإن من جهةِ اعتمادِ النصب في المنقَطِع، (أي النصب في الاستثناء بعد إلاّ)، وإن من جهةِ الفتح والأمالة، وإن من جهة الهمز وعدمـه، أو الثقيـل والتفخيم، أو الاخفاء والاقلاب، أو المد والقصر ... إلى غير ذلك[٢٦] .

******

وبالنتيجة، إن القولَ بأن القرآن نزلَ بلسانٍ عربي مبين، وبلغةٍ عربيةٍ قرشيةٍ صـافيةٍ خالصة، هو قولٌ جزاف، يحوم حوله كثير من الشبهات. ولئن سلّمنا بمـا يقوله الواسطي بأن « كلام قريش سهلٌ لين واضِح، وكلام العرب وحشي غريب » [٢٧] ، فان ذلك يجعلنا نتساءل عن مدى فصاحةِ كلام القرآن وبلاغته اللغوية.

ولكثرةِ وجودِ لغاتٍ عربيةٍ عديدة في القرآن، راح بعـض المسـلمين والمستشـرقين يقومون لغةَ القرآن بلغةِ الشعر الجاهلي؛ وعلى أساس هذا الشعر نستطيع فَهم بعض مـا فـي القرآن من غرائبِ اللغة. « ومن هنا نتساءل، مع الحداد : أَنَزلَ القرآن بلغةِ نَجد أم جمِع بلغةِ نجد ؟ أم قُرئ بلغةِ نجد على خلافِ المتواتر ؟

وإذا نَزلَ بلغةِ قريش فكيفَ نقرأُه بلغةِ نجد، أو بلغةٍ غير قرشية ؟ أَمِن الأمانَةِ كتابـةُ القرآن بلغةٍ لم ينزل بها ؟

---

(٢٦) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، انظر الصفحات التالية : ١ / ٨٣ ـ ٨٩، ١ / ٨٩ / ٩٠، ١ / ٩١ ـ ٩٤، ١ / ٩٤ ـ ٩٦، ١ / ٩٦ ـ ٩٨، ١ / ٩٨ ـ ٩٩، ١ / ١٣٥ ...

(٢٧) السيوطي، نقلا عن « الإرشاد » للواسطي، ١ / ١٣٥.

أم آلف النبي، أو آلف الصحابة من بعدِه بين لغةِ القرآن ولغةِ الشعر الجـاهلي التـي كانتْ لغةَ الأدبِ والكلام الجميل ؟

كلّها أسئلةٌ وشبهاتٌ يحار فيها المؤرخ الأديب. وقد استنتج بعضهم من ذلك شبهةً على صحةِ لغةِ القرآن وعلى صحة اعجازها » [٢٨] .

******

في كل حال، إنّنا، مع المسلمين المؤمنين، أمام معجزةٍ كل حرفٍ من حروفِ القرآن، وكل كلمةٍ منـه، وكل لفظةٍ وتعبير. بل كلُ حرفٍ منقَطعٍ هـو آيةٌ في ذاتِه ومعجزة. ومـــا « فواتِح السور » ، الواردةُ في سبعٍ وعشرين سورة الاّ دليلٌ قاطِع جازم على معجزةِ اللغـةِ القرآنية. وكلُ حرفٍ من هـذه الحروفِ المتقطعة، كالـ « ن » في سورة « القلم » ، والـ ـ « ق » في سورة « ق » ، والـ « حم » في « الأحقـاف » و « الجاثية » و « الـدخان » و « الـزخرف و « الشورى » و « فصلـت » و « غـافر » ، والـ « ص » في سـورة « ص » ، و « يس » في سـورة « يس » ، و « ألـم » في « السـجدة » و « لقمـان » و « الروم » و « العنكبوت » ، و « طسم » في « القصص » ، و « طس » في « النمل »، و « طسم » في « الشعراء » ، و « طه » في « طـه » ، و « كهيعص » في « مريم » ، و « الر » في الحجر وابراهيم والرعد ويوسف وهود ويونس، و « ألمص » في الاعـراف، كلٌ حرفٍ من هذهِ الحروف فيه معجزةٌ، لا يعلَم مراده الاّ ا . فكيفَ بنا بسحر الحروفِ التي تؤدي معنى إلهيا يعجز عن إدراكِه عقلُ كل إنسان!

****

----

(٢٨) الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب، ٢ / ٣٢٣.

ثانياً ـ إعجاز أسلوب القرآن

في إيمان المسلمين إن القرآن معجز في بيانه وبديعه، أي في نظمه وتأليفه ورصـفه، وفصاحته وبلاغته، وصوره وتعابيره، وإيجازه وأطنابه، وتشـابيهه واسـتعاراته، وحقيقتـه ومجازه، وكنايته وتعريضه، وخَبره وانشائه، وشعره ونثـره، ووزنـه وفَواصِـله، وجملِـه ومفرداته، وسِحره وموسيقاه، واختيار حروفه ووجوهه وضمائره، ومقدمه ومؤخّره، وعامـه وخاصه، ومجملِه ومبينه، وقَصصِه وأمثالِه، وأقسامه وأجزائه ...

بهذا الأسلوب المعجز في كل شيء « تحدى القرآن فصـحاء العـرب بمعارضـته، وطاولهم في المعارضة، ولكنّهم انهزموا أمام تحديه، وأعلنوا عجزهم عن تقليده، لأنّه يعلو ولا يعلى، وما هو بقول بشَر » [1] ، و « لا ريب إن العرب المعاصرين للقرآن قد سحِروا، قبـلَ كل شيءٍ، بأسلوبه الذي حاولوا أن يعارضوه فما استطاعوا، حتى إذا فهموه أدركوا جمالَـه، ومس قلوبهم بتأثيره » [2] . وهذا الجانب الفني الخالص كان « كافيا لإثباتِ فكـرةِ الإعجـاز وخلودِ القرآن بأسلوبه الذي يعلو ولا يعلى ... فما اعجاز هذا الكتاب الكريم الاّ سحره. ولقـد فعلَ سِحره هذا فِعلَه في القلوبِ » [3] .

----

(١) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣١٣.
(٢) نفس المرجع، ص ٣٢٠.
(٣) نفس المرجع، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

١ - لقد سحر المسلمون في معرفةِ « الوجوهِ والنظائر » [٤] لما وجـدوا « الكلمـةَ الواحدةَ تنصرفُ إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلامِ البشر » [٥] ، ومـن أمثلةِ ذلك « الهدى » ، فهو يأتي على سبعةَ عشَر وجها[٦] ، « والسوء » ، وهو يأتي علـى أوجهٍ عديدة[٧] والصلاة والرحمة والفتنة والروح والقضاء والذكر والدعاء .. وغير ذلك[٨] .

٢ - وسحِروا بالقرآن « يستعير » ألفاظَه من عالَمِ الإنسان إلى عالَمِ الأشياء، فيجعلُ الصبح يتنفّس في قوله « والصبح إذا تنفّس » [٩] ، ويجعلُ القذفَ والدمغَ للحقِ والباطل فـي قوله : « بل نَقذفُ بالحقِ على الباطِل، فيدمغُه فإذا هو زاهِق » [١٠] ، ويجعلُ لجهنّم شخصيةً آدمية، لها انفعالاتٌ وجدانية، وخَلجاتٌ عاطفية، فهي تَشهقُ شهيقَ البـاكين، وهـي تَغضـب وتثور، وهي ذاتُ نَفْسٍ حادةِ الشعور[١١] في قوله : « إذا أُلقُوا فيها (في جهنم) سمعوا لهـا شهيقًا وهي تَفور، تكاد تَميز من الغيظ » [١٢] .

٣ - وسحِروا بالقرآن ينزع « التشابيه » من أمورٍ مختلفةٍ مجموعـةٍ بعضـها إلـى بعض، فيقول مثلاً : « كمثَل الحمارِ يحملُ أسفارا » [١٣] . وسحر هذا الكلام في القرآن هـو في حرمان الحمار من « الانتفاعِ بأبلغ نافعٍ مع تحمل التعبِ في استصحابِه » [١٤] . ويقـول أيضا : « انّما مثَلُ الحياةِ الدنيا

---

(٤) الوجوه اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان؛ والنظائر هي الألفاظ المتواطئة المترادفة التي معناها واحد في مواضع كثيرة، انظر الاتقان، ١ / ١٤١.

(٥) نفس المرجع.

(٦) نفس المرجع، ١ / ١٤٢.

(٧) نفس المرجع.

(٨) انظر ذلك في نفس المرجع.

كماء أنزلناه من السماء ... لم تغن بالأمس » [١٥]؛ يقول الشيخ صبحي في سحر هذا القول : « إن فيه عشر جمل وقع التركيب من مجموعها، بحيث لـو سقطَ منها شيء اختلّ التشبيه » فـ « تم لهذا المشهد القرآني من الاعجاز بالألفاظِ الجامدةِ ما لا يتم مـن الابـداع بالريشـة والألوان » [١٦].

٤ ـ وسحِروا بالقرآن يستعملُ « المجاز اللغوي » الذي فيه يكون اللفظُ في غير مـا وضِع له، مثل قوله : « يجعلون أصابعهم في آذانِهم من الصـواعقِ حـذَر المـوت » [١٧]؛ ويستعملُ « المجاز العقلي الذي يكون أحد طرفيهِ حقيقياً دون الآخر، مثل قولـهِ : « وأمـه هاوية » [١٨]. واعتبـر المسلمون أنّه « لـو سقَطَ المجـاز من القرآن لسـقطَ منـه شَـطْر الحسن » [١٩].

---

(٩) سورة التكوير ٨١ / ١٨. انظر : الشيخ صبحي، مباحث ... ص ٣٢٤.
(١٠) سورة الأنبياء ٢١ / ١٨. نفس المرجع.
(١١) الشيخ صبحي الصالح، مباحث ... ، ص ٣٢٥.
(١٢) سورة الملك ٦٧ / ٧ ـ ٨.
(١٣) سورة الجمعة ٦٢ / ٥.
(١٤) الشيخ صبحي الصالح، مباحث ... ، ص ٣٢٢، نقلا عن السيوطي، الاتقان ٢ / ٤٢ ـ ٤٣. ومن هذا القبيل الآيات : « فاصدع بما تؤمر » (الحج ٩٤)، « فوجد فيها جـداراً يريـد أن يـنقض فأقامـه » (الكهف ٧٧)، و « اعتصموا بحبل ا جميعاً ولا تفرقوا » (٣ / ١٠٣). « وتركنا بعضهم يؤمئذ يموج في بعض » (الكهف ١٠٠) ... الخ.
(١٥) سورة يونس ١٠ / ٢٤.
(١٦) مباحث في علوم القرآن، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥، نقلاً عن السيوطي فـي الاتقـان ٢ / ٤٢ ـ ٤٣. وهـو يستفيض في إظهار سحر هذه الآية وإعجازها البياني إلى درجة أنّه اعتبر السيوطي وبلغـاء المسـلمين مقصرين فيما يبينوه في القرآن وفصاحته.
(١٧) سورة البقرة ٢ / ١٩.
(١٨) سورة القارعة ١٠١ / ٩ : اسم الام « الهاوية » مجاز، أي كما أن الأم كافلة لولدها وملجأ له، كـذلك النار للكافرين كافلة ومأوى ومرجع.
(١٩) انظر السيوطي، الاتقان ٢ / ٣٦ ـ ٤٦ ...

ةً ـ وسحِروا بالقرآن يستعملُ « الكنايةَ لأجل الرمز والإيماء، قصد تحاشي كلامٍ لا يجملُ فيه التصريح. فإذا أراد، مثلاً، التعبير عن التناسل والمعاشـرةِ الزوجيـة ومضـاجعةِ الأزواج، استعملَ لفظة « الحرث » في قـوله « نساؤكـم حرثٌ لكم، فأتـوا حـرثَكم أَنـى شِئتم » [٢٠] . ومن هذا القبيل قـال أيضا : « هن لِباس لكم وأنتم لِباس لهن » [٢١] . ويبدو أن « الكناية » ، في نظر المسلمين، هي « من أبلغ الأساليب » [٢٢] ...

ولكن، إذا كان ا ُ يستَعِفُ في ذكرِ النساءِ والنِكاحِ والمضاجعةِ في هذه الآيات، فلماذا هو يستعمل، في أمكنةٍ أخرى كثيرةٌ، لفظةَ « النِكاح » ، مثلا، وهي تعني، عنـد العـرب، لا التزويج وحسب، بل « الوطء » غالبا. وبهذا المعنى فسر الأزهري آيةَ « الزاني لا ينكح الاّ زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك » [٢٣] ، وقال : « أصلُ النكـاح فـي كلامِ العرب الوطء، وقيل للتزوجِ نكاح لأنه سبب الوطء المباح » [٢٤] ، وهو أيضـا تفسـير الجوهري، وسبيعة، وغيرهم[٢٥] ..

ولماذا لم يتورع ا ُ من ذكر « حب الشهوات من النساء » [٢٦] ، واعتزال النساء في المحيض[٢٧] ، ومراودةِ النساء للفتيان[٢٨] ، ومس النساء[٢٩] ، ونكاح ما طاب للرجال منهن[٣٠] ، وملامستهن قبل الصلاة

----

(٢٠) سورة البقرة ٢ / ٢٢٣.
(٢١) ٢ / ١٨٧، انظر : ٧ / ١٨٩، ٢٣ / ٥، ٣٣ / ٣٥، ٦٦ / ١٢ ...
(٢٢) الشيخ صبحي، مباحث ... ص ٣٣٠.
(٢٣) سورة النور ٢٤ / ٣.
(٢٤) لسان العرب، ٢ / ٦٥٢ مادة : « نكح » .
(٢٥) انظر لسان العرب، ٢ / ٦٢٥ ـ ٦٢٦. ترد لفظة نكاح ٢٥ مرة.
(٢٦) سورة آل عمران ٣ / ١٤.
(٢٧) سورة البقرة ٢ / ٢٢٢.

خشية النجاسة، وإن لم يكن ماء للتطهير فلا بد منه ولـو بـالتراب[٣١] ، وذكـر « عـورات النساء » وإظهارها للطفل[٣٢] ، وذكر الذين يأتون الرجال شهوة من دون النسـاء[٣٣] ، ووطء النساء[٣٤] ،والرفث إليهن[٣٥] ، والدخول بهن[٣٦] ، الخ ... فهل هذه التعابير هي من العفّة فـي شيء حتى لم يستعمل ا ُ بعض « الكناية » ؟

٦ ـ وسحِر المسلمون بما في أسلوبِ القرآن من « الإيجاز » ، وهو جمع المعـاني الكثيرة بالألفاظِ القليلة. وقد شدد الجاحظُ على هذه المعجزة القرآنية، ويستشهد، لأجل حجتـهِ، بوصفِ خمرةِ أهل الجنّة : « لا يصدعون عنها ولا ينزفُـون » [٣٧] ، ويقـول : « هاتـان الكلمتان جمعتا جميع عيوبِ خمر أهل الدنيا » ، ويدلّ على الإيجاز في قول القرآن عن فاكهة الجنّة « لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ » [٣٨] ، ويقـول : « جمع بهاتيـن الكلمتـين جميـع تلـك المعاني » [٣٩] .

٧ ـ وسحِر الجرجـاني ببعض الصور الجمـاليةِ الفنيةِ في القرآن، ويستشهد بقوله: « اشتعلَ الرأس شَيبا » [٤٠] ، ويرى في هذا الكلام كلَ أنواعِ الاستعارةِ والشمول والاسـناد، ومن هذا القبيل قوله : « فَجرنَا الأرض عيونا » [٤١] .

---

(٢٨) سورة يوسف ١٢ / ٣٠.
(٢٩) سورة البقرة ٢ / ٢٣٦.
(٣٠) سورة النساء ٤ / ٣.
(٣١) سورة النساء ٤ / ٤٣.
(٣٢) سورة النور ٢٤ / ٣١.
(٣٣) سورة الأعراف ٧ / ٨١.
(٣٤) سورة الفتح ٤٨ / ٢٥.
(٣٥) سورة البقرة ٢ / ١٨٧.
(٣٦) سورة النساء ٤ / ٢٣.
(٣٧) سورة الواقعة ٥٦ / ١٩.
(٣٨) سورة الواقعة ٥٦ / ٣٣.
(٣٩) عن الرافعي، في تاريخ آداب العرب ٢ / ١٥٢ حاشية.
(٤٠) سورة مريم ١٩ / ٤.
(٤١) سورة القمر ٥٤ / ١٢، انظر : مباحـث فـي علوم القرآن، ٣١٥.

٨ ـ وسحر الرافعي بموسيقى القرآن في ترتيب حروفه « باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبةً طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشّي والتكرير » [٤٢] . ويعطينا من القرآن هذا المثل : « ولقد أنذَرهم بطْشَتَنا فتَماروا بالنُذُر » [٤٣] ، ويدعونا إلى التأمل، ويقول : « تأمل هذا التركيب، وأنعِم ثم أنعِم على تأمله، وتذوقْ مواقِع الحروفِ، وأجر حركاتِها في حس السمع، وتأملْ مواضِع القَلْقَلَةِ في دال « لقَد » ، وفي الطاء من « بطشَتَنا » ، وهذه الفَتْحاتِ المتوالية فيما وراءِ الطاء إلى واو « تماروا » مع الفصل بالمد كأنها تثقيلٌ لخفةِ التتابع في الفَتحات إذا هي جرتْ على اللسان، ليكون ثقلُ الضمةِ عليه مستخفاً بعد، ولتكون هذه الضمةُ قد أصابتْ موضعها، كما تكون الاحماض في الأطعمة » [٤٤] .

هذه الموسيقى في ألفاظ القرآن وحروفِه « لم تُعرفْ قط في كلامٍ عربي غير القرآن، وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقُه الناس » [٤٥] . « هذا النظم الذي يشبه السحر، والذي ألّفَ العرب على تعاديهم، وكون منهم أمةً واحدة، تطرب لِلَحنٍ واحد، تجتمع عليه قلوبها في الأرض، بينما ترتفع به أرواحها في السماء » [٤٦] .

٩ ـ أما سيد قطب فسحر بالتصوير الفنّي الذي « هو الأداةُ المفضلة في أسلوبِ القرآن » . هذا التصوير « يعبر بالصورةِ المحسة

---

(٤٢) الدكتور مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ٢ / ٢٢٥.
(٤٣) سورة القمر ٥٤ / ٣٦.
(٤٤) الرافعي، نفس المرجع، ٢ / ٢٣٩.
(٤٥) نفس المرجع، ٢ / ٢٦٠.
(٤٦) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣١٩.

المتخيلة عن المعنى الذهني والحالةِ النفسية، وعن الحادثِ المحسوس والمشهدِ المنظور، وعن النموذَجِ الإنساني والطبيعةِ البشرية. ثم يرتقي بالصـورةِ التـي يرسـمها فيمنحهـا الحيـاةَ الشاخِصة، أو الحركةَ المتجددة. فإذا المعنى الذهني هيئةٌ أو حركةٌ، وإذا الحالةُ النفسيةُ لوحـةٌ أو مشهد، وإذا النمـوذَج الإنساني شاخِص حي، وإذا الطبـيعةُ مجسمةٌ مرئيةٌ » إلى درجـة « ينسى المستمِع أن هذا كلام يتلى، ومثَلٌ يضرب ... وحادِثٌ يقع ... إنّها الحياةُ هنا، وليستْ حكايةَ الحياة ... » بهذا ندرك « موضِع الإعجاز في تعبير القرآن » [٤٧] .

١٠ً ـ ويتوقّف الشيخُ صبحي الصالح، للدلالة على معجزة إعجاز القرآن، على مـا تعلّم في مقالةِ « الفن والجمال » ، فيرى « هذه الموسيقى الداخليةَ لتنبعثُ في القرآن، حتـى من اللفظة المفردة في كل آية من آياته، فتكاد تستقل ـ بجرسها ونَغَمها ـ بتصـوير لوحـةٍ كاملةِ اللون زاهياً أو شاحباً، وفيها الظل شفيفاً أو كثيفاً » [٤٨] .

ويستدلُ الشيخ، من جملةِ آياتٍ، على جمال الحروفِ القرآنية في مواقِعهـا، فيستهويه « همس السين المكررةِ » في قول القرآن : « فلا أُقْسِم بالخُنس، الجواري الكُنس، والليـل إذ عسعس، والصبح إلى تَنَفس » [٤٩] ، وتقع في نفسهِ الرهبةُ وهو يسمع « صوتَ الدال المنذِرةِ المتوعِدةِ، مسبوقة بالياءِ المشبعةِ في لفظةِ « تَحِيد » في قوله: « وجاءتْ سكرةُ الموتِ بالحقّ: ذلك ما كنت منه تَحِيد » [٥٠] ، ويضرب بالذعر لدى سماعه كلمةَ « زحزح »

---

(٤٧) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ٣٣ ...
(٤٨) مباحث في علوم القرآن، ص ٣٣٤.
(٤٩) سورة التكوير ٨١ / ١٥ ـ ١٨.
(٥٠) سورة ق ٥٠ / ١٩.

تُصور مشهد الابعادِ والتنحية بكل ما يقع في هذا المشهدِ من أصوات « في قولـه : « فمـن زحزح عن النار وأُدخِلَ الجنّةَ فقد فاز » (٥١) ، ويستولي عليه القلقُ وهو يقرأُ هاء السكْتِ في سورةِ الحاقةِ « ماأغنى عنِي مالِيه، هلَك عنِي سلطانِيه » (٥٢) ، ويأخذُه من الغيظِ مثل ما يأخذُ جهنم حين يتسمع لفظَ « تَميز من الغَيظِ » (٥٣) ، وتنقبض شفتاه استِقباحا واسـتهجانًا عنـدما يسمع القرآن يقولُ « ويسقَى (الكافر) من ماءٍ صديدٍ يتَجرعه » (٥٤) ، ويكاد يكب على وجههِ ومِنخاره لسماعِه « فكَبكبوا فيها هم والغاوون » (٥٥) ... إلى ما هنالك من ألفـاظٍ وحـروف وكلمات تعبر عن لوحة كاملة(٥٦) .

وإذا كان هذا شأن الحروف فكيفَ بك بالآياتِ والسور الكاملةِ التـي، إذا مـا قرأهـا المؤمن، « يوقظ نَسقُها الرائع قلبه، ويهز ايقاعها العجيب مشاعِره » (٥٧) . ولئن كان الجـن سحِروا بما سمعوا من القرآن، فكيفَ بالعرب! الواقع، بنظر الشيخ صبحي، « أن القرآن نسيج واحِد في بلاغتِه وسحر بيانه، إلاّ أنّه متنوع تنوع موسيقى الوجودِ في أنغامِه والحانه » (٥٨) . و « إن هو إلاّ أسلوب يؤدي غرضه كاملاً غير منقوص، يلين أو يشـتد، ويهـدأَ أو يهـيج! ينساب انسياباً كالمـاء إذ يسقي الغراس، أو يعصفُ عصفاً كأنّه صرصـر عـاتية تبهـر الأنفاس » (٥٩) .

---

(٥١) سورة آل عمران ٣ / ١٨٥.
(٥٢) سورة الحاقة ٦٩ / ٢٩.
(٥٣) سورة الملك ٦٧ / ٨.
(٥٤) سورة ابراهيم ١٤ / ١٧.
(٥٥) سورة الشعراء ٢٦ / ٩٤.
(٥٦) الشيخ صبحي، مباحث ...، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦.
(٥٧) نفس المرجع، ص ٣٣٦.
(٥٨) نفس المرجع، ص ٣٣٤.
(٥٩) نفس المرجع، ص ٣٤٠.

ثالثاً ـ الحكم للّغة أم للقرآن ؟

إذا كان الأمر كما يقولُ الشيخ صبحي الصالح « انّنا نجعلُ القرآن حكما على قواعـدِ اللغة والنَحو، ولا نجعلُ القواعِد حكما على القرآن » [١] ، فانّنا نعجز، ونحـن بهـذا العجـز راضون، عن ابداءِ أي رأيٍ في موضوعِ اعجازِ القرآن. وإذا كانتِ الأمـةُ العربيـةُ بعيـدةً بعضها عن بعض، لأسبابٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ وعنصريةٍ وحضـاريةٍ، فإنّهـا، كمـا يقـولُ الابياري، « قريبةٌ بهذا الكتابِ وحده إلى لُغَتِها » [٢] ، ونحن لا نبغي لهذه الأمة غير هذا.

ولكن رضانا بهذا العجز لا يجعلّنا نرضى كثيرا بمعجزةِ إعجاز القرآن. ولقـد ميـز الأقدمون فيه بين « الفصيح والأفصح » ، وتساءل الشيخُ عز الدين بن عبد السلام : « لِم لَم يأتِ القرآن جميعه بالأفصح ؟ » [٣] ، وأجابه الصدر موهوب الجزرى : « إنّه لو جاء القرآن على ذلك لكان على غيرِ النمطِ المعتادِ في كلامِ العرب » [٤] . وفي رأيه أن القـرآن تحـدى العرب، لا في أفصحِه وحسب، بل في فَصيحه أيضاً ... ولكن هل هو جواب مقِنع، في الوقتِ الذي نرى فيه القرآن يعرج بين المعنى والمبنى ؟!

---

(١) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٥٨.
(٢) ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٤٥.
(٣) السيوطي، الاتقان، ٢ / ١٢٣.
(٤) نفس المرجع.

وإذا كنّا لا نستطيع الحكْم على القرآن من قواعدِ اللغة، أفلا نستطيع الحكم على القرآن بالقرآن نفسه ؟! الواقع إن القرآن لا يستوي كله في درجةٍ واحدةٍ من الفصاحةِ والبلاغةِ. فنحن نجد فيه تراكيب غير صحيحة، فبعضه يضحي بالمعنى مراعاةً للفاصلة(٥) ، وبعضه يتقدم على بعض، وبعضه يختلف في مرجع الضمائر إلى ما تضمر عنه، وبعضه يقيد بالتخصيص ما قد جرى تعميمه ... وعلى كل ذلك أدلّة :

أ - ففي ما تقدم وتأخر في القرآن من كلماتٍ وآيات، نسأل :أي إعجاز نجده في مثل قوله: « أنزلَ على عبدِه الكتاب ، ولم يجعلُ له عِوجا قيماً » (٦) ؟ والتركيب الصحيح: « أنزلَ على عبدِه الكتاب قيماً، ولم يجعلْ له عِوجا » .

وأي إعجاز في قوله : « فقالوا : أَرِنَا ا َ جهرةً » (٧) ، والصحيح، كما قال ابن عباس وابن جرير : « قالوا جهرةً : أرِنَا ا » ، أي : « إن سؤالَهم كان جهرة » .

ومن ذلك قوله : « أفرأيتَ من اتّخذَ إلهه هواه » (٨) ، والمعنى : « من اتّخـذَ هـواه إلهه » ، لأن من اتّخذ إلهه هواه فهو غير مذموم.

وقوله : « فضحكتْ فبشّرناها » (٩) ، والصحيح : « فبشّرنَاها فضحكتْ » .

-----

(٥) الفاصلة في القرآن هي قافية الآيات المسجعة، وهي توازي قافية الشعر. ولكن المسلمين ابتغوا لها هـذه التسمية إبعاداً عن الشعر.
(٦) سورة الكهف ١٨ / ١.
(٧) سورة النساء ٤ / ١٥٣.
(٨) سورة الفرقان ٢٥ / ٤٣.
(٩) سورة هود ١١ / ٧١.

ومنه قوله : « ولـولا كلمةٌ من ربك لكان لزامـًا وأَجلٌ مسمى » [١٠] ، والصـحيح: « ولولا كلمةَ وأَجلٌ مسمى لكان لزاماً ... » .

ومنه: « يسألونك كأنّك حفي عنها » [١١] ، والصحيح: « يسألونك عنها كأنّك حفي ».

ومنه قوله : « فلا تعجبك أموالُهم ولا أولادهم إنما يريد ا ُ ليعذبهم بها فـي الحيـاةِ الدنيا » [١٢] ، والصحيح : « لا تعجبك أموالُهم ولا أولادهم في الحياةِ الدنيا، إنمـا يريـد ا ليعذّبهم بها في الآخرة » .

ومنه قلب المنقول في « طور سينين » ، والأصلُ : سيناء، وفـي « ال ياسـين » ، والأصل : الياس[١٣] .

إلى ما هنالك من أمثلة عديدة في القرآن، على هذا النمط، وقد رأى لها المسلمون ألفَ تفسير وتفسير، اثباتًا لمعجزة الاعجاز في الكتاب العزيز[١٤] .

٣ ـ وفي القرآن أيضا شبهةٌ في مرجع الضمائر إلى أصحابها، ويحتار القارئ فـي المعنى المقصود في قوله : « إليه يصعد الكلِم الطيّـب، والعمـلُ الصـالح يرفَعـه » [١٥] . فالضمير في « يرفعه » إما يعود إلى ما عـاد إليه ضمير « إليه » وهو ا ، وإما يعود إلى « العمل » . والمعنى في كلتا

----

(١٠) سورة طه ٢٠ / ١٢٩.
(١١) سورة الاعراف ٧ / ١٨٧.
(١٢) سورة التوبة ٩ / ٥٥.
(١٣) سورة التين ٩٥ / ٢، الصافات ٣٧ / ١٣٠.
(١٤) انظر السيوطي، الاتقان ٢ / ١٣ ـ ١٦.
(١٥) سورة فاطر ٣٥ / ١٠.

الحالتين : إن العملَ الصالح هو الذي يرفعه الكَلِم الطيب؛ أو أن الكَلِم الطيب، وهو التوحيـد، يرفع العملَ الصالح، لأنه لا يصح العمل إلاّ مع الإيمان[١٦] .

وفي قـوله أيضا : « أن أقذفيهِ في التابوتِ، فاقذفيه في اليم » [١٧] . إن الضمير فـي « اقذفيه » الثانية يرجِع إلى التابوت، وفي الأولى يرجع إلـى موسـى. وفـي ذلـك يقـول الزمخشري : « رجوع بعضِها (الضمائر) إليه (إلى موسى) وبعضِها إلى التـابوت فيـه هجنة » [١٨] .

وفي قوله : « ولا تستفتِ فيهم منهم أحدا » [١٩] ، إن ضمير « فـيهم » لأصـحابِ الكهف، وضمير « منهم » لليهود.

فهل هذا الخلط من الإعجاز في شيء ؟ وهل هو جائز في اللغة والمنطق ؟ لئن كـان الله أنزلَ القرآن بلغةٍ عربيةٍ خالصة، أفيجوز لنفسِه ما لا يجوز في قوانين الكون ونظمه، وهو واضعها!

٣ ـ وفي القرآن تبيين لما جاء في مكانٍ آخر، أي إن فيه كلاماً يبينه كلام آخر فـي زمنٍ آخر وآياتٍ أخرى لاحقة. مثل قوله : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها نـاظرة » [٢٠] ، وهو دالّ على جواز الرؤية. ثم قال : « لا تدركه الأبصار » [٢١] . وغير ذلك كثير[٢٢] .

----

(١٦) انظر السيوطي، الاتقان ٢ / ١٩.
(١٧) سورة طه ٢٠ / ٣٩.
(١٨) انظر السيوطي، الاتقان ١ / ١٧٨ ...
(١٩) سورة الكهف ١٨ / ٢٢.
(٢٠) سورة القيامة ٧٥ / ٢٢.
(٢١) سورة الانعام ٦ / ١٠٣.
(٢٢) انظر السيوطي، الاتقان ٢ / ١٨ ـ ٢٠.

٤ ـ وفي قراءة القرآن تستوقفنا غراباتٌ كثيرةٌ، منها : لماذا جاءت لفظةُ أحد « فـي صيغةِ النكرة، « والصمد » في صيغة التعريف، في قوله : « هو ا أحد، ا الصمد » [٢٣] ؟

ولماذا جاءت لفظةُ « خالِصة » مؤنّثة، و « محرم » مذكّرة، في قوله : « مـا فـي بطون هذه الأنعام خالِصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا » [٢٤]، ورأى لها المفسرون حجـة، وهي أن « محرم » ترجع إلى « ما » ، و « خالصة » ترجع إلى « الانعام » . فهـل هـذا معقول ؟

ولمـاذا أجـاز القرآن التأنيثَ في مكانٍ، ولم يجزه في مكان آخـر، في مثل قـوله: « اعجاز نَخْلٍ خَاوية » [٢٥] و « اعجاز نخل منْقَعِر »[٢٦]، وفي « ان البقَر تشَابه علينا »[٢٧] وحجة التذكير عند المفسرين مقصود « جنسه تشابه علينا » [٢٨]، وفي قـوله « السـماء منفطِر » [٢٩] وفي مكان « إذا انفطرتِ السمـاء » [٣٠]، وفـي قـوله « جاءتهـا ريـح عاصف » [٣١]، وفي مكانٍ « ولسليمان الريح عاصفة » [٣٢]. إلى غير ذلك.

٥ ـ ثم أيهما أصح في الاعجاز ؟ قوله: « ادخلوا الباب سجدا وقولوا : حِطةً » [٣٣]، أم قوله : « قولوا حطّة، وادخلوا الباب سجدا » [٣٤] ؟

---

(٢٣) سورة الاخلاص ١١٢ / ٢.
(٢٤) سورة الانعام ٦ / ١٣٩.
(٢٥) سورة الحاقة ٦٩ / ٧.
(٢٦) سورة القمر ٥٤ / ٢٠.
(٢٧) سورة البقرة ٢ / ٧٠.
(٢٨) تفسير الجلالين على ٢ / ٧٠.
(٢٩) سورة المزمل ٧٣ / ١٨.
(٣٠) سورة الانفطار ٨٢ / ١.
(٣١) سورة يونس ١٠ / ٢٢ .
(٣٢) سورة الأنبياء ٢١ / ٨١.
(٣٣) سورة البقرة ٢ / ٥٨.
(٣٤) سورة الأعراف ٧ / ١٦١.

وقوله: « ما أُهِل بِهِ لغير ا » [٣٥] ؟ أم قوله: « ما أُهِل لغير ا ِ به » [٣٦] ؟ وقوله: « يكون الدين » [٣٧] ؟ أم قوله : « يكون الدين كلّه » [٣٨] ؟ وقوله : « ولن تمسنا النار إلاّ أياما معدودة » [٣٩] ؟ أم قوله : « أياما معدودات » [٤٠] ؟ وقوله : « إن هدى ا هو هدى » [٤١] ؟ أم قوله : « إن الهدى هدى ا » [٤٢] ؟ وقوله : « قولوا : آمنا با وما أنزلَ إلينا » [٤٣] ؟ أم قوله : « ... وما أنزل علينا » [٤٤] ؟ وقوله: « ولا تقتلوا أولادكم من املاق » [٤٥] ؟ أم قوله: « خشيةَ املاق » [٤٦] ؟

ولئن كان هذا التفاوت جائزاً في القرآن، فأيهما في اللغة أفصح من الآخر ؟ ولئن كان في القرآن أفصح من الآخر ؟ ولئن كان في القرآن أفصح وفصيح، فـ « لِم لَم يأتِ القـرآن جميعه بالأفصح ؟ » [٤٧] .

٦ ـ وإذا أردنا العودةَ إلى نظريةِ « المحكم والمتشابِه » في القرآن، فلا بد لنـا مـن التساؤل : ما هي الحكمةُ في وجود المتشابِه ؟ « فإن كان مما يمكِن علمه، فله فوائـد، منهـا الحثّ للعلماء على النظر؛ وإن كان مما لا يمكِن علمه، فله فوائد ، منها ابتلاء العباد بالوقوف عنده » [٤٨] .

ولكن كيف ينسجم « ابتلاء العباد » مع عقيدة الاعجاز ؟ وإذا كان المتشابه ـ ومعظم القرآن عليه ـ للخاصة دون العامة، فكيف يخاطب

---

(٣٥) سورة البقرة ٢ / ١٧٣.
(٣٦) ٥ / ٣، ٦ / ١٤٥، ١٦ / ١١٥.
(٣٧) سورة البقرة ٢ / ١٩٣.
(٣٨) سورة الانفال ٨ / ٣٩.
(٣٩) سورة البقرة ٢ / ٨٠.
(٤٠) ٣ / ٢٤، ٢ / ١٨٤، ٢٠٣.
(٤١) سورة البقرة ٢ / ١٢٠.
(٤٢) سورة آل عمران ٣ / ٧٣.
(٤٣) سورة البقرة ٢ / ١٣٦.
(٤٤) سورة آل عمران ٣ / ٨٤.
(٤٥) سورة الانعام ٦ / ١٥١.
(٤٦) سورة الاسراء ١٧ / ٣١.
(٤٧) السيوطي، ٢ / ١٢٣.
(٤٨) السيوطي، ٢ / ١٢.

ا العامة ؟ وكيف تعمل العامة لتستفيد من كلام ا العزيز ؟ إنّها شبهة أخرى تطعن بأهداف الوحي والنبوة. وقد لا يكون القرآن كذلك، بل كذلك أراده المسلمون.

٧ ـ وإذا أردنا العودةَ إلى « الناسخ والمنسوخ » في القرآن، فلا بد لنا من القول بأن القرآن انفرد، دون سائر الكتب المنزلة، بهذه النظرية الخطيرة. ولم يكن النسـخ ـ بحسـب معناه ـ ابدالَ آية بآية فحسب، بل هناك نَسخٌ بطريقةِ النسيان بدون ابدال. ولهذا كان النبـي يصلّي : « اللهم ارحمني بالقرآن، اللهم ذكّرني منه ما نسيت، وعلّمني ما جهلت » (٤٩) .

وأخرج الطبراني عن ابن عمر أن النبي اقرأ رجلين سورة، فكانا يقرآن بهـا، فقامـا ذاتَ ليلة يصلّيان، فلم يقدرا منها على حرفٍ، فأصبحا غادِيين على رسول ا ، فذكرا له ذلك، فقال: « انّهما مِما نُسِخَ ـ أي رفِع ـ فَألْهوا عنها » . وكذلك روى عن أبي موسى الأشعري: « نزلتْ سورةٌ نحو براءة، ثم رفِعتْ » . وروى البخاري عن أنس أنّه أنزل في قصة أصحاب بئر معونة قرآن قرأناه، ثم رفِع » (٥٠) .

ويسجلُ هذا النسخ في القرآن أقوالٌ كثيرةٌ من المحدثين، نذكر بعضـها : روى عـن عمر قوله : « لا يقولن أحدكـم أخذتُ القرآن كله. وما يدريه ما كلّه! فقد ذَهب منـه قـرآن كثير » (٥١) ، وعن عبد الرحمن بن عوف قال عن آية في الجهاد : « أسقِطَتْ في ما أُسـقِطَ من القرآن » (٥٢) ؛ وعن

----

(٤٩) عن دروزة، القرآن، ص ٧١.
(٥٠) الاتقان، ٢ / ٢٥.
(٥١) السيوطي، الاتقان ٢ / ٢٥.
(٥٢) نفس المرجع.

عائشة قالت عن آية « إنّها كانت قبل أن يغير عثمان المصاحف » [٥٣] .

ونحن نسأل : هل من الاعجاز في شيء أن يذهب « كثير من القرآن » ؟ وأن يرفع منه الكثير ؟ وأن ينْسخَ أو ينْسى منه الكثير ؟ هل يصح النسخُ في كتابٍ ا المنزل ؟ وهـل يبقى القرآن، مع هذا النسخ، معجزةً في اعجازه ؟ أين هو الاعجاز في كل ذلك ؟ وأي اعجاز هو أن نجد الناسخَ، في بعض السور، يتقدم على المنسوخ ؟ كما هو الحالُ في آيةِ البقـرة ٢/ ٢٣٤ التي تَنسخُ ما بعدها ٢/ ٢٤٠، وآية الأحزاب ٣٣/ ٥٠ التي تنسخُ ما بعدها ٣٣/ ٥٣ ؟

٨ً ـ ومن غريبِ القرآن في اعجازه أن تَرى المعاني تختِلطُ علينا لأجل « مراعـاةِ الفاصلة » ، أي القافية، وأن ترى اللغةَ تُحرفُ مخالِفةً للأصول لأجـلِ « مراعـاة الـروي والإيقاع » . والأمثالُ على ذلك عديدة :

لماذا يقدم القرآن ما هو متأخر في الزمان، نحو « فللهِ الآخِرةِ والأولى » [٥٤] ؟ ولولا مراعاة الفاصلة لقدم « الأُولى » كقوله في مكانٍ آخر: « له الحمد في الأولى والآخرة » [٥٥]؛ ونحو تقديمِ هارون على موسى في قوله : « برب هارون وموسـى » [٥٦] ؛ ونحـو تقـديم الضمير على ما يفسره في قوله : « فأوجس في نفسِه خِيفَة موسى » [٥٧] ، والأصـلُ تقـديم الفاعل موسى؛ ونحو حذف ياءِ الفعل غير المجزوم في قوله : « والليـل إذا يسـر » [٥٨] ؛ ونحو حذف ياءِ الإضافة في قوله : « فكيفَ كان عذابي ونُذر ... (٥٤/ ١٦) فكيـف كـان عقاب » (٤٠/ ٥)[٥٩] ؛ ونحو صرفِ الممنوعِ من الصرفِ في قولهِ : « قَواريرا

---

(٥٣) الاتقان، ٢ / ٢٥.
(٥٤) سورة النجم ٥٣ / ٢٥.
(٥٥) سورة القصص ٢٨ / ٧٠.
(٥٦) سورة طه ٢٠ / ٧٠.
(٥٧) سورة طه ٢٠ / ٦٧.
(٥٨) سورة الفجر ٨٩ / ٤.
(٥٩) سورة غافر ٤٠ / ٥.

قواريرا » [٦٠] .

ولماذا يستغني القرآن بالمفردِ عن الجمع في قولهِ : « واجعلنا للمتّقين إمامـا » [٦١] ؟ والأصل « أئمة » ، كما في قوله : « وجعلناهم أئمةً يهدون » [٦٢] ؛ وفي قوله : « إن المتّقين في جنّاتٍ ونَهرٍ » [٦٣] ، والأصل « وأنهار » ، وقد جعلها مفردة مراعاة للفاصلة.

ولماذا يستغني بالمثنّى عن المفرد في مثل قوله: « ولمن خافَ مقام ربه جنّتان » [٦٤]، والأصل، كما قال الفراء، « جنّة » . ولماذا أيضا يستغني بالمثنى عن الجمع في قوله: « ومن دونهما جنّتان »[٦٥]، والأصل جنّات؟ الظاهر أن القرآن استعمل المثنّى مكان المفرد « مراعاة للفاصلة » ، ومكان الجمع « مراعاة للفظ » .

ثم أيضا لماذا الاستغناء بالجمع عن المفرد في قوله : « لا بيع فيهِ ولا خلال » [٦٦] ، والأصل : خلّة، كما في قوله في مكان آخر : « لا بيع فيه ولا خلّة » [٦٧] ؟

ومن غرائبِ القرآن أيضـًا : وقوع مفعولٍ موقع فـاعلٍ في قـ ـوله : « حجابـ ـًا مستوراً » [٦٨] ، والأصل : ساتِرا؛ وفي قوله : « وكان وعده مأْتِيا » [٦٩] ، والأصل : آتيـا. ووقوع فاعلٍ موقع مفعولٍ في قوله : « عِيشةً راضية » [٧٠] ، والأصل: مرضِية؛ وفي قوله: « ماء دافق » [٧١] ، والأصل : « مدفوق » !

---

(٦٠) سورة الإنسان ٧٦ / ١٥.
(٦١) سورة الفرقان ٢٥ / ٧٤.
(٦٢) سورة الأنبياء ٢١ / ٧٣.
(٦٣) سورة القمر ٥٤ / ٥٤.
(٦٤) سورة الرحمن ٥٥ / ٤٦.
(٦٥) سورة الرحمن ٥٥ / ٦٢.
(٦٦) سورة ابراهيم ١٤ / ٣١.
(٦٧) سورة البقرة ٢ / ٢٥٤.
(٦٨) سورة الاسراء ١٧ / ٤٥.
(٦٩) سورة مريم ١٩ / ٦١.
(٧٠) سورة الحاقة ٦٩ / ٢١.
(٧١) سورة الطارق ٨٦ / ٦.

ومن غرائبه أيضاً : ايقاع حرفٍ مكان غيره في قوله : « بأن ربك أوحى لها » [٧٢] بدل « إليها » ؛ وحذف الفاعل ونائِبه في قوله : « وما لأحدٍ عنده من نعمـة تُجـزى » [٧٣] والأصل: « يجزى عليها » ؛ واستعمالُ صيغة المستقبل بدل صيغة الماضي في قوله: « فريقًا كذبتُم وفريقًا تَقتلون »[٧٤] والأصل: « قَتلتم » ؛ وتغيير بنيةِ الكلمة في قوله: « طور سينين » و « ال ياسين » ، بدل طور سيناء، والياس، كما مر معنا.

****

كل هذه الغرائب البيانية في القرآن كانت من أجل مراعاة الفواصل، واحتراماً للروي والإيقاع، وتقديراً لرهافة حس السامعين الفصحاء، وتحدياً للشعراء والكهان، وتخطّياً لأصول المنطق وصحة المعاني ... أهذه من عجائب القرآن، كما يقولون : « إن القـرآن العظـيم لا تنقضي عجائبه » [٧٥] ؟ أم هي تعجيز لعقولنا التي ابتليت بالقرآن، كما يقولون : انّها « ابتلاء للعباد » [٧٦] ؟

ولئن سلّمنا، مع الدكتور الشيخ صبحي الصالح، بأن القرآن هو الحكَـم علـى اللغـة وقواعدها لا العكس، فهل نسلّم أيضا بنظرية الفصيح والأفصح في القرآن ؟ وإن كان الأمـر كذلك فأين أصبح اللسان العربي المبين ؟ وكيف نفهم قـولَ ا : « قرآناً عربيـاً غيـر ذي عِوجٍ » [٧٧] ؟ وهل نقول مع النبي : « الحمد   الذي أنزلَ على عبده الكتاب ولم يجعلْ لـه عِوجا » [٧٨] ؟

---

(٧٢) سورة الزلزلة ٩٩ / ٥.
(٧٣) سورة الليل ٩٢ / ١٩.
(٧٤) سورة البقرة ٢ / ٨٧.
(٧٥) الاتقان ٢ / ١٠٣.
(٧٦) الاتقان ٢ / ١٢.
(٧٧) الزمر ٣٩ / ٢٨.
(٧٨) الكهف ١٨ / ١.

الخَاتمة

[Blank Page]

في يقيني إن كرامةَ ا تَسلم بكرامةِ الإنسان، ومجد ا العظيم يكبر عنـدما يصـان الإنسان في حريته وشأنه. وبـ « الجهادِ » لأجل الإنسان يحظى ا ُ بـ « الجهادِ في سبيله » . وبتعبيرٍ إنساني نبيل أقول : هو الإنسان الذي يحتاج إلى عطفِ المسـلمين ومحبـتهم قبـلَ الاهتمامِ با وأنبيائِه. إن السعي إلى ا ينالُ قدسيتَه بعد السعي نحـو الإنسـان. وإن محبـةَ الإنسان تسمو، بما لا يحد، على محبةِ القرابين والكتاب المنزل والقوانين الصارمة ...

ومن كرامةِ الإنسان أن يتناولَ الباحثون عن الحقيقةِ بشيءٍ من التواضع أمام رحابـةِ العلمِ وغموضِ وثائق التاريخ، فلا يقولن أحدهم، كما يقولُ الشيخ الـدكتور : « إنّـي أدعـو العلماء في مختلفِ العالَمِ الإسلامي إلى قراءةِ هذا البحثِ خاصةً بإمعانٍ شـديد » [1] . وكمـا يحكُم بنفسِه على قيمةِ بحثِه بقوله : « وأجدى ما في هذا الكتاب أنّه قد يغني، في كـل بحـثٍ طَرقَه، عن عشراتِ الكتبِ في بابِه، ولكنّها مجتمعةً لن تُغني عنه أبداً » [2] .

فأي علمٍ نستطيع أن نأخذَه من شيخٍ ملآنٍ من ذاته! وأي بحثٍ علمي يصدر عن مثـل شيخٍ يقول : « لذلك كررنَا على شُبهاتِهم (أي شبهات العلماء) جميعاً، نَنْقُضها نَقْضا، ونردها إلى صدورهم سِهاما

----

(١) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٧.
(٢) المرجع نفسه، في صفحة الغلاف الأخير للكتاب.

قاتلات » [٣] . أهو علم أم مهاترة بحق كرامةِ الإنسان! أهو بحثٌ تاريخي أم « العقـلُ فـي تابوت. يحملُ سبحةً. في مِنخَاريه قطن » [٤] ؟ الحقيقةُ، إن « القطن الذي في منخاري العقل » صورةٌ مزعجةٌ، نَتِنةٌ، قبيحة، ولن أخشى أن يكون مصورها على حق، بل أخشَى، بعد قِراءةِ الدكتور، أن يكون الحق والعقلُ في الصورةِ إياها!

ومن كرامةِ الإسلامِ والقرآن نفسيهما ألاّ يقالَ فيهما إن « لدينا النظام الكاملَ الصـالح لعمارةِ الكون وتنظيم الحياةِ البشريةِ » [٥] ، وألا يقال بمثل هذا الهوس : « يوجد فيـهِ (فـي الإسلام) نظام حياتي كامل، لا يترك مجالاً لأي نظامٍ آخر، ولا يدع منفذًا للشعور بالحاجـةِ إلى تنظيمِ جانبٍ من جوانبِ الحياة، لأن الشريعةَ الإسلاميةَ بقواعِدها الكلّيةِ العامـةِ، وبالفقـهِ الذي بني على أصلَيهما الكبيرين (الكتاب والسنّة)، شامِلةٌ مستوعِبةٌ لكل ما تقضي به سـنّةُ الحياةِ من نُظُمٍ وأحكام » [٦] .

أي حظ سعيدٍ ينعم به المسلمون وهم واجدون في كتابٍ ا كمالَ العِلم وتمام المعرفة! حتى « إن نجاح الإنسان في الوصول إلى القمر لا ينبغي أن يدهِشَ مسلما اطّلع على ما فـي القرآن من آياتٍ محكمات » [٧] . أخشى أن يكثر، بعد خاتمِ النبيين، الأنبيـاء المعصـومون، فتكون قضيتُنا مع المسلمين لا مع الإسلام، ومصيبتُنا بالقرآنيين لا بالقرآن. إن حزنَنَـا علـى العقل « يمشي على الخزفِ، جذوره في مكانٍ، وهو في مكانٍ

---

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٤٤.
(٤) مصطفى جحا، محنة العقل في الإسلام، ص ٢٧١.
(٥) الشيخ حسن خالد، « آراء ومواقف » ، ص ١٤٥، جريدة الأنوار ٣ / ٦ / ١٩٧٣.
(٦) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، العلمانية، بيروت ١٩٨٠، ص ٨٦.
(٧) الشيخ حسن خالد، آراء ومواقف، ص ٢٩١، نقلا عن جريدة الجريدة،

آخر » [٨] ، لا على القرآن الذي رتّب لزمانِه شرائع وقوانين أصلحتْ ما كان فاسِدا في مجتمع هي له.

وقبلَ أن يضع مصطفى جحا القرآن « في المتحفِ مع المعلّقاتِ الجاهليةِ والشعرِ الذي لا يتعدى النظم والقافية » [٩] ، ألم يرِ لحكمِه رادِعا عند الشيخ الدكتور وهو يردد « إن مفهوم « التقدمِ » قرآني قديم وليس بالمستحدثِ الجديد » [١٠] ، وقد رأى ذلك بأحسن تعبير في سورةِ المدثِّر : « كلاّ والقَمر. والليل إذْ أدبر. والصبح إذا أسفَر. إنّها لإحدى الكُبر. نَذيرا للبشَر. لِمن شاء منكم أن يتَقَدم أو يتأخر » [١١] .. فهل بعد ذلك من خيارٍ بين باحثٍ قِلِـقٍ علـى مصـير الإنسان وبين من يضفي على نبوةِ الكتابِ نبوةً أخرى!؟

ومـا يضير الشيخ أن تشوقَ إلى النبوة! وفي الكتبِ المقدسةِ المنزلـةِ دعـوةً إليها: « تشوقوا إذاً، يا أخوتي، إلى النبوة » [١٢] . وعلى الجميع أن يـ « تشوقوا إلى المواهب، ولا سيما موهبة النبوة » [١٣] . وقد « قال ا : سيكون في الأيامِ الأخيرةِ فَـيض مـن روحـي، أفيضه على الناسِ أجمعين، فيتنبأ بنوهم وبناتهم » [١٤] ... فلماذا مِنعـتِ النبـوةُ عـن كافّـة الآدميين، في حين أنني سمعتُ « أتَان بلعام » تتكلّم بعد ما رأتْ مـلاك ا ، وقـد عرفـتْ مقاصده وعملتْ على خلاصِ صاحِبها من غضبِ الملاك وسيفهِ المسعور إلى الدماء[15] !

في موضوع الإسلام وغزوا الفضاء ٧ / ٨ / ١٩٦٩، بمناسبةِ وصول الإنسان إلى القمر.

(٨) مصطفى جحا، المرجع السابق، ص ١٠.

(٩) المرجع نفسه، ص ٢٠٠.

(١٠) الشيخ صبحي الصالح، الإسلام والمجتمع العصري، ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

وما يضير الناس إن اكتفَوا من عالَمِ النبوةِ والمعجزاتِ بمعجزةِ المحبة وحسب! فهـل يغضب ا ُ إِن جاهد الناس في سبيلِ المحبة، ولو كان ذلك على حسـابه، وحسـابِ جبريـل والكتابِ والأنبياءِ أجمعين! فَما شأن « المجاهِدين » لأجل الدفاعِ عن ا ، و « المـرابِطين » على حدودِه ليمنَعوا الناس عنه وعن دياره المقدسة! أصحيح ما قاله سماحتُه: « لقـد أصـبح (الجهاد) في الإسلامِ دفاعا عن العقيدةِ، وذبا عن شريعتِها، وحمايـةً لحياضِـها وأوطانِهـا، وصيانةً لمقوماتِها وطاقاتِها وقدراتِها » [١٦] !!!؟؟؟ أيحتاج ا العلي القدير إلى من يدفع عنـه وعن شريعتِه ودينِه الظلم والكفر والعدوان!

إن المعجزةَ الكبرى هي في أن تصعد إلى ا ِ عبر التاريخ والكون والإنسـان، لا أن تنزلَ إلى الأرضِ من فوق من « الأفق الأعلى » ومن « اللوحِ المحفوظِ » . قـد ينيـر ا ُ سبيلَك لتصلَ إليهِ. ولكنّك لم تقدِر الإحاطةَ به، ومعرفةَ أسراره، وعلم مشيئتِه. بدءا بالإنسـان تسير على صراطِ ا ِ القويم، ونزولاً من ا ِ تتعثّر خطاك نحو الإنسان. ولكي تقوم خطواتِك نحوه، بهذا النزول الغريب، لا بد من « الجهاد » ؛ ويدعم الجهاد عالَم من المعجزاتِ يصونُه الادعاء ويعانقُه الجنون ...

****

----

(١١) سورة المدثر ٧٤ / ٣٢ ـ ٣٧.
(١٢) الرسالة الأولى إلى أهل قورنتتس ١٤ / ٣٩.
(١٣) الرسالة الأولى إلى أهل قورنتس ١٤ / ١.
(١٤) أشعيا ٢ / ٢، أعمال الرسل ٢ / ١٧.
(١٥) سفر العدد، ٢٢ / ٢٢ ـ ٣٥.
(١٦) الشيخ حسن خالد، الشهيد في الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٨، ص ٤١ ...

المصادر والمراجع

لم أثبت في هذا الباب الاّ الكتب التي لها علاقة مباشرة بـالقرآن، بتاريخـه ونشـأته وحفظه وتدوينه ... أما ما له علاقة بالتفسير والعقيدة والأحكام والعلوم والقوانين فلـم أذكـر منها إلاّ ما كان له صلة بموضوع البحث ... وخشية التكرار لم أعد إلى ذكر بعـض الكتـب الواردة في المقدمة والكاملة التعريف ... ثم عمدت إلى سرد المراجع بحسب حروف الأبجدية لاسم الكاتب المشتهر به؛ ولم أحسب لكلمتي : ابن وأبو، وأل التعريف حساباً في الترتيب. أهم المراجع هي :

١) الابياري، ابراهيم، تاريخ القرآن، دار الشروق بيروت سنة ١٩٦٤ م.
٢) الاشيقر، محمد علي، لمحات من تاريخ القرآن، مطبعة النعمان، كربلاء، بدون تاريخ.
٣) ابن أبي الاصيبع، محمد، بديع القرآن، مكتبة النهضة بمصر، القاهرة، سنة ١٩٥٧.
٤) الاصفهاني، الراغب، المفردات في غريب القرآن، اعداد محمد أحمد خاف ا ، مكتبـة الانجلو المصرية، القاهرة سنة ١٩٧٠ م.
٥) الآصفي، علي محمد، دراسات في القرآن الكريم، مكتبة النجاح، النجـف، سـنة ١٣٨٠ هـ.
٦) الألوسي، محمود، روح المعاني، المطابع المنيرية القاهرة ١٣٤٥ هـ.

٧) ابن الانباري، البيان في غريب القرآن، دار الكاتب العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٩ م.

٨) الباقلاني، القاضي أبو بكر، اعجاز القرآن، جزءان، بهامش كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي، المكتبة الثقافية بيروت ١٩٧٣ م.

٩) البيلاوى، محمد علي، التعريف بالنبي والقرآن الشريف، دار الكتب المصرية، القاهرة، سنة ١٩٢٧ م.

١٠) البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، ٩ أجزاء في ثلاثة مجلّدات، مطابع الشعب (بدون تاريخ).

١١) بدوى، أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٠ م.

١٢) البغدادي، الحسين، معالم التنزيل، مطبعة المنار، القاهرة ١٣٤٥ هـ .

١٣) بلاشير، القرآن، نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره، عربه رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٤ م.

١٤) البنا، أحمد الدمياطي، اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر، القاهرة، سنة ١٣٥٩ هـ.

١٥) بن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، مكتبة دار العروبة، القاهرة، سنة ١٩٥٨ م.

١٦) البهي، الدكتور محمد، من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك، دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٧٣ م.

١٧) البوطي، محمد سعيد، من روائع القرآن، ط ٢، مكتبة الفارابي، دمشق، سنة ١٩٧٠ م.

١٨) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، في مجموعة من التفاسير، ٦ مجلّدات، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٣١٧ هـ.

١٩) الترمذي، الجامع الصحيح، أو « سنن الترمذي » ، مطبعة البابي،

القاهرة، سنة ١٩٣٧ م.

٢٠) التسترى، سهل، تفسير القرآن العظيم، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٩٠٨ م.

٢١) ابن تيمية، أحمد، الاكليل في المتشابه والتنزيل، المطبعة العامة الشرقية، القاهرة، سنة ١٣٢٣ هـ.

٢٢) ابن تيمية، أحمد، مقدمة في أصول التفسير، دار القرآن الكريم، الكويت (بدون تاريخ).

٢٣) الثعالبي، عبد الرحمن، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الجزائر، سنة ١٣٢٣ هـ.

٢٤) الجديلي، محمد، نظرات حديثة في التفسير، المكتب التجاري، بيروت، سنة ١٩٦٣ م.

٢٥) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الاعجاز، ط ٢، مطبعة المنار، القاهرة، سنة ١٣٣١ هـ. (نشر السيد محمد رشيد رضا).

٢٦) جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، قرآن كريم، تفسير الجلالين، مكتبة الملاح، دمشق، (بدون تاريخ).

٢٧) جملة مؤلّفين، القرآن، نظرة عصرية جديدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة ١٩٧٢ م.

٢٨) جمال، أحمد محمد، مع المفسرين والكتاب، دار الكتاب العربي، القاهرة، سنة ١٩٥٤ م.

٢٩) ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، سنة ١٣٨٦ هـ.

٣٠) الحداد، الأستاذ، القرآن والكتاب، جزءان، لا دار نشر، ولا تاريخ، في سلسلة « دروس قرآنية » .

٣١) الحداد، الاستاذ، نظم القرآن والكتاب، الكتاب الأول : اعجاز القرآن، لا دار نشر، ولا تاريخ.

٣٢) حسين، محمد الخضر، بلاغة القرآن، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٧١ م.

٣٣) أبو حيان الأندلسي، التفسير الكبير، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٨ هـ.

٣٤) ابن الخازن الشيخي، لباب التأويل في معاني التنزيل، في مجموعة من التفاسير، ٦ مجلّدات، دار احياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٣١٧ هـ.

٣٥) الخطيب، عبد الكريم، اعجاز القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٤ م.

٣٦) الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة. بدون تاريخ.

٣٧) ابن الخطيب، محمد، أوضح التفاسير، ط ٦، المطبعة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٦٤ م.

٣٨) خلف ا ، محمد وسلام، ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة ١٩٥٥ م.

٣٩) الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، ط ٢، مطبعة الآداب، النجف، سنة ١٩٦٦ م.

٤٠) الداني، أبو عمرو، المحكم في نقط المصاحف، مديرية احياء التراث القديم، دمشق، سنة١٩٦٠ م.

٤١) الداني، المقنع في رسم القرآن الكريم (مخطوط) في الجامعة الأميركية ببيروت.

٤٢) الداني، التيسير في القراءات السبع، نشر وتحقيق « برتزل » ، الاستانة، ســنة ١٩٣٠ م، سلسلة المكتبة الإسلامية، ٢.

٤٣) ابن أبي داود، أبو بكر، كتاب المصاحف، المطبعة الرحمانية، القاهرة، سنة ١٩٣٦ م.

٤٤) دراز، الدكتور محمد عبد ا ، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ط ٢، دار القلم، الكويت، سنة ١٩٧٠ م.

٤٥) دروزة، محمد عزة، القرآن المجيد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، بدون تاريخ.

٤٦) الدومي، أحمد عبد الجواد، مبعوث الأزهر الشريف بلبنان، الإسلام منهـاج وسـلوك، المكتبة العصرية صيدا بيروت، بدون تاريخ.

٤٧) الديب، محمد السباعي، البيان في اعجاز القرآن، مطبعة صبيح، القاهرة، ســنة ١٩٦٠ م.

٤٨) الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة، القاهرة، سنة ١٩٦١ م.

٤٩) الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، أو مفاتيح الغيـب، المطبعـة البهيـة المصـرية، القاهرة، سنة ١٩٣٨ م.

٥٠) الرافعي، الدكتور مصطفى صادق، اعجاز القرآن، والبلاغة النبوية، ط ٩، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٩٧٣ م.

٥١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ط ٨، مطبعة المنار، القاهرة، سنة ١٣٤٦ هـ.

٥٢) الزجاج، اعراب القرآن، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة، ســنة ١٩٦٣ م.

٥٣) أبي زرعة، الامام عبد الرحمن بن زنجلة، حجة القراءات، تحقيق

سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط ٢، بيروت، ١٩٧٩ م.

٥٤) الزرقاني، عبد العظيم، مناهل العرفان، مطبعة شبرا، القاهرة، سنة ١٣٥٩ هـ.

٥٥) الزركشي، محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، ٤ أجزاء، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، سنة ١٩٥٧ م القاهرة.

٥٦) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مطبعة محمد مصطفى، القاهرة، ١٣٥٤ هـ (٤ جزء).

٥٧) الزنجاني، أبو عبد ا ، تاريخ القرآن، ط ٣، مؤسسة الأعلمي، بيرو سنة ١٩٦٩ م.

٥٨) السجستاني، غريب القرآن، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٣٤٢ هـ.

٥٩) أبو السعود، ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، جزءان، مطبعة بولاق القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ.

٦٠) السيوري، مقداد، كنز العرفان في فقه القرآن، تبريز، ١٣١٤ هـ.

٦١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الاتقان في علوم القرآن، جزءان في مجلّد واحد، المكتبة الثقافية، بيروت، سنة ١٩٧٣ م.

٦٢) السيوطي، المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والبربرية، مكتبة القدسي والبدير، دمشق، سنة ١٣٤٨ هـ.

٦٣) السيوطي، معترك الأقران في اعجاز القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٩ م.

٦٤) شاهين، عبد الصبور، تاريخ القرآن، دار الكاتب العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٦ م.

٦٥) شحاتة، دكتور عبد ا محمود، تاريخ القرآن والتفسير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٧٢ م.

٦٦) الشرباصي، أحمد، قصة التفسير، دار القلم القاهرة ١٩٦٢ م. ودار الجيل بيـروت، ط ٢، سنة ١٩٧٨ م.

٦٧) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق محمد عبد الغني حسـن، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٥ م.

٦٨) شيخ أمين، الدكتور بكري، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت سنة ١٩٧٣ م.

٦٩) الصابوني، محمد علي، التبيان في علوم القرآن، دار الارشاد، بيروت سنة ١٩٧٠ م.

٧٠) الصالح، الدكتور الشيخ صبحي، مباحث في علوم القرآن، ط ١١، دار العلم للملايـين، بيروت، سنة ١٩٧٩ م.

٧١) صبيح، محمد، بحث جديد عن القرآن، ط ٦، دار الثقافة العامة القاهرة، بدون تاريخ.

٧٢) الصعيدي، عبد المتعال، النظم الفني في القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، سنة ١٩٥٠ م.

٧٣) الطبرسي، مجمع البيان، طهران، سنة ١٣١٤ هـ.

٧٤) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، المطبعة الأميرية القاهرة، سنة ١٣٢٣ هـ.

٧٥) الطوسي، أبو جعفر، التبيان في تفسير القرآن، المطبعة العلمية النجف، سنة ١٩٥٧م.

٧٦) الظافر، نصير الدين، حسن الايجـاز فـي ابطـال الإعجـاز، المطبعـة الإنجليزيـة الأميركانية، القاهرة، بدون تاريخ.

٧٧) عبد الجبار، القاضي، تنزيه القرآن عن المطاعن، المطبعة الجماليـة، القـاهرة، سـنة ١٣٢٩ هـ.
٧٨) عبد الرحمن، عائشة، التفسير البياني للقرآن، دار المعارف بمصـر، القـاهرة، سـنة ١٩٦٢ م.
٧٩) عبد الرحمن، عائشة، القرآن والتفسير العصري، دار المعارف بمصر، القاهرة، سـنة ١٩٧٠ م.
٨٠) عبدو، محمد، تفسير جزء عم، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٤١ هـ.
٨١) أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٩٥٤ م.
٨٢) العدوى، محمد مخلوف، عنوان البيان في علوم التبيان، مطبعة المعاهد، القاهرة، سـنة ١٣٤٤ هـ.
٨٣) ابن العربي، أحكام القرآن، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٣١ هـ.
٨٤) العزوزى، محمد العربي، دليل مباحث علوم القرآن المجيـد، دار الانصـاف بيـروت ١٩٥٦ م.
٨٥) العسكري، الحسن، تفسير العسكري، تبريز، سنة ١٣١٤ هـ.
٨٦) عطاء، عبد القادر، التفسير الصوفي للقرآن، دار الكتب الحديثة القاهرة سنة ١٩٦٩ م.
٨٧) العطار، الدكتور داود، موجز علوم القرآن، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيـروت، ط ٢، سنة ١٩٧٩ م.
٨٨) العكبرى، املاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميـع القـرآن، المطبعة الميمنية، القاهرة، سنة ١٣٢١ هـ.
٨٩) العلوي، عبد ا ، تفسير القرآن، طهران، سنة ١٣٥٢ هـ.
٩٠) الغزالي، جواهر القرآن، مطبعة الدين الكردي القاهرة،

سنة ١٣٢٩ هـ.
٩١) الغزالي، محمد، نظرات في القرآن، ط ٣، دار الكتب الحديثة القاهرة، سنة ١٩٦٢ م.
٩٢) جفرى، آرثر، مقدمتان في علوم القرآن، مكتبة الخانجي القاهرة، سنة ١٩٧٢ م.
٩٣) الفراء، معاني القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٥ م.
٩٤) الفيض الكاشاني، الصافي في تفسير القرآن، المطبعة الإسلامية، طهران، سنة ١٣٧٤ هـ.
٩٥) قبيسي، الدكتور محمد، تدوين القرآن الكريم، الوثيقة الأولى في الإسلام، دار الآفـاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١ م.
٩٦) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، دار احياء الكتب العربية القاهرة سنة ١٣٧٣ هـ.
٩٧) ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق السيد أحمد صقر، سنة ١٩٧٨ م.
٩٨) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٥ م.
٩٩) القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، الدار السعودية للنشر، الرياض، بدون تاريخ.
١٠٠) قطب، سيد، التصوير الفنّي في القرآن، دار الشروق، بيروت، بدون تاريخ.
١٠١) قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٩٥٣ م.
١٠٢) القيسي، قاسم محمد، تاريخ التفسير، المجمع العلمي العراقي، بغداد، سنة ١٩٦٦ م.

١٠٣) ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٣ م.

١٠٤) ابن قيم الجوزية، كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٢٧ هـ.

١٠٥) ابن كثير، اسماعيل، تفسير الحافظ ابن كثير، مطبعة المنار، القاهرة، ١٣٤٣ هـ.

١٠٦) لاشين، دكتور عبد الفتاح، البديع في ضوء أساليب القرآن، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٩ م.

١٠٧) لاشين، المعاني في ضوء أساليب القرآن، ط ٣، سنة ١٩٧٨ م.

١٠٨) لاشين، البيان في ضوء أساليب القرآن، سنة ١٩٧٧ م.

١٠٩) المبرد، ما اتّفق لفظه واختلف معناه في القرآن المجيد، المطبعة السلفية القاهرة، سنة ١٣٥٠ هـ.

١١٠) مخلوف، دكتور عبد الرؤوف، الباقلاني وكتابه اعجاز القرآن، دراسة تحليلية نقدية، دار مكتبة الحياة، بيروت، سنة ١٩٧٨ م.

١١١) مكّي، أبو محمد بن أبي طالب القيسي، العمدة في غريب القرآن، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨١ م.

١١٢) النحاس، أبو جعفر، الناسخ والمنسوخ في القرآن، مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٣٧٢ هـ.

١١٣) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، في مجموعة من التفاسير، ٦ مجلدات، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣١٧ هـ.

١١٤) النمر، الدكتور عبد المنعم، علوم القرآن الكريم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٩ م.

١١٥) النيسابوري، غرائب القرآن وغرائب الفرقان، المطبعة الأميرية،

القاهرة، سنة ١٣٢٣ هـ.

١١٦) الواحدي، علي، أسباب النزول، مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٩٦٨ م.

١١٧) BLACÈERE, Régis, Introduction au Coran; Ed. Besson et Chantemerle; Paris 1959.

١١٨) BLACHERE, Régis, Le Coran; Coll. "Que sais-Je?"; P.U.F.; Paris 1977.

١١٩) CASANOVA, P., Mohammed et la fin du monde; Paris, 1911-1913; 2 fasc.

١٢٠) ENCYLOPEDIE DE L'ISLAM, Leyde, Plusieurs articles: Arab, Arabya, Kur'an, Madina, Mekka, Muhammad, Djazirat al-'Arab…

١٢١) NÖLDEKE, SCHWALLY, BERGSTRASSER et PRETZL, Geschichte des Qorans, Leipzig, 1919- 1938; 3 vol; I, Uber den Urspung des Qorans; II, Die Sammlung des Qorans; III, Die Geschichte des Qorantexts.

****

مواضيع الكتَاب

انتهى في ١٥ ربيع الثاني ١٤٠٢ هـ